جول فيرن
رحلة إلى مركز الأرض
رواية
فريق متميزون
E-BOOK
ترجمة: رنده حكيم

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رحلة الى مركز الأرض

رواية مترجمة..

الكاتب: چول فيرن
ترجمة: رنده حكيم

الفصل الأول

كان ذلك يوم الأحد 24 مايو عام 1863 تحديدًا، عندما عاد عمي البروفيسور ليدنبروك مسرعًا إلى منزله الصغير، الكائن في 19 شارع كونينج شتراسه، أحد أقدم الشوارع في الحي العتيق في مدينة هامبورج. ويبدو على الأغلب أن الخادمة مارتا ظنت حينها أنها قد تأخرت كثيرًا في إعداد العشاء، فقد كانت أواني الطهي قد بدأت تغلي بالكاد على الموقد في المطبخ حينما عاد البروفيسور إلى منزله. وقلت لنفسي: «حسنًا، إن عمي هو أقل الرجال صبرًا وإذا شعر بالجوع فسوف يطلق على الفور صيحات الاستغاثة!».

- الآن يا بروفيسور؟!

صاحت الخادمة مارتا مندهشة وهي تفتح باب غرفة الطعام بتردد.

- نعم يا مارتا، ولكن لا بأس، لديك كل العذر في عدم الانتهاء من إعداد الطعام حتى الآن، فالساعة لم تبلغ الثانية بعد، فقد دقت ساعة ميدان سان ميشيل الواحدة والنصف منذ لحظات.

- لماذا عاد سيدي البروفيسور الآن إذَنْ؟

تساءلت مارتا في دهشة.

- ربما يخبرنا هو بالسبب يا مارتا.

- ها هو قادم يا سيد آكسل، فلأهرب أنا إلى مطبخي ولتعِده أنت إلى صوابه.

وانطلقت الخادمة مارتا عائدة إلى مختبر الطهي.

وبقيت بمفردي أفكر كيف يُطلَب مني أنا أن أعيد الصواب إلى هذا البروفيسور الغضوب؟ هذا أمر لا تسمح لي شخصيتي التي تميل إلى التردد أن أقوم به أبدًا. وبدأت سريعًا أستعد أنا الآخر للعودة إلى حجرتي الصغيرة في أعلى المنزل تحسبًا، عندما سمعت صرير مفصلات باب المدخل ودبيب أقدام ثقيلة على درجات السلم الخشبية، معلنة قدوم سيد المنزل الذي عبر حجرة الطعام مندفعًا إلى حجرة مكتبه، تاركًا عصاه ذات المقبض الذي على شكل كسارة البندق في أحد الأركان، وملقيًا قبعته العريضة ذات الشعيرات المجعدة على الطاولة، وموجهًا هذه الكلمات إلى ابن أخيه بصوت رنان:

- آكسل، اتبعني.

ولم أكد أتحرك من مكاني حتى سمعت البروفيسور يصيح وقد نفد صبره:

- أين أنت؟ ألم تأتِ بعد؟

وأسرعت إلى مكتب معلمي الرهيب. لم يكن أوتو ليدنبروك رجلًا سيئًا، أقر وأعترف بذلك طواعية ولكن، ما لم تحدث تغييرات غير متوقعة، فإنه حتمًا سيشيخ ويموت وهو كما هو لم يتغير، بل سيبقى متقمصًا شخصية الرجل الرهيب الذي نعرفه.

كان أوتو يعمل أستاذا في مبنى اليوهانيوم، وكان يلقي محاضرات في علم التعدين، يثور ويغضب خلالها مرة أو مرتين بانتظام، ولا يعني ذلك أنه كان يهتم بوجود طلاب مجتهدين في دروسه، ولا بدرجة اهتمامهم بما يلقيه عليهم، ولا بالنجاح الذي يمكنهم أن يحصلوا عليه بعد ذلك. هذه كلها تفاصيل لم تكن تشغل باله كثيرًا. فقد كان يعلم «بشكل شخصي»، متبعًا مقولة الفلسفة الألمانية: «من أجله هو وليس من أجل الآخرين». كان أوتو عالمًا أنانيًّا، بئر من العلم تئن رافعتها لو أردت أن تستخرج منها شيئًا: بمعنى أنه كان عالمًا بخيلًا. في ألمانيا تجد عددًا من العلماء من هذا النمط نفسه.

لسوء الحظ لم يكن عمي يتمتع بسهولة كبيرة في النطق ما لم يكن يتكلم في دائرة أشخاص حميمين. على الأقل كان يتعثر كلما كان عليه أن يتكلم على الملأ، وهذا عيب مؤسف عند أي خطيب. وبالفعل كان البروفيسور كثيرًا ما يتوقف فجأة عن الكلام وهو يلقي محاضراته في اليوهانيوم، يصارع كلمة عنيدة ترفض أن تأتي على لسانه - واحدة من هذه الكلمات التي تقاوم، تنتفخ ثم تخرج من فمه أخيرًا في صورة سباب قليل الصلة بالعلم. وهنا تثور ثائرته. وكان علم التعدين علمًا تكثر فيه المصطلحات نصف اليونانية ونصف اللاتينية التي تستعصي على النطق، ويذخر بالتسميات القاسية التي تشق حتى على أفضل الشعراء. أنا لا أريد أن أذكر هذا العلم بأي سوء، ولكن عندما تصادف المعلم مصطلحات مثل البلورات مُعَيَّنية الشكل (على شكل المعين)، والتكلسات ذات الأنياب، ومولیبدات الرصاص، وتنجستات المنجنيز، وتيتانيات الزيركون، يصبح من حقه أن يرتبك حتى وإن كان خطيبًا مفوهًا.

وكان الناس في البلدة يعرفون عن عمي هذه الإعاقة البسيطة وكانوا يستغلونها. كانوا ينتظرون أن يتعثر عند المقاطع الصعبة فيثور ليضحكوا منه. ولم يكن هذا أمرًا مهذبًا، حتى بين الألمان. دروس البروفيسور ليدنبروك وإن كانت تحظى دائمًا بحضور الكثيرين إلا أن كثيرين أيضًا من كانوا يجتهدون في الحضور فقط ليستمتعوا بمشاهدة نوبات ثورته. على أي حال، كان عمي عالمًا حقيقيًّا لا يسعني أن أفيه حقه مهما قلت. فقد كان يجمع بين عبقرية الجيولوجي وعين عالم التعدين حتى وإن انكسرت عيناته في بعض الأحيان وهو يتعامل معها بعنف أكثر مما يلزم. عمي كان يجمع بين عبقرية الجيولوجي وعين خبير التعدين الفاحصة. وكان رجلًا قويًّا جدًّا بمطرقته وإزميله الفولاذي وإبرته الممغنطة والشعلة وزجاجة حمض النيتريك، وكان قادرًا على تصنيف أي معدن مجهول في مكانه الصحيح بين الستمائة معدن المصنفين في هذا العلم اليوم من دون أي تردد، وذلك عن طريق تكسر هذا المعدن وشكله ودرجة صلابته وانصهاره والصوت الذي يصدر عنه ورائحته ومذاقه. كان اسم ليدنبروك يتردد بفخر واعتزاز في القاعات الرياضية والجمعيات الوطنية، كما أن علماء مثل: سير همفري ديفي ودي هامبولدت والقباطنة فرانكلين وسابين، لم يكن يفوتهم أن يقوموا بزيارته كلما مروا بهامبورج. وعظماء مثل: بيكوريل وايبلمان وبرويستر ودوما وميلنا- إدواردز وسانت كلير دوفيل، كانوا يحبون دومًا أن يستشيروه في المواضيع الأكثر تعقيدًا في الكيمياء. وبالفعل فإن هذا العلم مدين له باكتشافات مذهلة. ففي عام 1853 نشرت في مدينة لايبزيج رسالة عن البلورات النادرة، من إعداد البروفيسور أوتو ليدنبروك، في صحيفة كبيرة بها لوحات، ولكنها لم تؤتِ حتى تكلفة إعدادها.

وبالإضافة إلى ذلك كان عمي أمين متحف المعادن الذي يملكه السفير الروسي السيد ستروفه، والذي كان يضم مجموعة مقتنيات ثمينة ذائعة الصيت في أوروبا. هذا هو إذَنْ الشخص الذي كان يناديني بهذا القدر من نفاد الصبر. أترككم لتتخيلوا رجلًا طويل القامة، نحيلًا، ذا صحة فولاذية وشعر أشقر شاب يجعله يبدو أصغر من عمره الخمسيني بنحو عشر سنوات، وعينين كبيرتين لا تكفان عن الدوران خلف زجاج نظارته السميكة، وأنف طويل رفيع يشبه النصل المدبب، كان الأشرار يدعون أنه ممغنط يجذب إليه برادة الحديد. لغو فارغ: فهذا الأنف لم يكن يجذب سوى التبغ وبكميات هائلة، حتى أكون صادقًا.

ولو أضفت إلى ذلك أن عمي كان يسير بخطوات رياضية يرفع فيها ساقه لمسافة محسوبة، ولو قلت إنه كان وهو يمشي يضم قبضتي يديه بشدة دليلًا على طبعه شديد التهور، تكونوا قد عرفتموه بما يكفي لتتيقنوا أن صحبته لم تكن ممتعة البتة.

كان يعيش في بيته الصغير في كونينج شتراسه، وهو بيت نصفه من الخشب والنصف الآخر من الطوب والقرميد المدبب. وكان المنزل يطل على واحدة من هذه القنوات المتعرجة التي تخترق أحد أقدم أحياء هامبورج، والذي لحسن الحظ لم يطله الحريق الذي حدث عام 1842.

كان المنزل القديم مائلًا إلى حدٍّ ما، كمثل شخص بدين يعلو بطنه السمين في وجه المارة، ويحمل سقفه مائلًا على الجانب كمثل قبعة طالب منتمٍ إلى عصبة الفضيلة (وهي جمعية سياسية سرية، تأسست في بروسيا عام 1808 بهدف إحياء النزًعة القومية)، وإن كانت خطوطه الجريئة تدعو إلى الإعجاب. وفي النهاية كان المنزل ينتصب قويًّا بفضل شجرة الدردار العتيقة المسنودة بقوة على واجهته، والتي كانت تنمو براعمها المزهرة في الربيع لتطل إلى الداخل عبر زجاج النوافذ.

كان عمي ثريًّا مقارنة بالوضع المادي لبروفيسور ألماني. فقد كان يملك المنزل بكل ما فيه وما عليه. أما في المنزل فكانت جروبن ابنته الروحية، وهي فتاة شابة من فيرلاند في السابعة عشرة من عمرها، والخادمة مارتا وأنا. وبصفتي يتيمًا وابن أخيه أيضًا، أصبحت أنا المساعد المسؤول عن الإعداد للتجارب التي يجريها البروفيسور. ويجب أن أعترف أنني كنت ألتهم العلوم الجيولوجية التهامًا، فقد كان دم عالم التعدين يجري في عروقي أنا الآخر، ولم أكن أمل قَطُّ وأنا في صحبة أحجاري القيمة الثمينة.

في النهاية كنت أحيا حياة سعيدة في هذا المنزل الصغير في كونينج شتراسه، بالرغم من صاحب المنزل ونوبات نفاد صبره، وذلك لأنه بالرغم من حدة هذه النوبات أحيانًا فإنه كان يبادلني حبًّا بحب. ولكنه كان رجلًا لا يعرف الانتظار، دائم التعجل بصورة أكثر من المعتاد.

وفي شهر أبريل من كل عام كان يزرع نبتات صغيرة من زهور الليلك في أوانٍ فخارية في حجرة الصالون، وكان يذهب كل صباح ليشد أوراقها حتى يتعجل نموها. مع إنسان ذي شخصية فريدة مثله، لا يملك المرء سوى أن يطيع. وبالتالي فقد أسرعت خلفه إلى حجرة مكتبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كان هذا المكتب متحفًا حقيقيًّا. وكان يحوي عينات من كل الأنواع التي يعرفها عالم المعادن، وكل منها يحمل بطاقة تدل على نوعه. وكانت هذه العينات محفوظة بنظام لا مثيل له في ثلاثة أقسام رئيسة: الأملاح القابلة للاشتعال، والأملاح المعدنية، والنيازك غير الحديدية. كم كنت أعرفها جيدًا هذه الحلي الجميلة في علم التعدين، وكم مرة بدلًا من اللهو مع أولاد في مثل سني كنت أمضي الوقت مستمتعًا بإزالة الغبار عن عينات الجرافيت والانثراسيت والفحم والليغنيت والخث، وبالمثل عينات القار والراتنجات والأملاح المعدنية التي كان يجب أن تحفظ جيدًا حتى لا تطالها ولو ذرة تراب واحدة. وهذه المعادن، من الحديد إلى الذهب، والتي كانت قيمتها النسبية تختفي أمام المساواة المطلقة بين كافة العينات العلمية، وهذه الصخور كلها التي كانت تكفي لإعادة بناء هذا المنزل في كونينج شتراسه ومعه حجرة إضافية، كم كان يسعدني أن أحظى بشرف حفظها.

ولكني لم أكن أفكر مطلقًا في كل هذه العجائب عندما دخلت إلى حجرة المكتب، فقد كان بالي مشغولًا فقط بعمي الذي وجدته يجلس مختفيًا في كرسيه الضخم المزين بالمخمل، ممسكًا بين يديه بكتاب يتطلع إليه بكل إعجاب.

«أي كتاب هذا! أي كتاب!» صاح قائلًا. ذكَّرتني صيحة الإعجاب هذه كيف أن البروفيسور ليدنبروك مولع أيضًا بجمع الكتب في الأوقات التي يكون فيها رائق المزاج. ولكن أي كتاب لم تكن له قيمة في نظره إلا لو كان كتابًا نادرًا لا يوجد له مثيل، أو كان على أقل تقدير كتابًا صعبًا يستعصي على القراءة.

- يا الله! ألا ترى هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، والذي عثرت عليه اليوم وأنا أتجول في محل اليهودي هيفيليوس؟

أجبته بحماس زائف قائلًا:

- رائع.

حقًّا ما الداعي لهذا الصخب من أجل مجلد قديم يبدو غلافه وجوانبه وكأنها صنعت من جلد عجل بري، كتاب كالح اللون يتدلى منه فاصل صفحات مشوه.

ومع ذلك لم يتوقف البروفيسور عن ترديد عبارات الإعجاب:

- انظر.

طفق عمي يردد وهو يطرح السؤال ويجيب عليه بنفسه:

- أليس جميلا جدًّا؟ نعم، إنه رائع. وأي غلاف هذا! هل يفتح هذا الكتاب بسهولة؟ نعم، نعم، لأنه يبقى مفتوحًا على أي صفحة. ولكن هل يغلق جيدًا؟ نعم، نعم، لأن الغلاف والأوراق تبدو وكأنها شيء واحد مرتبط ببعضه جيدًا من دون أن ينفصل أيها عن الآخر في أي موضع. وهذا الغلاف الذي لا

يبدو عليه أي ثنية أو كسرة بينما الكتاب عمره سبعمائة عام. هذا تجليد يفخر به حقًا من أنجزه بهذه الروعة.

واستمر عمي يتكلم بكل هذا الحماس، يفتح الكتاب ويقلب صفحاته ويطويها بلا توقف. ولم يكن أمامي سوى أن أبدي شغفًا مصطنعًا وأن أسأل بحماس كاذب عن محتوى الكتاب:

- وما هو إذَنْ عنوان هذا الكتاب الرائع؟

حتى ولو لم يكن عندي أدنى اهتمام بمعرفة الرد.

واستطرد عمي بحماس متزايد:

- هذا العمل هو كتاب الهايمز-كرينجله، لمؤلفه سنوره تورلسون، الكاتب الأيسلندي الشهير من القرن الثاني عشر. والهايمز- كرينجله هو قصص تحكي تاريخ الأمراء النرويجيين الذين حكموا أيسلندا.

- حقًّا؟

أجبته وأنا أتصنع الانبهار بقدر ما استطعت.

- وبالطبع هو مترجم عن اللغة الألمانية أليس كذلك؟

- كلا.

أجاب عمي معترضًا بشدة.

- وماذا تعنيني الترجمة؟ هذا الكتاب هو العمل الأصلي باللغة الأيسلندية، هذه اللغة الرائعة بمفرداتها الغنية والبسيطة في آن واحد، التي تسمح باستخدام التركيبات النحوية الأكثر تنوعًا، وتتيح إدخال تعديلات كثيرة على العديد من الكلمات المستخدمة.

وأشرت قائلًا وأنا أشعر بالسعادة:

- تمامًا مثل اللغة الألمانية.

- نعم.

رد عمي وهو يهز كتفيه.

- ولكن لا تنسَ أن اللغة الأيسلندية تحتوي على الأجناس الثلاثة مثل اللغة اليونانية، وتنبذ أسماء العلم مثل اللاتينية.

- آه!

وبدأ عدم اكتراثي بالأمر كله يهتز.

- وهل الحروف في هذا الكتاب جميلة الشكل؟

- حروف! من الذي ذكر الحروف هنا أيها التعس آكسل! طبعًا إنها حروف، هل تعتبر هذه التحفة كتابًا مطبوعًا! يا جاهل، هذه مخطوطة، ومخطوطة رونية.

- رونية؟

- نعم، والآن ستطلب مني أن أشرح لك معنى هذه الكلمة؟

- بالطبع.

أجبته بنبرة رجل جُرح في كرامته.

ولكن عمي استمر بحماس لا ينقطع في تثقيفي رغمًا عني، عن أشياء لا يهمني أن أعرفها مطلقًا.

- الرونية هي حروف للكتابة كانت تستخدم قديمًا في أيسلندا، وكما تقول الأسطورة فإن من اخترعها هو الإله الأيسلندي القديم أودين. انظر إذَنْ وتأمل، أيها الجاحد، ألا تبهرك هذه الأشكال التي رسمها خيال إله؟

حسنًا. ولأني لم أجد إجابة فكرت أن أنحني له حتى تلمس جبهتي الأرض، هذه هي الإجابة التي يجب أن ترضي الآلهة والملوك أيضًا؛ لأنها إجابة ترفع عنهم أي حرج عندما يحدث ما يغير مسار الحديث.

ثم حدث أن انزلقت مخطوطة قديمة قذرة من الكتاب ووقعت على الأرض. وأسرع عمي يلتقط هذا الشيء بهلع يمكن تفهمه، مخطوطة قديمة مخبأة داخل كتاب أثري منذ وقت لا نعلمه، هي بالنسبة له بمثابة كنز ثمين.

- ما هذا؟

صاح عمي متسائلًا وهو يفرد بعناية على الطاولة مخطوطة طولها خمس بوصات، وعرضها ثلاث بوصات، تمتد عليها في خطوط عرضية حروف جريموار (1).

(1) حروف جريموار: هي حروف تشبه حروف اللغة اللاتينية، وكانت تستخدم في كتب السحر في أوروبا منذ القرن الثامن عشر.

ظل البروفيسور يحدّق في هذه المجموعة من الحروف والأشكال للحظات قليلة، ثم رفع نظارته الطبية عن عينيه وقال:

- هذه حروف رونية، هذه الأشكال متطابقة تمامًا مع الأشكال التي وردت في مخطوطة سنوره تورلسون. ولكن... ماذا يعني هذا؟

ولأن الرونية كانت تبدو لي وكأنها اختراع اخترعه العلماء ليعذبوا به العالم البائس، لم أغضب وأنا أرى أن عمي هو الآخر لم يكن يفقه عنها شيئًا. على الأقل هذا ما استنتجته وأنا أرقب حركة أصابعه التي بدأت ترتعش بشدة وهو يهمهم قائلًا:

- ومع ذلك فإن هذه الكتابة هي من اللغة الأيسلندية القديمة.

من المؤكد أن بروفيسور ليدنبروك كان يعلم ما يقول، لأنه مشهور بكونه متعدد اللغات. لا أدعي أنه يتكلم بطلاقة الاثنين مليون لغة والأربعة ملايين لهجة التي يتكلم بها البشر على سطح هذا الكوكب، ولكنه في النهاية يعرف الجزء الأكبر منها.

وأمام هذه الصعوبة التي وقف عاجزًا حيالها، استسلم البروفيسور تمامًا لكل ما تحمله شخصيته من عصبية واندفاع. كنت أتوقع مشهدًا عنيفًا عندما دقت ساعة الحائط المعلقة فوق المدفأة معلنة الثانية بعد الظهر. وعلى الفور فتحت الخادمة مارتا باب حجرة المكتب وهي تقول:

- الحساء جاهز على طاولة الطعام.

وصاح عمي قائلًا:

- فليذهب الحساء ومن أعدته ومن سيتناوله إلى الجحيم معًا.

وانطلقت مارتا هاربة من وجهه وانطلقت خلفها، ومن دون أن أعلم وجدت نفسي جالسًا في مكاني المعتاد في حجرة الطعام.

وانتظرت لحظات قليلة ولم يأتِ البروفيسور، وكانت هي المرة الأولى على ما أعلم، التي يتخلف فيها عن مائدة العشاء. وأي عشاء! حساء المقدونس! وعجة لحم الخنزير بنكهة جوزة الطيب وريش اللحم المطهو مع كمبوت البرقوق، وأخيرًا الحلوى جمبري مسكر، ومع كل هذا نبيذ لاموسيل الفاخر.

كل هذا كان عمي مستعدًّا للتضحية به في سبيل ورقة قديمة. وبما أنني ابن أخيه المحب المضحي، وجدت لزامًا عليَّ أن أتناول طعامه بدلًا منه بالإضافة إلى طعامي أنا أيضًا. وهذا ما قمت به بكل تفانٍ.

وصاحت الخادمة مارتا متعجبة:

- لم أرَ هذا يحدث من قبل، السيد ليدنبروك يتخلف عن مائدة الطعام!

- هذا أمر لا يصدق!

- بل إنه ينذر بأمر خطير.

أجابت الخادمة العجوز وهي تهز رأسها. أما أنا فكان رأيي أن هذا لا ينذر بشيء سوى ثورة غضب عارمة عندما يأتي عمي ويكتشف أنني التهمت عشاءه.

وبينما كنت أبتلع آخر قطعة جمبري، سمعت صوتًا هادرًا انتزعني من لذة الحلوى الجميلة. واندفعت من حجرة الطعام إلى حجرة المكتب في قفزة واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

- بالتأكيد هذه لغة رونية.

ردد البروفيسور قائلًا وهو يعقد حاجبيه.

- ولكن هناك سرًّا ما وسوف أكشف هذا السر، وإلا...

وأكملت حركة يده العنيفة الجملة السابقة.

- اجلس هنا.

أضاف عمي وهو يشير بقبضة يده إلى الطاولة.

- واكتب.

وامتثلت على الفور.

- والآن، سوف أملي عليك كل حرف من أبجديتنا يماثل كل حرف من هذه الحروف الأيسلندية. وسنرى ما الذي سنحصل عليه. ولكن، احترس واحذر أن تخطئ.

وبدأت حصة الإملاء واجتهدت بقدر ما أستطيع، وتوالت الحروف حتى أسفرت عن هذه الكلمات المبهمة:

ولما انتهينا من هذا العمل، أمسك عمي الورقة التي كنت أدون عليها الكلمات وفحصها باهتمام بالغ. ثم قال:

- ماذا يعني هذا؟

وبدأ يردد هذا التساؤل من دون توقف.

أقسم بشرفي إنه لم يكن باستطاعتي أن أقدم له تفسيرًا لما كتبت. وفي الحقيقة أن سؤاله لم يكن موجهًا لي أنا، بل إنه كان يحدث نفسه واستمر قائلًا:

- هذا ما نسميه كريبتوجرام، وهو الذي يكون المعنى فيه مختبئًا خلف حروف مبهمة عن عمد، وهي حروف لو رُتبت بطريقة صحيحة فسوف تسفر عن جملة مفهومة المعنى. أظن أن هذه الحروف ربما تقدم تفسيرًا أو إشارة ما إلى اكتشاف كبير.

أما أنا فكنت أظن أنه لا يوجد شيء على الإطلاق خلف هذه الحروف، ولكني التزمت الحذر واحتفظت برأيي لنفسي. ثم أمسك البروفيسور بالكتاب والمخطوطة وقارن بينهما وقال:

- هذه الكلمات لم تخطها نفس اليد. هذا الكريبتوجرام أقدم من الكتاب وأرى هنا دليلًا لا يقبل الجدل. في الواقع هذا الحرف الأول M هو مكرر، كنا سنبحث عنه من دون جدوى في كتاب تورلسون، لأن

هذا الحرف لم يكن موجودًا في الأبجدية الأيسلندية قبل القرن الرابع عشر. وبالتالي، فإن هناك نحو مائتي عام ما بين المخطوطة والكتاب.

ويجب أن أعترف أن هذا التفسير بدا لي تفسيرًا منطقيًّا. واستطرد عمي قائلًا:

- إذَنْ يمكنني أن أتصور أن واحدًا من مُلاك هذا الكتاب هو الذي قام بكتابة هذه الحروف الغامضة. ولكن من هو هذا الشخص؟ ألم يكتب اسمه في أي موضع في هذه المخطوطة؟

وأنزل عمي نظارته عن عينيه وأمسك بعدسة مكبرة قوية وبدأ يفحص الصفحات الأولى من الكتاب بكل دقة. وفي ظهر الصفحة الثانية، تلك التي حملت العنوان الخطأ، اكتشف ما يشبه البقعة، تشبه بقعة الحبر، ولكن عندما تفحَصها عن قرب، تتبين لك بعض الحروف الممسوحة جزئيًّا. وهنا انتبه عمي أن السر الهام يقبع خلف هذه البقعة، فانكب عليها يفحصها بكل دقة مستعينًا في ذلك بعدسته المكبرة، ونجح في معرفة بعض الحروف، حروف رونية قرأها من دون تردد بلهجة المنتصر قائلًا:

- آرنه ساكنوسسيمم، هذا اسم، اسم أيسلندي، اسم عالم من القرن السادس عشر. خيميائي شهير جدًّا.

ونظرت إليه بإعجاب شديد. واستطرد هو قائلًا:

- هؤلاء الخيميائيون، آفيسين، بيكون، لول وباراسيلس، كلهم كانوا علماء حقيقيين، العلماء الوحيدون في زمانهم. هؤلاء قاموا باكتشافات يحق لنا أن ننبهر بها. لم لا يكون هذا الساكنوسسيمم هو الآخر قد خبَّأ تحت هذا الكريبتوجرام غير المفهوم اختراعًا مدهشًا؟ لا بد وأن الأمر كذلك، هذا هو الأمر بالفعل.

واشتعل خيال البروفيسور تجاوبًا مع هذه النظرية.

وأجبته مترددًا:

- نعم، بلا شك، ولكن ما الذي يفيد هذا العالم لو خبأ اختراعه الرائع بهذه الطريقة؟

- لماذا فعل ذلك، لماذا؟ وهل أعلم أنا لماذا فعل ذلك؟ ألم يفعلها جاليليو عندما اكتشف زحل؟ عمومًا، سنرى. أنا سأكشف سر هذا الكتاب، ولن يداعب النوم جفنيَّ ولن أتناول أي طعام قبل أن أفعل.

وتعجبت في سري مما قاله عمي.

- وأنت أيضًا مثلي يا آكسل.

عقَّب عمي قائلًا.

وقلت لنفسي: «تبًّا، حسن جدًّا أنني تناولت اليوم عشاء شخصين».

واستطرد عمي قائلًا:

- فلنبدأ إذَنْ، يجب أن نكتشف اللغة التي كتبت بها هذه المخطوطة. لن يكون الأمر صعبًا.

وعند هذا الحد رفعت رأسي باهتمام. واستمر عمي وكأنه يحدث ذاته:

- ليس أسهل من هذا الأمر. هذا الكتاب يحتوي على مائة واثنين وثلاثون حرفًا، منهم تسعة وسبعون حرفًا ساكنًا مقابل ثلاثة وخمسين حرفًا متحركًا. في الحقيقة، الكلمات في اللغات الجنوبية تتكون تبعًا لهذه النسبة تقريبًا، بينما المصطلحات في لغات الشمال تكون أكثر غنى بالحروف الساكنة. إذَنْ، نحن بصدد إحدى لغات الجنوب.

وكان هذا الاستنتاج صائبًا جدًّا.

- ولكن أي لغة هي؟

وهنا انتظرت رأي العالم الكبير الذي اكتشفت فيه أيضًا محللًا عميق الفكر. واستمر عمي في حديثه قائلًا:

- هذا الساكنوسسيمم كان رجلًا متعلمًا، وبما أنه لم يكن يكتب بلغته الأم فلا بد وأنه اختار وفضَّل الكتابة باللغة السائدة في أوساط العلماء والمثقفين في القرن السادس عشر، وأعني بذلك اللاتينية. ولو كنت مخطئًا، يمكنني أن أجرب اللغة الإسبانية أو الفرنسية أو اليونانية أو العبرية. ولكن العلماء في القرن السادس عشر كانوا يكتبون في العموم باللغة اللاتينية. وبالتالي أكون محقًّا لو وضعت هذا الاحتمال أولًا. هذه لغة لاتينية.

وعند هذا الحد تململت في مقعدي. فذكرياتي كدارس للغة اللاتينية تمردت على هذا الادعاء بكون هذه السلسلة من الحروف باروكية الشكل يمكن أن تكون منتمية إلى لغة فيرجيل الرقيقة.

- نعم هي حروف لاتينية.

أضاف عمي قائلًا.

- ولكنها لاتينية ملتبسة.

وقلت في نفسي: «تعليق في وقته تمامًا. لو أمكنك أن تفك شفرة هذا الالتباس، تكون عالمًا حقًّا يا عمي العزيز».

- دعنا نفحصها جيدًا.

قال عمي هذا وأمسك بالورقة التي كتبت عليها ما أملاه عليَّ. هذه سلسلة من مائة واثنين وثلاثين حرفًا مكتوبة في فوضى جلية. هناك كلمات تلتقي فيها الحروف الساكنة فقط مثل الكلمة الأولى «m.rnlls»، وكلمات أخرى، على العكس، تكثر فيها الحروف المتحركة مثل الكلمة الخامسة على سبيل المثال «unteief»، أو قبل الأخيرة «oseibo».

ومن الواضح أن هذا التسلسل لم يكن مقصودًا منه أن يكون مرتبًا. إنما هو ترتيب حسابي يخضع للسبب الغامض الذي حكم تسلسل هذه الحروف. يبدو لي بكل تأكيد أن هذه الجملة البدائية قد كتبت بطريقة منتظمة، ثم قلب ترتيبها تبعًا لقانون أو قاعدة يجب أن نكتشفها. إن من يملك مفتاح هذه «الشفرة» سوف يتمكن من قراءتها بسلاسة. ولكن ما هو المفتاح؟

- آكسل، هل تملك هذا المفتاح؟

ولم أجب على هذا السؤال بكلمة واحدة، ولسبب وجيه امتنعت عن الإجابة. كانت عيناي قد تسمرتا على بورتريه رائع معلق على الحائط، بورتريه جروبن. ربيبة عمي كانت في هذا الوقت عند إحدى قريباتها في آلتونا، وكنت تعيسًا جدًّا لغيابها. الآن أعترف أن الفيرلاندية الجميلة وابن أخ البروفيسور كانا متحابين بكل الصبر والهدوء اللذين يميزان الألمان. كنا قد ارتبطنا بالخطبة من دون علم عمي الذي كان عالمًا يرتبط بالحجر لدرجة لا تجعله يتفهم مثل هذه المشاعر. جروبن كانت شابة شقراء رائعة، زرقاء العينين، ذات طبع تغلب عليه الجدية والتفكير العقلاني، ولكن هذا لم يمنعها من أن تحبني. أما أنا فكنت أعشقها لو كان لهذه الكلمة وجود في اللغة الألمانية. إن صورة حبيبتي الصغيرة أخذتني في لحظة بعيدًا عن عالم الحقائق إلى عالم الأوهام، عالم الذكريات، فرأيت في خيالي رفيقتي المخلصة في العمل وفي المتعة. كانت تساعدني يوميًّا في ترتيب أحجار عمي الثمينة، وكانت تضع عليها طابع الاسم معي، فقد كانت جيولوجية ماهرة جدًّا هذه الآنسة جروبن. وقد درست أعمال أكثر من عالم، فقد كانت تحب أن تتعمق في دراسة المسائل العلمية الصعبة. كم من الساعات الهنية أمضيناها في الدراسة معًا، وكم من مرة اشتهيت مصير هذه الأحجار عديمة الإحساس التي كانت تفحصها بأناملها الرقيقة!

ثم في وقت الراحة، كنا نخرج معًا، نتمشى عبر الأزقة المزدحمة في آلستر، حتى نصل إلى المطحنة القديمة التي تطل على البحيرة. وفي الطريق، نتحدث معًا ويدي تحتضن يدها، أقص عليها حكايات تجعلها تضحك، وهكذا نسير وصولًا إلى حافة البحيرة. وبعد أن نلقي تحية المساء على البجعات السابحات وسط زنابق الماء البيضاء الكبيرة، نعود أدراجنا إلى الرصيف في المركب البخاري.

وعند هذه النقطة في أحلامي، ضرب عمي المائدة بقبضة يده وأعادني إلى الواقع بعنف.

- لنرَ، أول تفكير يطرأ على ذهن من يريد أن يبعثر ترتيب حروف جملة ما، على ما أظن، هو أن يقوم بكتابة الكلمات عموديًّا بدلًا من كتابتها أفقيًّا.

- حقًّا!

- دعنا نرى ماذا ينتج عن ذلك. آكسل، ألقِ بأي جملة على هذا الورقة ولكن بدلًا من وضع الحروف الواحد بعد الآخر، رتبهم الواحد بعد الآخر ولكن رأسيًّا، واجمع كل خمسة أو ستة أحرف معًا.

وفهمت ما يقصده، وعلى الفور كتبت ما يلي من أعلى إلى أسفل:

JmneGe

ee,trn

!t'bmia

aiatü

iepeb

- حسن.

قال عمي هذا من دون أن يقرأ.

- الآن رتب هذه الكلمات في سطر أفقي.

وفعلت كما قال وحصلت على هذه الجملة:

JmneGe ee,trn t’bmia ! aiatü iepeb

وانتزع عمي الورقة من يدي قائلًا:

- رائع، هذا يشبه الآن شكل هذه المخطوطة القديمة: الحروف المتحركة في مجموعة والحروف الساكنة في مجموعة أخرى بنفس الطريقة غير المنتظمة، بل إن هناك أحرفًا كبيرة في وسط الكلمات، وفواصل أيضًا، تمامًا كما في مخطوطة ساكنوسسيمم.

وكان لزامًا عليَّ أن أقر أن ملاحظته في محلها تمامًا.

واستطرد عمي موجهًا كلامه إليَّ مباشرة:

- حتى أقرأ الجملة التي كتبتها أنت لتوِّك والتي لا أعرفها، يجب عليَّ فقط أن آخذ الحرف الأول من كل كلمة ثم الثاني ثم الثالث وهكذا.

ولدهشته الكبيرة ودهشتي أنا الأكبر، قرأ عمي الجملة الآتية: «أحبكِ جدًّا يا صغيرتي جروبن».

- هكذا!

عقَّب عمي على ما قرأه.

نعم، من دون أن أدري ولأني عاشق أخرق، كتبت هذه الجملة الجريئة.

- أنت تحب جروبن إذَنْ!

قالها عمي بنبرة المعلم الحقيقي.

- نعم... لا...

أجبته متلعثمًا.

- أنت تحب جروبن.

ردد هو من دون أن يسمعني.

- حسن، فلنطبق نظريتي على الكتاب الذي نحن بصدده.

ونسي عمي تصريحي المتهور في غمرة انشغاله العميق بما يفعل. وصفتُ جملتي بأنها متهورة، لأن عقل العالم لا يمكنه أن يفهم أمور القلب. ولكن، لحسن الحظ استغرقته معضلة الكتاب تمامًا.

ولمعت عينا البروفيسور وأطلقتا سهامًا مضيئة من خلف زجاج نظارته الطبية في اللحظة التي بدأ فيها تجربته الكبيرة. وارتعشت أصابعه وهو يمسك بالمخطوطة القديمة مرة أخرى وبدا عليه التأثر الواضح. ثم سعل بشدة وبصوت عميق بدأ يردد على التوالي الحرف الأول ثم الحرف الثاني من كل كلمة وأملى عليَّ المتتالية الآتية:

messunkaSenrA.icefdoK.segnittamurtn

ecertserrette,rotaivsadua,ednecsedsadne

lacartniiiluJsiratracSarbmutabiledmek

meretarcsilucoYsleffenSnl

ولما انتهى، يجب أن أعترف أني كنت متأثرًا للغاية. هذه الحروف، التي أُمليت عليَّ واحدة بعد الأخرى، لم يكن لها أي معنى في ذهني، وانتظرت إلى أن انسابت الكلمات من فم البروفيسور بجلالٍ مُشكِّلة جملة في لغة لاتينية مبهرة.

ولكن من كان يتوقع ذلك! ثم فجأة هزت الطاولة خبطة عنيفة بقبضة اليد واندفع الحبر وسقطت ريشة الكتابة من يدي.

وصاح عمي قائلًا:

- ليس هذا هو المقصود، هذا الكلام ليس له معنى معروف.

واندفع خارج حجرة المكتب مثل الطلقة، ونزل السلم مسرعًا كشلال هادر واختفى سريعًا في ميدان كونينج شتراسه.

وجاءت مارتا مسرعة على صوت باب المنزل وهو يغلق بعنف ارتج معه المنزل كله، وصاحت متسائلة:

- هل غادر البروفيسور؟

وأجبتها:

- نعم، غادر تمامًا.

وتساءلت الخادمة العجوز:

- وماذا عن طعام العشاء؟

- لن يتناوله.

- وماذا عن وجبة ما بعد العشاء؟

- لن يتناولها هي الأخرى!

- وكيف ذلك؟

قالت مارتا وهي تضم قبضتَي يديها في اندهاش.

- نعم يا مارتا العزيزة، البروفيسور لن يتناول أي طعام وكذلك كل من في هذا المنزل. عمي البروفيسور ليدنبروك أصدر أمرًا لنا جميعًا بالصيام إلى أن تحين اللحظة التي يتمكن فيها من فك شفرة لغوية قديمة لا يمكن فك شفرتها على الإطلاق.

- يا أله! لن يبقى لنا إذَنْ سوى أن نموت جوعًا.

ولم أجرؤ أن أقول لها إنه مع رجل شديد البأس مثل عمي، فإن هذا المصير يبدو أمرًا محتومًا لا يمكن تفاديه.

وعادت الخادمة العجوز إلى مطبخها وهي تئن بعد أن تملكها القلق الشديد.

وما إن أصبحت وحدي، خطر لي أن أذهب لأحكي لجروبن كل ما حدث. ولكن كيف أترك المنزل؟ البروفيسور يمكن أن يعود في أي لحظة. وماذا لو أنه ناداني؟ وماذا لو أنه أراد أن يعيد هذا العمل اللوغاريثمي الذي كان حريًّا بأن يُطرح على أوديب العجوز! وماذا لو لم أُجبه؟ ماذا يحدث له إذَنْ؟ الأسلم أن أبقى في المنزل. بالضبط، فإن جيولوجيا من مدينة بيزونسون كان قد بعث إلينا بمجموعة من الجيود السيليسية ينبغي تصنيفها. وبدأت العمل، أختار وأصنف ثم أرتب على الرفوف المخصصة كل هذه الصخور المجوفة التي تتحرك في داخلها بلورات صغيرة.

ولكن العمل الذي قمت به لم يكن يستغرقني تمامًا، ولم تبرح ذهني مسألة المخطوطة القديمة وظلت تشغل بالي بصورة غريبة. كان رأسي يغلي! وانتابتني موجة قلق شديدة. كان عندي إحساس داخلي بقرب وقوع كارثة ما.

وبعد مرور ساعة كانت الجيود السيليسية مصطفة ومنظمة في أماكنها تمامًا. واستلقيت على المقعد الكبير وذراعيَّ متدليتان على جوانبه ورأسي ملقى إلى الخلف. أشعلت غليوني ذا الأنبوب الملتوي الطويل والطرف المنحوت على صورة حورية مضطجعة في دلال، وانشغلت في متابعة التبغ وهو يحترق مطلقًا دخانًا أسود يتشكل شيئًا فشيئًا على طرف الحورية، في هيئة شبه مكتملة لامرأة زنجية. وبين الحين والآخر أتسمع مستطلعًا وقع خطوات على سلم المنزل، ولكن بلا فائدة. أين يمكن أن يكون عمي في هذا الوقت؟ كنت أتخيله وهو يعدو في ظل الأشجار الجميلة في شارع آلتونا، يحرك الأغصان ويضرب الحائط بعصاه محاربًا الأعشاب بذراعه، يقطع رؤوس الأشواك ويقلق راحة طيور اللقلق في وحدتها.

هل يعودا منتصرًا أم يائسًا؟ من ستكون له الغلبة، هو أم السر الغامض؟ توالت هذه الأسئلة في نفسي ومن دون أن أشعر أمسكت بالورقة التي رسمت عليها متتاليات الحروف المبهمة التي خطتها يدي منذ قليل. وسألت نفسي مرات ومرات: «علام تدل هذه المتتاليات؟».

وبدأت أجرب أن أجمع هذه الحروف بطريقة تؤدي إلى كلمات. مستحيل! فلأجمعها اثنتين، أو ثلاثة، أو خمسة، أو ستة، لم ينتج عن هذه المحاولات أي شيء له معنى. كان هناك دائمًا الحرف الرابع

عشر والخامس عشر والسادس عشر يُشكلون معًا الكلمة الإنجليزية «ice»، التي تعني «ثلج»، والحرف الرابع والعشرون والخامس والعشرون والسادس والعشرون يُشكلون معًا كلمة «sir»، وأخيرًا، وفي قلب المخطوطة، في السطر الثاني والسطر الثالث، لاحظت أيضًا الكلمات اللاتينية:

«rota, mutable, ira, nec, atra!».

«اللعنة! هذه الكلمات الأخيرة يبدو وأنها تؤكد نظرية عمي عن اللغة التي كتب بها هذا العمل. وأيضًا السطر الرابع، لاحظت فيه كلمة «luco» والتي ترجمتها «الخشب المقدس». وأيضًا السطر الثالث، نقرأ فيه كلمة «tabiled» وهي كلمة تبدو لغويًّا عبرانية تمامًا، وفي آخر سطر نقرأ كلمات «mere»، «arc»، «mère»، وهي كلمات فرنسية تمامًا.

كان هذا أمرًا يُفقد المرء صوابه. أربعة تعبيرات مختلفة في هذه الجملة السخيفة! أي رابط يمكن أن يوجد بين هذه الكلمات: «ثلج، سيدي، غضب، قاسٍ، خشب مقدس، متغير، أم، قوس أو بحر؟»، أول كلمة وآخر كلمة فقط يمكن أن يربطهما المعنى بسهولة. ثم إنه من الطبيعي أن مخطوطة كتبت في أيسلندا، نجد فيها ذكرًا لـ«بحر من الثلج أو الجليد». ولكن لو حاولنا، بناءً على ما سبق، أن نفهم بقية هذا الكريبتوجرام، يكون الأمر مختلفًا.

إذا جلست أكافح للوصول إلى حل أمر صعب يستعصي على الحل، وبدأ عقلي يغلي من فرط التركيز، وتسمرت عيناي على الورقة الملعونة، ورأيت كما لو أن المائة واثنين وثلاثين حرفًا تتطاير حولي، مثل قطرات الدمع الفضية التي تنزلق على الهواء حول الرأس عندما تفور الأفكار بداخلها، سقطت في دائرة الهلوسة وشعرت بأني أختنق. كنت في حاجة إلى الهواء وتلقائيًّا استخدمت الورقة التي أمامي كمروحة، وتبدى أمام ناظري باطنها وظاهرها في تتابع غريب.

ولدهشتي الكبيرة، وبينما تتوالى أمامي مشاهد الكلمات على باطن الورقة وظاهرها في حركتها السريعة، بدا لي وكأني أرى على الورقة كلمات مقروءة تمامًا، كلمات لاتينية، من بينها كلمتَي «terrestre» و«craterem».

وفجأة لمع في ذهني وميض: وحدها هذه المؤشرات جعلتني أتبين الحقيقة: لقد اكتشفت مفتاح الشفرة. حتى نقرأ هذا الكتاب، لم يكن من الضروري أن نقرأه من خلال الورقة المقلوبة، بل تمامًا كما كان، تمامًا كما أُملي عليَّ، هكذا يمكن تهجئته بسلاسة. كل تركيبات البروفيسور العبقرية تتحقق. كان على حق تمامًا بالنسبة لترتيب الحروف وبالنسبة للغة المخطوطة. لم يكن ينقصه «شيء» ليتمكن من قراءة هذه الجملة اللاتينية من الطرف إلى الطرف الآخر، وهذا الـ«شيء» أرسله لي القدر الآن فقط.

كنت متأثرًا للغاية، غامت عيناي وعجزت عن الرؤية. بسطت الورقة أمامي على الطاولة وكنت فقط بحاجة إلى أن ألقي عليها نظرة واحدة لأصبح مالك هذا السر.

واستعدت هدوئي أخيرًا. وأجبرت نفسي على تطبيق نظرية السير حول الغرفة مرتين لتهدئة أعصابي، وعدت لأستلقي منهكًا على الكرسي الكبير.

وبعد شهيق عميق أدخل إلى صدري قدرًا كبيرًا من الهواء، قلت لنفسي: «فلنقرأ». وانحنيت على الطاولة، ووضعت إصبعي بالتوالي على كل حرف، ومن دون أن أتوقف ومن دون أن أتردد للحظة،

نطقت الجملة بأكملها بصوت مسموع.

أي انبهار وأي رعب انتابني! وظللت لبرهة وكأن مسًّا مفاجئًا أصابني. ماذا؟! هذا الذي عرفته للتوِّ اكتمل تمامًا، شخص ما امتلك الجرأة الكافية كي ينفذ إلى هناك.

وصحت قائلًا لنفسي وأنا أقفز من فرط انفعالي: «ولكن كلا، كلا، لن يعلم عمي عن هذا شيئًا، لم يكن ينقصه سوى أن يعلم أمر رحلة مثل تلك، لو علم لأراد أن يقوم بها هو الآخر أيضًا، لن يوقفه شيء هذا الجيولوجي العتيد. سيرحل على أي حال وبالرغم من كل شيء، وسيصحبني معه ولن نعود أبدًا، أبدًا». كنت في حالة إثارة شديدة لا يمكن وصفها.

«كلا، كلا، لن يحدث هذا»، طفقت أردد هذا لنفسي بكل قوة. وبما أنني أستطيع أن أقف في طريق فكرة مثل هذه قبل أن تطرأ على ذهن هذا الدكتاتور، فسوف أفعل. لو استمر في تقليب صفحات هذا الكتاب، يمكن أن يكتشف المفتاح ولو بالصدفة. فلندمره إذَنْ».

كانت النار في المدفأة لم تنطفأ تمامًا بعد. وأمسكت ليس فقط بالورقة التي كتبتها أنا، ولكن أيضًا بمخطوطة ساكنوسسيمم هي الأخرى، وبيد مرتعشة أوشكت على أن ألقي بها إلى النار لأدمر هذا السر الخطير - عندما انفتح باب حجرة المكتب ودخل عمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

لم يسعفني الوقت إلا لأعيد إلى الطاولة هذه المخطوطة التعيسة.

وبدا البروفيسور ليدنبروك مستغرقًا في تفكير عميق. عقله المسيطر لم يترك له ولو لحظة واحدة من الراحة. من المؤكد أنه في أثناء جولته قد قام بتمحيص وتحليل الأمر وسخَّر كل المصادر التي تذخر بها مخيلته، وعاد الآن ليطبِّق بعض التوليفات الجديدة.

بالفعل جلس على مقعده وأمسك بريشة الكتابة وبدأ في كتابة صيغ تشبه مركبات الحساب الجبري.

وتابعت بعيني يده المرتعشة ولم تفُتني حركة واحدة. هل يمكن أن تظهر أي نتيجة غير مرغوب فيها بطريقة غير متوقعة؟ كنت أرتجف من دون داعٍ، بما أن التركيبة الصحيحة «الوحيدة» قد أصبحت معلومة بالفعل، وبالتالي يصبح أي بحث آخر غيرَ ذي جدوى.

على مدى ثلاث ساعات طوال ظل عمي يعمل من دون أن ينطق بكلمة واحدة ومن دون أن يرفع رأسه. يمحو ويكتب ثم يشطب ويعيد ما يفعل ألف مرة. كنت أعلم جيدًا أنه لو تمكن من ترتيب الحروف تبعًا لكل المواضع التي يمكن أن توضع بها، فسوف تنتظم الجملة. ولكني كنت أعلم أيضًا أن عشرين حرفًا فقط يمكن أن تشكل خُماسيتين، وأربعمائة واثنين وثلاثين رباعية، وتسعمائة ثلاثية، وثمانية بلايين وسبعمائة وستة وسبعين مليون وستمائة وأربعين ألف تركيبة. حيث إن الجملة تحتوي على مائة واثنين وثلاثين حرفًا، والحروف المائة واثنان وثلاثون تشكل عددًا من الجمل المختلفة، المكونة من مائة وثلاثة وثلاثين رقمًا على الأقل، وهو رقم يكاد يكون من المستحيل عده ويستعصي على أي محاولة تقدير.

وأراحتني هذه الطريقة البطولية في حل المعضلة.

ومع ذلك ظل الوقت يجري والليل أتى وهدأ الضجيج في الشارع وما زال عمي منكبًّا على عمله، لا يرى شيئًا ولا حتى مارتا الخادمة التي فتحت الباب قليلًا، ولا يسمع شيئًا حتى صوتها الوقور وهي تقول له:

- ألن يتناول سيدي العشاء هذه الليلة؟

واضطرت مارتا للذهاب من دون أن تسمع الإجابة. أما أنا وبعد أن قاومت لبعض الوقت، سقطت فريسة للنوم واستلقيت على طرف الأريكة، بينما عمي البروفيسور ليدنبروك مستمر في عملية الحساب والشطب التي يقوم بها.

وعندما استيقظت في اليوم التالي، كان الباحث الذي لا يكل ما زال يعمل. كان أحمر العينين شاحب الوجه وشعر رأسه مبعثرًا تحت يده المحمومة التي لا تكف عن العبث به. كانت وجنتاه المحمرتان دليلًا على حربه الرهيبة ضد المستحيل، وعلى أثر الساعات الطويلة التي توالت على ذهنه المرهق وعقله الذي تتصارع فيه الأفكار.

وانتابني إحساس بالشفقة تجاهه، وبالرغم من اللوم الذي كنت أظن نفسي محقًا في توجيهه إليه، تغلبت العاطفة في النهاية. كان الرجل المسكين واقعًا تحت سيطرة الفكرة تمامًا، لدرجة أنه نسي أن يثور ويغضب كالمعتاد. وكانت كل قواه الحيوية مركزة في نقطة واحدة، وبما أن هذه القوى لم تكن لتنطلق عبر مسارها المعتاد، كان على المرء أن يخشى أن يُولِّد الضغط انفجارًا في أي لحظة.

كان باستطاعتي أن أفك نير هذا القيد الحديدي الذي يعتصر رأسه بكلمة واحدة. ولكني لم أفعل.

ومع ذلك أنا شخص طيب القلب. ولكن لماذا بقيت صامتًا في ظرف مثل هذا؟ فعلت هذا لمصلحة عمي شخصيًّا.

ظللت أردد في نفسي: «كلا، كلا، لن أتكلم. لو فعلت لأراد أن يرحل. أنا أعرفه. لن يوقفه شيء. هو عبارة عن خيال بركاني وسيضع حياته في خطر حتى يفعل ما لم يفعله جيولوجي آخر من قبل. سأبقى صامتًا وسأحتفظ بهذا السر الذي جعلني القدر مالكه الوحيد. الكشف عن السر معناه أن أقتل البروفيسور. فليكتشفه هو لو استطاع. أنا لا أريد أن ألوم نفسي يومًا ما لأنني قدته إلى ما فيه هلاكه».

عندما توصلت إلى هذا القرار، عقدت ذراعي وانتظرت. ولكني لم أحسب حساب أمر حدث بعد ساعات قليلة، عندما أرادت الخادمة مارتا أن تغادر المنزل للذهاب إلى السوق، ووجدت الباب موصدًا، ولم يكن المفتاح الكبير موجودًا في القفل. من نزعه؟ عمي بكل تأكيد هو من فعل ذلك بعد أن عاد ليلة أمس من رحلته المستعجلة.

هل فعل ذلك عن عمد أم من دون أن يقصد؟ هل أراد أن يضعنا تحت ضغط الجوع؟ بدا لي هذا أمرًا مستبعدًا إلى حدٍّ ما. والآن ماذا؟ مارتا وأنا هل نصبح ضحايا وضع لا دخل لنا فيه بأي حال من الأحوال؟ لا شك في ذلك. وتذكرت موقفًا مماثلًا كان حريًّا بأن يثير الرعب في قلوبنا، إذ إنه منذ سنوات قليلة، ففي الفترة التي كان عمي يعمل فيها على وضع تصنيفه الكبير للمعادن، ظل ثماني وأربعين ساعة من دون طعام، واضطر جميع من في المنزل إلى أن يلتزم بتلك الحمية العلمية. وأنا عن نفسي عانيت حينها من تقلصات في المعدة لم تكن تناسب بأي حال صبيًّا ذا شهية مفتوحة للطعام مثلي.

أيقنت في هذه اللحظة أن الإفطار سوف يلاقي نفس مصير عشاء اليوم السابق.

ومع ذلك كنت مصممًا أن ألتزم بدور البطل ولا ألين أمام ضغط الجوع. أما مارتا الطيبة فكانت تنظر إلى هذا الموقف بكل جدية وبدا عليها التأثر الشديد. أما أنا فقد كان ما يشغلني أكثر وأكثر هو استحالة أن أغادر المنزل، والدافع معروف بالطبع.

لم يتوقف عمي عما يفعل وأخذه الخيال إلى العالم المثالي للتركيبات اللغوية. كان بعيدًا عن الأرض، وواقعيًّا كان يحيا خارج إطار الاحتياجات الدنيوية.

وعند الظهيرة داهمتني آلام الجوع بعنف. كانت مارتا بكل براءة ومن دون أن تعلم ما يخبئه لنا الغيب، قد أتت ليلة أمس على كل الطعام الموجود في حجرة المؤن، ولم يبقَ شيء في المنزل. وبالرغم من ذلك بقيت صامدًا. كانت هذه هي البطولة الحقة في نظري. ثم دقت الساعة الثانية بعد الظهر، وأصبح الأمر سخيفًا للغاية، بل أصبح لا يُحتمل. وفتحت عيني محدقًا وبدأت أقول لنفسي

إنني أبالغ في أهمية الكتاب وإن عمي لن يتحمس له كثيرًا، وإنه سيعتبره مجرد خدعة بسيطة. وفي أسوأ الأحوال، سوف نبقيه هنا رغمًا عنه لو حاول الاندفاع إلى مغامرة مجهولة. قلت لنفسي إنه في النهاية يمكن أن يكتشف عمي سر «الشفرة» بنفسه ولن أجد حينها من يكافئني على احتمال آلام الامتناع عن الطعام.

كل هذه المبررات التي رفضتها بالأمس بقوة، بدت لي الآن رائعة، ورأيت أني كنت مخطئًا في الانتظار كل هذا الوقت، واتخذت قراري بالإفصاح عن كل شيء. كنت قد بدأت أبحث عن مدخل لا يكون صادمًا لما أريد قوله، عندما رأيت البروفيسور ينهض ويضع قبعته ويستعد للخروج.

ماذا؟ هل يترك المنزل ويتركنا محبوسين مرة أخرى؟ لن يحدث هذا أبدًا.

وناديته قائلًا:

- عمي.

ولم يبدُ أنه سمعني، فرفعت صوتي مناديًا من جديد:

- عمي ليدنبروك.

وأجاب كمثل من استيقظ من نومه فجأة:

- هه؟

- حسن، هذا المفتاح.

- أي مفتاح؟ مفتاح الباب؟

- وصحت قائلًا:

- كلا، مفتاح هذا الكتاب.

ونظر إليَّ البروفيسور من فوق زجاج نظارته ولاحظ من دون شك أمرًا غير معتاد في هيئتي، إذ إنه أمسك بذراعي بعنف ومن دون أن يقوى على الكلام رأيت السؤال في عينيه. لم يكن هناك سؤال قد صيغ من قبل بأوضح مما أفصحت عنه نظرته في هذه اللحظة. وبدأت أحرك رأسي من أعلى إلى أسفل. أما هو فهز رأسه بنوع من الشفقة، كما لو كان بصدد شخص فقد عقله. حركت رأسي من جديد تأكيدًا لما قلته، فلمعت عيناه بالبريق وارتفعت يده مهددة. هذا الحوار الصامت في مثل هذه الظروف كان حريًّا بإثارة انتباه أكثر المشاهدين لا مبالاة. والحقيقة أنني بدأت أخشى الكلام، لأنني خشيت أن يخنقني عمي من فرط سعادته عندما يسمع ما كنت على وشك أن أقوله له. ولكن إلحاحه زاد إلى الحد الذي كان يجب عليَّ عنده أن أعطيه الإجابة في التوِّ واللحظة.

- نعم، هذا المفتاح، إنها الصدفة التي...

- ماذا تقول؟

أجابني وهو يصيح بانفعال لا يوصف.

- تفضل.

أجبته وأنا أقدم له الورقة التي كتبت عليها، تفضل واقرأ.

- ولكن هذا لا يعني شيئًا.

أجابني وهو يطبق يديه على الورقة.

- لا شيء.

وبدأت أقرأ الجملة من بدايتها، ولكن عند النهاية...

ولم أكد أكمل الجملة حتى أطلق البروفيسور صيحة - لم تكن صيحة بل كانت زئيرًا حقيقيًّا، وكأن ستارًا انزاح عن عقله فجأة، وكأن وحيًا أوحي إليه وتحولًا كاملًا قد حدث له.

- آه! ساكنوسسيمم العبقري.

صاح البروفيسور قائلًا.

- أنت كنت قد بدأت بكتابة جملتك معكوسة إذَنْ.

وأسرع إلى الورقة يفردها بعين مضطربة وصوت منفعل، وقرأ النص كله كاملًا وهو يضع الحرف الأخير بعد الحرف الأول.

وكان النص يُقرأ هكذا:

In Sneffels Yoculis craterem kem delibat

umbra Scartaris Julii intra calendas descende,

audas viator, et terrestre centrum attinges. Kod

feci. Arne Saknussem.

والذي لو ترجم من اللاتينية الضعيفة، يُقرأ هكذا:

اهبط إلى داخل تجويف بركان «يوكول» (2) في سنيفيليس،

(2) بركان يوكول: هو بركان في أيسلندا، يعلو قمته تشكيل يشبه القبعة.

والذي تأتي ظلال جبل سكارتاريس لتداعبه قبل تقاويم يوليو،

أنت أيها المسافر الشجاع، وسوف تصل إلى باطن الأرض.

هذا هو ما فعلته أنا. آرنه ساكنوسسيمم.

وعند هذه النقطة، قفز عمي كما لو كان قد لمس فجأة زجاجة ليبد(3) من دون أن يدري. كان مبهرًا في جرأته وفرحته الغامرة وإيمانه العميق، يذرع الحجرة جيئة وذهابًا، يمسك رأسه بكلتا يديه ويزيح الكراسي عن أماكنها ويكدس كتبه بعضها فوق بعض، ولدهشتي الكبيرة رأيته يتلاعب بجيوده الثمينة ويشير بقبضة يده إلى هنا وهناك، ثم يضرب المنضدة بقبضته فجأة، وأخيرًا هدأت أعصابه وسقط في مقعده منهكًا على كرسيه، وتساءل بعد لحظات صمت قصيرة قائلًا:

(3) زجاجة ليبد: مكثف بدائي، اكتشف في عام 1745 وطبق استخدامه للمرة الأولى أمام الملك لويس الخامس عشر الذي انبهر بقدرة هذه الزجاجة على توليد شحنة كهربائية كبيرة.

- في أي ساعة نحن الآن؟

- الثالثة.

- أهكذا؟ مر وقت العشاء إذَنْ؟ أنا أتضور جوعًا. إلى المائدة. ثم بعد ذلك...

- بعد ذلك؟

- سوف تحضر حقيبتي.

- هه؟!

- وحقيبتك أنت أيضًا.

هكذا أجابني البروفيسور الذي لا يعرف الرحمة وهو يدلف إلى حجرة الطعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

عندما نطق البروفيسور جملته الأخيرة، سرت رعشة في جسدي ومع ذلك تماسكت وقررت ألا يبدو عليَّ أي انفعال. وحدها فقط الدفوع العلمية هي التي يمكن أن توقف البروفيسور ليدنبروك. وهذه الدفوع كانت موجودة وحقيقية، تدحض إمكانية القيام برحلة مثل تلك التي يزمع القيام بها. الذهاب إلى باطن الأرض! أي جنون هذا! ولكني احتفظت برأيي هذا للوقت المناسب وانشغلت بالطعام.

وغني عن الذكر ثورة عمي وصراخه أمام مائدة الطعام الفارغة. وضح كل شيء واستعادت الخادمة مارتا حريتها وذهبت إلى السوق مسرعة وعادت لتعد طعامًا رائعًا أذهب عني ألم الجوع، ولكن بعد ساعة عاودني إحساس اللحظة الفارقة.

في أثناء تناول الطعام بدا عمي وكأنه فرح وأطلق بعضًا من دعابات العلماء تلك التي لا خطر منها. وبعد أن تناولنا الحلوى، أشار إليَّ أن أتبعه إلى حجرة المكتب وأطعته. جلس هو على طرف المنضدة وأنا على الطرف المقابل. وبصوت هادئ خاطبني قائلًا:

- آكسل، أنت شاب نابه جدًّا، وقد أسديت لي صنيعًا لك أن تفخر به، فقد كنت أوشك على ترك هذه التركيبة اللغوية أو كانت ستدفعني إلى الجنون ربما؟ لا أحد يعلم. لن أنسى لك هذا أبدًا يا ابني، والمجد الذي سنحصل عليه سينالك نصيب منه أنت أيضًا.

قلت لنفسي: «حسن، إن مزاجه رائق الآن والوقت سانح لمناقشة هذا المجد الذي يشير إليه».

ولكنه استأنف قائلًا:

- قبل كل شيء، دعني أطلب منك أن تُبقي هذا السر طي الكتمان، أتسمعني؟ أنا لا أفتقر إلى المنافسين، وعديدون من سيريدون القيام بهذه الرحلة التي لن يعلموا بها قبل أن نعود منها.

وأجبته:

- هل تتوقع يا سيدي أن كثيرين يملكون الجرأة والشجاعة اللازمة؟

- بالطبع، من يتردد في انتزاع مثل هذه الشهرة؟! لو عُرف أمر هذا المستند ستجد جيشًا كاملًا من الجيولوجيين يتسارعون للسير على خطى ساكنوسسيمم.

- لست مقتنعًا بهذا الرأي يا عمي، لأنه لا شيء يثبت أن هذا المستند هو وثيقة أصلية.

- وكيف ذلك؟ والكتاب الذي اكتشفناه بداخله!

- حسن، أنا أتفق معك أن ساكنوسسيمم كتب هذه السطور، ولكن هل معنى ذلك أنه قام بهذه الرحلة فعلًا؟ وهذه المخطوطة القديمة، ألا يمكن أن يكون محتواها أكثر غموضًا مما يبدو؟

وعند هذه الكلمة الأخيرة، الجريئة نوعًا ما إلى الدرجة التي جعلتني أندم أني نطقت بها، عقد البروفيسور حاجبيه الكثيفين وخفت أن أكون بما قلت قد خاطرت بتبعات هذه المناقشة.

ولحسن الحظ لم يحدث شيء بل إن محدثي الجاد رسم ابتسامة على وجهه وأجابني قائلًا:

- هذا ما سوف نراه.

وأجبته وأنا أشعر أنه أحرجني بعض الشيء:

- ولكن اسمح لي أن أقدم لك سلسلة دفوعي المتعلقة بهذا المستند.

- تكلم يا بني، لا تتحرج، إني أترك لك كامل الحرية لتعبر عن رأيك. أنت لم تعد ابن أخي، أنت زميلي، هيا!

- حسن، سوف أبدأ بسؤالك عما هو هذا الـ«يوكول»، وهذا الـ«سنيفيليس»، وهذا الـ«سكارتاريس»؟ الذين لم أسمع عنهم من قبل.

- ليس أسهل من هذا. فقد تلقيت تحديدًا من صديقي أوجستوس بيترمان الذي يعيش في ليبزج، ومنذ فترة قصيرة، خريطةً وكأنها جاءت لمثل هذه اللحظة. ستجدها في الرف الثالث في الجزء الثاني من المكتبة الكبيرة، في مجموعة حرف الـZ في الملف الرابع.

واتجهت إلى المكتبة وساعدتني إرشاداته الدقيقة على العثور سريعًا على الأطلس المطلوب. الذي فتحه عمي ثم قال:

- أمامك الآن أفضل خريطة لأيسلندا، خريطة هندرسون، وأتوقع أننا سنجد فيها حلًّا لكل الصعوبات التي قد تواجهنا.

وتمعنت في الخريطة حيث أشار عمي قائلًا:

- انظر إلى هذه الجزيرة المكونة من براكين. ألا تلاحظ أنها جميعًا تحمل اسم «يوكول»؟ هذه الكلمة تعني «كتلة جليدية» باللغة الأيسلندية، وتحت خط العرض المرتفع الذي تقع عليه أيسلندا، تثور معظم حمم البراكين عبر طبقات من الجليد. ومن هنا تأتي تسمية «يوكول» التي أطلقت على كل الجبال النارية في هذه الجزيرة.

- حسن، ولكن ما هو الـ«سنيفيليس»؟

كنت أرجو ألا يجد إجابة لهذا السؤال. ولكني كنت مخطئًا، فقد أجابني عمي قائلًا: «اتبعني هنا حيث أشير إلى الجانب الغربي من أيسلندا، أترى ريكيافيك العاصمة؟ نعم. حسن، اصعد إلى حيث الفيوردات الكثيرة وشواطئها التي تأكلها مياه البحر، وتوقف إلى أسفل قليلًا من خط العرض الخامس والستين، ماذا ترى هناك؟

- شبه جزيرة تشبه عظمة متآكلة وفي نهايتها ما يشبه كرة ضخمة.

- تشبيه سليم يا بني، ألا ترى شيئًا فوق هذه الكرة الضخمة؟

- بلى، جبل صغير يبدو وكأنه يظهر من تحت الماء.

- حسن، هذا هو الـ«سنيفيليس».

- الـ«سنيفيليس»؟

- هو نفسه وهو جبل ارتفاعه خمسة آلاف قدم، وهو أحد أهم الجبال في هذه الجزيرة، وبدقة أكثر هو الأشهر في العالم كله لو قادتنا قمته إلى باطن الكوكب.

- ولكن هذا مستحيل!

صحت قائلًا وأنا أرفع كتفي معترضًا على هذه النظرية.

أجابني البروفيسور بلهجة حادة:

- مستحيل؟! لماذا إذَنْ؟

- لأن هذه القمة من الواضح أنها مسدودة بالحمم البركانية والأحجار المحترقة وبالتالي...

- وماذا لو كانت قمة البركان هذه خامدة؟

- خامدة؟

- نعم. إن عدد البراكين النشطة على سطح الكوكب لا يتعدى الثلاثمائة تقريبًا، والعدد الأكبر هو عبارة عن براكين خامدة. والـ«سنيفيليس» يعد أحد هذه البراكين الخامدة، ومنذ زمن بعيد أيضًا. لم يَثُر سوى مرة واحدة عام 1219. ومنذ ذلك الحين خفتت الإشاعات التي تتردد عنه شيئًا فشيئًا، ولم يعد يعتبر ضمن البراكين النشطة.

لم يعد لديَّ ما أقوله على الإطلاق أمام هذه التأكيدات الإيجابية، فلجأت إذَنْ إلى الأمور الغامضة الأخرى التي احتوتها المخطوطة وسألته:

- وما الذي تعنيه كلمة «سكارتاريس»، وما الذي تفعله هنا تقويمات يوليو؟

فكر عمي في الأمر بضع ثوانٍ منحتني لحظة أمل ولكنها لحظة واحدة إذ إنه سرعان ما أجابني في كلمات واضحة:

- الذي تقول عنه أنت أمر غامض هو بالنسبة لي أمر مضيء. إنه يثبت العناية البارعة التي أولاها ساكنوسسيمم لتحديد اكتشافه بكل دقة. الـ«سنيفيليس» مكون من قمم عديدة، وبالتالي هناك حاجة لتحديد أي من هذه القمم هو الذي يؤدي إلى باطن الأرض. ما الذي فعله العالم الأيسلندي؟ هو لاحظ أنه عند اقتراب تقاويم شهر يوليو، أي عند نهاية أيام شهر يونيو، تُلقي إحدى قمم الجبل، وهي قمة الـ«سكارتاريس» بظلالها باتجاه فتحة الفوهة المعذية، ونوَّه لهذا في مخطوطته. هل كان يمكنه أن يتخيل إشارة أكثر دقة، وهل في حالة وصولنا إلى قمة الـ«سنيفيليس»، يمكن أن نتردد أي طريق يجب أن نسلك؟

بلا شك كان عمي يملك إجابة لكل شيء. وأيقنت سريعًا أنه لا سبيل لمجادلته حول أي من الكلمات التي وردت في المخطوطة القديمة. وتوقفت عن المضي قدمًا في هذا الاتجاه، وبما أنه كان يجب أن

أقنعه أولًا وقبل كل شيء، انتقلت سريعًا إلى الاعتراضات العلمية والتي كانت لها خطورتها في رأيي.

- إذَنْ يجب أن أعترف أن الجملة التي خطها ساكنوسسيمم واضحة ولا تدع مجالًا للشك. وأقر أيضًا أن المستند يبدو أنه أصلي وحقيقي تمامًا. هذا العالم ذهب بالفعل إلى قاع الـ«سنيفيليس» ورأى ظلال الـ«سكارتاريس» تداعب أطراف فوهة القمة قبل تقاويم يوليو، بل إنه في زمنه سمع أيضًا الحكايات الأسطورية حول هذه الفوهة، وكيف أنها تؤدي إلى باطن الأرض، ولكن لو تصورنا أنه نجح هو نفسه في الوصول إلى هناك، أو أنه قد حاول أن يفعل، فأنا أقول لك كلا، هذا لم يحدث ومائة مرة كلا.

- والسبب في ذلك؟

أجاب عمي بنبرة تهكمية.

- ذلك لأن كل النظريات العلمية تثبت أن مهمة مثل هذه ليست ممكنة.

- كل النظريات تقول ذلك؟

أجاب البروفيسور بهدوء.

- آه منها هذه النظريات الشريرة! كم ستعوقنا هذه النظريات الغبية!

أيقنت أنه يسخر مني ولكني استمررت في حديثي بالرغم من ذلك:

- نعم، إنه أمر معروف للكافة أن درجة الحرارة تزداد بمقدار درجة مع كل سبعين قدمًا من العمق تحت سطح الأرض. إذَنْ لو طبقنا هذه النسبية الثابتة، وبما أن نصف قطر الكرة الأرضية هو ألف وخمسمائة فرسخ، تكون درجة حرارة مركز هذا الكوكب مليوني درجة. وبالتالي تكون المواد الموجودة داخل باطن الأرض عند هذا المركز في حالة غازية متوهجة، إذَنْ فإن المعادن مثل الذهب والبلاتين وكذلك أكثر الصخور صلابة لن تتحمل درجة حرارة مماثلة. هذا يعطيني الحق إذَنْ في أن أتساءل عما إذا كان من الممكن للإنسان أن يتواجد في مناخ مثل هذا!

- هي الحرارة إذَنْ التي تضايقك يا آكسل؟

- بلا شك. لو وصلنا إلى عمق عشرة فراسخ فقط، نكون قد وصلنا إلى طرف القشرة الأرضية، حيث تكون درجة الحرارة أعلى من ألف وثلاثمائة درجة.

- وأنت تخشى أن تدخل في حالة ذوبان؟

- القرار لك في هذه الحالة!

أجبته مازحًا.

- هذا قراري إذَنْ.

أجاب البروفيسور ليدنبروك بكل جدية العالم.

- الحقيقة أنه لا أنت ولا أي شخص آخر يعلم بصورة محققة ماذا يحدث في باطن الأرض، بما أننا نعلم بالكاد ما مقداره 12/1000 من نصف قطرها، وبما أن العلم يسعى إلى الكمال وأن كل نظرية تدحضها وتلغيها من دون توقف نظرية جديدة. ألم نكن نظن، قبل العالم فوربيه، أن درجة حرارة المجالات المحيطة بالكواكب تتناقص بصورة مستمرة، بينما ما نعلمه الآن أن أعلى درجات البرودة في المناطق الأثيرية لا تتعدى أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر؟ لماذا لا ينطبق ذلك على درجة الحرارة في الباطن؟ لماذا، لو وصلنا إلى عمق ما، لا تتوقف درجة الحرارة عند حدٍّ لا تتعداه بدلًا من مواصلة الارتفاع إلى درجة ذوبان المعادن الأكثر مقاومة للحرارة؟

لم تكن عندي إجابة للسؤال الذي طرحه عمي، كفرضية ونظرية تحتمل الخطأ والصواب.

- حسن، دعني أقول لك إن العلماء الحقيقيين، بواسون على سبيل المثال، أثبتوا أنه لو أن درجة حرارة تصل إلى اثنين مليون درجة، هي بالفعل درجة الحرارة في باطن الأرض، تكون الغازات المتوهجة الناتجة عن المواد المنصهرة قد اكتسبت درجة مطاطية، لا تتمكن القشرة الأرضية من مقاومتها، فتنفجر تمامًا مثل جدران غلاية تنفجر تحت ضغط البخار بداخلها.

- هذا رأي بواسون، يا عمي، هذا كل ما في الأمر.

- أتفق معك. ولكنه أيضًا رأي جيولوجيين آخرين متميزين، يتفقون على أن باطن الأرض لا يحتوي على ماء أو غازات، ولا أي من الأحجار الثقيلة التي نعرفها، إذ إنه في هذه الحالة يكون وزن الأرض أقل مرتين مما نعرفه.

- آه! الأرقام تسهل لنا أن نثبت أي شيء نريد إثباته.

- وماذا عن الحقائق يا بني؟ هل يكون الأمر كذلك أيضًا مع الحقائق المثبتة؟ أليس من الثابت أن عدد البراكين انخفض بصورة ملحوظة منذ نشأة العالم، وأنه لو كانت الحرارة في المركز عالية بالفعل ألا يمكن أن تجعلنا هذه الحقيقة نستنتج أنها تتجه إلى الانخفاض؟

- يا عمي، لو دخلت في إطار الفرضيات، لا يمكنني أن أستمر في المناقشة.

- وأنا أقول لك إن رأيي يستند إلى آراء آخرين من أكثر الناس كفاءة. هل تتذكر زيارة العالم الكيميائي الإنجليزي الشهير هامري ديفي لي عام 1825؟

- بالطبع لا، لأني ولدت بعد هذا التاريخ بتسعة عشر عامًا.

- حسن. أتى همفري ديفي لزيارتي وهو في طريقه إلى هامبورج. وتناقشنا طويلًا ضمن مواضيع أخرى، حول نظرية سيولة باطن الأرض. واتفقنا نحن الاثنين أن هذه السيولة لا يمكن أن تكون حقيقية، بسبب سؤال لم يجد له العلم إجابة حتى الآن.

- وما هو؟

أجبته وأنا مندهش قليلًا.

- السبب هو أن هذه الكتلة السائلة تكون معرضة، كما هو الحال بالنسبة للمحيطات، إلى جاذبية القمر، وفي هذه الحالة يحدث فيها مرتين كل يوم جزر ومد داخلي يرفع قشرة الأرض، محدثًا زلازل أرضية بصورة منتظمة.

- ومع ذلك فمن الثابت أن سطح الأرض قد تعرض للاشتعال، وهذا يسمح لنا أن نتوقع أن القشرة الأرضية الخارجية قد أصبحت باردة أولًا، بينما احتمت الحرارة في الباطن، أي في مركز الأرض.

- خطأ، الأرض تدفأت بفعل اشتعال سطحها، وليس بفعل أي شيء آخر. سطح الأرض كان مكونًا من كمية كبيرة من المعادن، مثل البوتاسيوم والصوديوم، والتي من خصائصها الاشتعال بمجرد ملامستها للهواء والماء. واشتعلت هذه المعادن عندما تساقطت الأبخرة المناخية على الأرض في صورة مطر، وشيئًا فشيئًا عندما اخترقت المياه الشقوق الموجودة في القشرة الأرضية، أحدثت مرة أخرى حرائق مصحوبة بانفجارات وانبعاثات، ومن هنا كانت البراكين تحدث بكثرة في أول الأيام من عمر الأرض.

- هذه فرضية عبقرية.

صحت قائلًا رغمًا عني.

- وهي فرضية جعلها همفري ديفي أكثر منطقية، هنا في هذا المنزل. فقد صمم كرة معدنية مصنوعة أساسًا من المعادن التي ذكرتها لتوِّي، على صورة تشبه كرتنا الأرضية تمامًا، وعندما أسقطنا رذاذًا خفيفًا على سطحها، كان هذا السطح يلتهب، ويتأكسد، ويصنع جبلًا صغيرًا، تنفتح فوهة على قمته، فيحدث من خلالها الانفجار الذي يبعث إلى كامل الكرة بحرارة شديدة يستحيل معها أن تظل ممسكًا بها بيدك.

في الحقيقة بدأ الشك يداخلني بعد الدفوع التي شرحها البروفيسور، والتي كان حماسه وثقته الكبيرة يعطيانها دفعة أكبر.

- كما ترى يا آكسل، فإن حالة النواة الداخلية لباطن الأرض قد أثارت نظريات مختلفة عند الجيولوجيين، الأقل ثبوتًا فيها هو وجود حرارة في هذا الباطن. لو اتبعنا ما أقوله أنا، لا توجد حرارة هناك، وسوف نرى ذلك بأنفسنا على أي حال. وكما فعل ساكسنوسسيمم، سنجد إجابة وبالدليل المؤكد على هذا السؤال الكبير.

- بالفعل، نعم، سنفعل.

أجبته وأنا أشعر بأني أشاركه الحماس نفسه.

- نعم سنرى بأنفسنا لو كان بوسعنا أن نرى شيئًا.

- ولم لا؟ ألا يمكننا أن نعتمد على ظواهر كهربية تنير لنا الطريق، بل حتى على الغلاف الجوي من حولنا والذي يمكن للضغط الذي يشكله أن ينير باطن الأرض من حولنا ونحن نقترب من المركز؟

- نعم، هذا ممكن بالفعل.

وأجاب هو بلهجة المنتصر:

- بل هذا أكيد! ولكن تذكر: الصمت، أتسمعني؟ وكتمان كل هذا، لن نسمح لأحد بأن يكتشف ما الذي يحتويه باطن الأرض قبلنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

وهكذا انتهت الجلسة المثيرة التي لا تُنسى. أرهقني بشدة النقاش الذي دار فيها وغادرت حجرة مكتب عمي وأنا أشعر بالدوار، ولم يكن هناك في شوارع هامبورج من الهواء ما يكفي لإفاقتي. ووصلت إلى حافة نهر الألب، من ناحية السفينة البخارية التي تربط المدينة مع خط السكك الحديدية في هامبورج.

هل كنت مقتنعًا بالذي علمته لتوِّي؟ هل لم أكن واقعًا تحت تأثير وسيطرة بروفيسور ليدنبروك؟ هل كان يجب أن أنظر بجدية إلى قراره بالذهاب إلى مركز الكرة الأرضية؟ هل ما سمعته لتوِّي هو تكهنات غير معقولة لرجل مجنون أم أنها استنتاجات علمية لعبقري كبير؟ أين الحقيقة وسط كل هذا وأين يبدأ الخطأ؟ كنت أطفو فوق آلاف النظريات المتناقضة من دون أن أتمكن من التعلق بإحداها.

ومع ذلك تذكرت أنني اقتنعت بالفعل بالرغم من أن حماسي كان قد بدأ يفتر قليلًا، ولكني كنت أفضل أن نبدأ الرحلة فورًا ولا نعطي وقتًا للتفكير فيما نحن مقدمون عليه. نعم، وجدت في نفسي الشجاعة أن أبدأ في إعداد حقيبتي للسفر فورًا. ومع ذلك يجب أن أعترف أنه بعد مرور ساعة فتر كل حماسي وسقطت الإثارة التي شعرت بها، وارتخت أعصابي المشدودة وتماثلت أمام عيني الأرض وأعماقها السحيقة.

- هذا عبث، لا معنى لكل هذا، ليس هذا عرضًا يُقدَّم لصبي عاقل. لا يوجد شيء من هذا. لم يكن نومي جيدًا وما حدث هو حلم سيِّئ.

ومع ذلك أكملت جولتي على حافة النهر وصولًا إلى البلدة. وبعد أن صعدت الجسر كنت قد وصلت إلى شارع التونا. قادني إلى هناك إحساس خفي، إحساس خفي له ما يبرره، وذلك لأني لمحت لتوِّي حبيبتي جروبن وهي تسير بقدمها الصغيرة عائدة إلى هامبورج. وناديتها من بعيد:

- جروبن.

وتوقفت الفتاة الصغيرة، مضطربة إلى حدٍّ ما. أتخيل أن سبب اضطرابها هو أنها لم تتوقع أن يناديها أحد على قارعة الطريق الكبير. وفي خطوات عشر أصبحت بالقرب منها فاندهشت وقالت:

- آكسل! آه، هل أتيت لتلتقيني؟! هذا أمر جيد يا سيدي.

ولكن عندما أمعنت النظر إلى وجهي، لم يسعها أن تتجاهل القلق الذي بدا عليَّ بل لِنقُل الاضطراب الذي تملكني.

- ماذا بك إذَنْ؟

ومدت لي يدها.

- هذا هو ما بي يا جروبن...

وفي غضون ثانيتين ومن خلال ثلاث جمل فقط، كانت الفيرلاندية الجميلة على علم بالموقف كله. بقيت صامتة لحظات قليلة. هل كان قلبها يخفق مثل قلبي؟ لا أعلم ولكن يدها لم تكن ترتعش في يدي. ومشينا خطوات من دون أن نتكلم.

ثم قالت أخيرًا:

- آكسل.

- عزيزتي جروبن.

- هذه ستكون رحلة رائعة.

أدهشتني كلماتها.

- نعم يا آكسل، رحلة جديرة بابن أخ عالم كبير. إن الرجل ليتميز بعمل كبير يقوم به ويحققه.

- كيف هذا؟ جروبن، ألا تثنيني عن القيام برحلة استكشافية مثل هذه؟

- كلا يا عزيزي آكسل، وإلى هذه الرحلة معك أنت وعمك، أذهب طواعية، لو لم تكن فتاة فقيرة مثلي عبئًا عليكما.

- هل تعنين ذلك حقًّا؟

- أعنيه تمامًا.

آه من النساء، من الفتيات، قلب المرأة يستعصي دومًا على الفهم. أيتها النساء أنتن عندما لا تكن أكثر الكائنات خجلًا، تكن الأكثر شجاعة وإقدامًا. ولا يدري العقل ماذا يفعل لو أردتن شيئًا، ماذا الآن؟ هذه الطفلة تشجعني على المشاركة في رحلة الاستكشاف هذه! لم تخشَ المغامرة. بل إنها تدفعني دفعًا إليها، أنا الرجل الذي تحبه.

كنت متحيرًا، بل يجب أن أعترف أني شعرت بالخزي.

- سنرى لو كنتِ ستتكلمين بالحماس نفسه غدًا.

وسرنا في طريقنا، جروبن وأنا، يدُ كلٍّ منا في يد الآخر، ولكن صمتًا عميقًا ساد بيننا. كنت منهكًا ومنكسرًا من فرط الأحاسيس والإثارة التي شعرت بها اليوم.

وقلت لنفسي: «على أي حال، ما زالت تقاويم يوليو بعيدة، ومن الآن وحتى ذلك الحين، تحدث أمور كثيرة ربما تشفي عمي من هذا الجنون الذي انتابه وجعله يريد أن يرحل إلى باطن الأرض».

كان الليل قد أتى عندما وصلنا إلى المنزل في كونينج شتراسه، وتوقعت أن أجد المكان هادئًا وعمي نائمًا كما هي عادته، ومارتا الطيبة تنظف آخر أركان حجرة الطعام كما هي عادتها كل مساء.

ولكني لم أحسب حساب البروفيسور وصبره النافد، فقد وجدته يصيح متهيجًا وسط مجموعة من الحمالين يُنزلون بضائع ما في ردهة المنزل، بينما الخادمة العجوز لا تدري ماذا تفعل وسط كل ما

يجري.

- تعالَ إذَنْ يا آكسل، أسرع أيها التعس.

صاح عمي من بعيد عندما لمحني.

- ماذا عن الحقيبة التي لم تُعَد بعد وأوراقي التي ما زالت مبعثرة، وحقيبة السفر الخاصة بي والتي لا أجد مفتاحها وجواربي التي لم تصل بعد؟!

وبقيت مذهولًا فاقدًا القدرة على النطق. وبالكاد استطاعت شفتاي أن تنطق بما يلي:

- هل نحن راحلون فعلًا؟

- نعم أيها الصبي التعس الذي يذهب للنزهة بدلًا من أن يستعد للسفر.

وسألته مجددًا بصوت ضعيف:

- هل نرحل؟

- نعم، صباح بعد الغد، عند بزوغ النهار.

ولم أجد في نفسي القوة لسماع المزيد وهرعت إلى غرفتي الصغيرة.

لم يعد هناك شك، استغل عمي المساء كله في شراء بعض الأواني والأشياء التي يحتاجها للسفر. كانت الردهة تعج بسلالم الحبال المعقودة، ومشاعل الإنارة وقرع المياه والمرابط الحديدية والمسامير والعصي الحديدية والمعاول بكميات تحتاج إلى عشرة رجال على الأقل لحملها. قضيت ليلة مريرة وفي صباح اليوم التالي سمعت صوتًا يناديني في ساعة مبكرة، وكنت قد قررت ألا أفتح باب غرفتي. ولكن أي مقاومة تلك أمام الصوت الحنون وهو ينطق بهذه الكلمات: «عزيزي آكسل».

خرجت من غرفتي وظننت أن مظهري البائس وشحوبي وحمرة عينيَّ اللتين أنهكهما الأرق سيكون لها أثر على جروبن وستدفعها إلى تغيير أفكارها.

- آكسل يا عزيزي، أرى أنك تبدو اليوم أفضل من الأمس، ويبدو أن الليل قد أفادك وأعاد إليك هدوءك.

- هدوئي؟

أجبتها منفعلًا. واندفعت نحو المرآة. أنا فعلًا أبدو أفضل من مما كنت أتوقع. هذا شيء لا يُصدق!

وأعقبت جروبن:

- آكسل، لقد تكلمت طويلًا مع معلمي. هو بالفعل عالم جريء ورجل ذو شجاعة كبيرة. وتذكر أن دمه يجري في شرايينك أنت أيضًا. لقد أخبرني عن مشروعه وتوقعاته، ولماذا وكيف ينوي الوصول إلى هدفه. وسيصل إلى هدفه لا شك عندي في ذلك. آه يا عزيزي آكسل، إنه أمر رائع أن نتفانى في سبيل العلم إلى هذه الدرجة، أي مجد ينتظر دكتور ليدنبروك والذي سينعكس على رفيقه هو الآخر! وعندما

تعود يا آكسل، ستعود رجلًا، مساويًا له، رجلًا له الحق في الكلام بحرية، في التصرف بحرية، وأخيرًا حر في أن...

واحمر وجهها خجلًا، وتوقفت عن هذا الحد ولم تكمل جملتها. ومع ذلك لم أكن أريد تصديق أننا بالفعل في سبيلنا إلى الرحيل.

اصطحبت جروبن إلى مكتب البروفيسور.

- عمي، هل تقرر فعلًا أننا ذاهبون؟

- كيف؟ وهل تشك في ذلك؟

- كلا، قلت ذلك لأني لم أكن أرغب في معارضته. كنت فقط أتساءل عن سبب العجلة.

- إنه الوقت، الوقت الذي يفر في سرعة نعجز عن ملاحقتها.

- نحن مازلنا في 26 مارس، وحتى آخر يونيو...

- وهل تظن أيها الجاهل أننا سنصل إلى أيسلندا هكذا بكل سهولة؟ لو لم تغادر بالأمس مثل المجنون، لكنت صحبتني إلى مكتب كوبنهاجن عند ليفاندر وشركاه. وهناك كنت سترى أن من كوبنهاجن إلى ريكيافيك، ليس هناك سوى رحلة واحدة فقط، يوم 22 من كل شهر.

- ثم؟

- ثم ماذا؟! لو انتظرنا إلى يوم 22 يونيو فسوف نصل متأخرين جدًّا، ولن نتمكن من رؤية ظلال الـ«سكارتاريس» تداعب قمة الـ«سنيفيليس»، يجب إذَنْ أن نصل إلى كوبنهاجن في أسرع وقت ممكن حتى نبحث عن وسيلة مواصلات تقودنا إلى هناك. اذهب وجهز حقيبتك.

لم يكن لديَّ شيء أضيفه. وذهبت إلى غرفتي وتبعتني جروبن وهي التي جعلتني أضع في حقيبة صغيرة الأشياء اللازمة للسفر. لم تكن أكثر تأثرًا من لو أن الأمر كان متعلقًا برحلة عادية إلى لوبك أو هيليجولاند. كانت يداها الصغيرتان تتحركان هنا وهناك من دون تعجل، وكانت تتحدث بهدوء ومن دون انفعال عن أكثر الأسباب إقناعًا خلف هذه الرحلة. كانت تسحرني، وشعرت بغضب شديد يتصاعد في داخلي تجاهها. وكدت أن أندفع مرات ولكنها لم تهتم أو تلحظ واستمرت تؤدي بمنهجية مهمتها الهادئة. وأخيرًا أغلقت آخر أختام الحقيبة. ونزلت إلى القبو.

في هذا الصباح تضاعف عدد موردي الأدوات الفيزيائية والأسلحة والأدوات الكهربائية. وكادت الخادمة مارتا أن تفقد عقلها وسألتني قائلة:

- هل فقد سيدي عقله؟

وأشرت إليها بالإيجاب.

- وهل يصحبك معه؟

نفس الإشارة بالإيجاب.

- إلى أين؟

وأشرت بإصبعي إلى باطن الأرض.

- إلى الكهف؟

صاحت الخادمة العجوز في ذهول.

- لا، بل إلى أسفل من ذلك بكثير.

وأتى المساء ولم أشعر بمرور الوقت. وقال عمي:

- إلى الغد، سنغادر في السادسة تمامًا.

وفي العاشرة سقطت على سريري مثل كتلة خاملة.

عاودتني مخاوفي وأمضيت الليل كله أحلم بالسقوط في هوة. كنت فريسة للهذيان، أشعر بأن يد البروفيسور القوية تشدني، مسحوبًا، معطوبًا، متعثرًا. رأيتني أسقط في منحدرات بالسرعة المتصاعدة التي تطير بها الأجسام المنطلقة في الفضاء. ولم تعد حياتي سوى رحلة سقوط لانهاية لها.

واستيقظت في الخامسة، مرهقًا من التعب والانفعال. ونزلت إلى حجرة الطعام، وكان عمي جالسًا إلى المائدة يلتهم فطوره. نظرت إليه وشعور بالرعب يملأني. ولكن جروبن كانت هناك، فلم أقل شيئًا ولم أقوَ على تناول أي طعام. وفي الخامسة والنصف سمعت صوت سيارة في الشارع، إذ وصلت سيارة كبيرة لتأخذنا إلى محطة القطار في آلتونا. وامتلأت السيارة بكل أمتعة عمي، فسألني:

- وحقيبتك، أين هي؟

- جاهزة.

أجبته مستسلمًا.

- هيا أسرع إذَنْ، هاتها وإلا سيفوتنا القطار.

وبدا لي أن مقاومة المصير المحتوم أمر مستحيل. صعدت إلى غرفتي وعدت بحقيبتي أدحرجها على درجات السلم وذهبت في أثره.

في هذه اللحظة كان عمي يضع بين يدي جروبن بشكل رسمي للغاية، مقاليد المنزل. وكانت جميلتي الفيرلاندية محتفظة بهدوئها المعتاد. قبلت معلمها ولكنها أفلتت دمعة وهي تطبع على خدي قبلة بشفتيها الرقيقتين. وصحت: «جروبن».

- اذهب، يا عزيزي آكسل، اذهب. أنت تترك خطيبتك ولكن عندما تعود، ستجد زوجتك في انتظارك.

واحتضنت جروبن بين يدي وأخذت مكاني في السيارة. ووقفت مارتا والفتاة الجميلة على باب المنزل، تودعانا للمرة الأخيرة، ثم اندفعت الخيول التي تجر العربة منطلقة استجابة لصفير قائدها،

في الطريق إلى آلتونا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

آلتونا، ضاحية هامبورج الجميلة، هي أول محطة في خط سكة حديد كييل، والذي سوف يقودنا إلى شاطئ الـ«بيلت». وفي أقل من عشرين دقيقة كنا قد وصلنا إلى داخل أراضي منطقة الـ«هولستاين».

وفي السادسة والنصف توقفت السيارة أمام محطة القطار وأنزل الحمالون أمتعة عمي الكثيرة ولوازم السفر كبيرة الحجم، وحملوها حيث وُزنت ووُضع عليها اسمه ووجهة السفر، ثم حُملت ثانية في عربة الحقائب. وفي السابعة كنا جالسين الواحد في مواجهة الآخر في العربة نفسها في القطار. واندفع البخار وتحركت القاطرة، وبدأت الرحلة.

هل كنت مستسلمًا؟ ليس بعد. ومع ذلك كان هواء الصباح المنعش وتفاصيل الطريق التي تتتابع أمام ناظري مع سرعة القطار، يلهياني عن انشغالي الكبير.

أما عن البروفيسور فقد كانت أفكاره بكل تأكيد، تسبق موكبنا هذا الذي يُعد بطيئًا بمقياس البروفيسور وصبره النافد على الدوام. كنا وحدنا في العربة، صامتين. عمي انشغل في مراجعة وفحص ما يحمله في جيوبه وفي حقيبة سفره باهتمام وحذر. كنت على يقين أن لا شيء ينقصه من القطع والأدوات اللازمة لكي ينفذ ما شرع فيه، والتي من ضمنها ورقة مطوية بعناية كان يحملها، عليها شعار قنصلية الدنمارك وتوقيع السيد كريستيانسن قنصل الدنمارك في هامبورج وصديق البروفيسور. كان من شأن هذه الوثيقة أن تسهل لنا عند وصولنا إلى كوبنهاجن الحصول على التوصيات اللازمة والموجهة إلى حاكم أيسلندا.

ورأيت أيضًا الورقة الأخرى الشهيرة وقد أخفاها بعناية في جيب سحري في محفظته. شعرت بأني أكرهه من كل قلبي، وانشغلت بمشاهد الطريق من حولي التي كانت عبارة عن مجموعة متتالية من السهول عادية المنظر، خصبة يغمرها الطمي تتتابع في رتابة. كانت تربة ريفية ملائمة تمامًا لإنشاء خط سكك حديدية، وتسمح بمد خطوطها المستقيمة التي تُفضلها الشركات التي تملك هذه الخطوط. ولكن هذه الرتابة لم يطل بها الوقت لتثير فيَّ الشعور بالتعب، إذ إنه بعد ثلاث ساعات من مغادرتنا توقف القطار في كييل على بُعد خطوتين من البحر. وبما أن حقائبنا كانت مسجلة إلى كوبنهاجن، لم يكن علينا أن ننشغل بأمرها. ومع ذلك تابعها البروفيسور بعين قلقة والحمالون يقومون بنقلها إلى السفينة البخارية، حتى اختفت في المكان المخصص للحقائب في قاع السفينة.

في غمرة تسرعه، لم يحسب عمي جيدًا الوقت اللازم للوصول إلى السفينة، وبالتالي كان أمامنا يوم كامل من الانتظار، فالسفينة «الينورا» لم تكن لتغادر قبل الليل. وبالطبع أصاب هذا النبأ البروفيسور بنوبة مما أسميته أنا حمى الساعة التاسعة، انطلق فيها في ثورة غضب عارمة، صب فيها اللعنات على إدارة شركة السفن وشركة السكك الحديدية وعلى الحكومات التي تسمح بمثل هذا الاستهتار. ووجدت نفسي مضطرًا أن أعضد ما يقول عندما ناقش الأمر مع ربان السفينة الينورا. كان يريد أن يجبر الربان أن يبدأ في إعداد السفينة للمغادرة دونما انتظار ولو للحظة واحدة. وبالطبع لم يستمع الربان لأي كلمة مما قال.

وفي كيبل، كما في أي مكان آخر، كان يجب علينا أن نقطع الوقت. انطلقنا نتجول بمحاذاة شاطئ الخليج الذي تحده الخضرة، والذي يحيط بالمدينة الصغيرة، وتمشينا في الغابات الكثيفة التي تشبه العش المحفور في شعاع من الأغصان، نتأمل البيوت الجميلة التي يحتوي كل منها على ملحق به مسبح من المياه الباردة. وبعد ساعات من الركض حينًا والتذمر أحيانًا وصلنا إلى الساعة العاشرة مساءً.

كانت سحب البخار المنطلقة من السفينة الينورا تتشكل في السماء، والجسر يهتز تحت وقع غليان مراجلها. صعدنا إلى سطح السفينة حيث كان لكل منا مرتبة نوم ممدودة على طرف الحجرة الوحيدة في السفينة.

وفي العاشرة والربع غادرت السفينة المرسى وأطلقت أبخرتها مسرعة في مياه الـ«بيلت الكبير» المعتمة.

كانت ليلة شديدة الظلمة والهواء لطيف والبحر مضطرب، تومض في ظلمته أضواء قليلة قادمة من ناحية الشاطئ. ثم بعد فترة، لا أعلم من أين، انطلق وميض فنار فوق ظلمة المياه. وكان هذا هو كل ما أتذكره عن ليلتي الأولى في هذه الرحلة.

في السابعة من صباح اليوم التالي تركنا السفينة في كورسور، وهي بلدة صغيرة تقع على الجانب الغربي من بحر السيلاند. وهناك قفزنا من السفينة إلى قطار آخر أخذنا عبر بلد آخر يشبه في تضاريسه السهول الممتدة في ريف هولشتاين.

كان أمامنا ثلاث ساعات قبل أن نصل إلى كوبنهاجن. ولم يكن عمي قد غمض له جفن الليل كله، وكان نافد الصبر لدرجة بدا لي وكأنه يدفع عربة القطار بقدمه دفعًا لتزيد سرعتها.

وأخيرًا لاح له طرف البحر فصاح متهللًا: «السوند».

على يسارنا كان هناك مبنى ضخم يشبه المستشفى، أشار إليه واحد من رفقاء الرحلة قائلًا: «هذا نزل للمجانين».

وقلت في نفسي: «حسن، هذا مكان يصلح لكي نُمضي فيه ما تبقى من أعمارنا، وإن كان لا يكفي لاحتواء ثورة جنون البروفيسور ليدنبروك، بالرغم من ضخامة مبناه الكبير هذا».

وأخيرًا وفي الساعة العاشرة صباحًا وصلنا إلى كوبنهاجن، ووضعت الأمتعة على متن سيارة حملتنا إلى فندق «فونيكس» في شارع براد-جاده. استغرق الطريق إلى الفندق أكثر من نصف الساعة، إذ إن المحطة كانت تقع خارج المدينة. وبعد أن أزاح عمي عنه عناء السفر سريعًا، طلب مني أن أتبعه. كان حارس الفندق يتكلم الألمانية والإنجليزية ولكن البروفيسور، بما أنه متعدد اللغات، أصر أن يتحدث إليه باللغة الدنماركية. وبلغة دنماركية جميلة أخبره الحارس عن عنوان متحف آثار الشمال.

وكان مدير هذا المتحف العجيب الذي يحتوي على الكنوز العجيبة التي ستسمح بإعادة بناء تاريخ هذا البلد، بما فيه من أسلحة قديمة مصنوعة من الحجر، وكؤوس عتيقة مصنوعة من الأحجار الكريمة والحلي الثمينة، هذا الرجل كان عالمًا وكان صديقًا لقنصل هامبورج، البروفيسور طومسون.

كان عمي يحمل له معه خطاب توصية. في العموم، كان من طبع العلماء ألا يحسنوا استقبال نظرائهم ولكن هنا الوضع كان مختلفًا تمامًا، فقد استقبل البروفيسور طومسون البروفيسور ليدنبروك استقبالًا حافلًا وامتدت الحفاوة أيضًا إلى ابن أخ هذا الأخير. وغني عن القول أننا احتفظنا بالأمر سرًّا، وذلك فيما يتعلق بمدير المتحف، هذا الرجل الرائع. نحن هنا نبتغي زيارة أيسلندا كسواح متجردين.

وضع السيد طومسون نفسه تحت إمرتنا بالكامل، وذهبنا نبحث في أرجاء رصيف الميناء عن سفينة تكون على وشك الإقلاع.

كان عندي أمل أن تكون وسائل المواصلات شحيحة، ولكن هذا لم يحدث إذ كانت السفينة الدنماركية الصغيرة «فالكيري» تستعد لرفع الشراع والانطلاق إلى ريكيافيك في اليوم الثاني من يونيو. وكان قبطان هذه السفينة، السيد بيارنه، موجودًا على سطحها، حيث التقاه الراكب المحتمل، والذي من فرط سعادته، شد على يد القبطان بقوة حتى كاد يكسرها. وبدا القبطان الطيب مندهشًا قليلًا من هذه التحية، إذ إنه كان يعتبر الذهاب إلى أيسلندا أمرًا عاديًّا لا يستحق هذه السعادة البادية، فقد كان الإبحار إلى أيسلندا مهنته التي لا يعرف سواها، بينما كان عمي يرى فيه أمرًا جليلًا. واستغل القبطان الجليل حماس عمي وسعادته بأن جعلنا ندفع ضعف ثمن رحلتنا على متن سفينته، ولكن عمي لم يُعِر الأمر أي اهتمام.

وبعد أن وضع في جيبه عددًا كبيرًا من الدولارات قال لنا السيد بيارنه: «يجب أن تكونا هنا صباح الثلاثاء في السابعة صباحًا». وشكرنا بعد ذلك السيد طومسون على اهتمامه بنا وعدنا إلى فندق «الفونيكس».

وطفق عمي يردد: «الأمر يسير بشكل جيد، يسير بشكل جيد للغاية، أي حظ سعيد هذا الذي جعلنا نعثر على هذه السفينة التي تستعد للرحيل! والآن فلنتناول الغداء ولنذهب بعدها لزيارة المدينة».

ذهبنا إلى «كونجز نيو تورف» وهو مكان غريب، يوجد فيه موقع عسكري ينتصب فيه مدفعان معطوبان لا يخيفان أحدًا. وبالقرب من هذا الموقع، في البناية رقم «5» وجدنا مطعمًا فرنسيًّا يديره طاهٍ اسمه فينسان، تناولنا فيه غداء جيدًا بثمن معقول قدره 4 ماركات لكل منا.

وبعد ذلك انطلقت بفرحة طفل صغير أجوب المدينة، وتبعني عمي في هذه النزهة وإن كان في الحقيقة لم يرَ شيئًا ولم ينبهر بقصر الملك ولا بالجسر الجميل الذي يعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، والذي يربط بين ضفتَي النهر أمام المتحف، ولا بمقبرة «تورفالدسن» الضخمة التي تزينها اللوحات الجدارية المخيفة، والتي تحوي بداخلها أعمال هذا النحات الدنماركي ذي الشهرة العالمية، ولا التفت إلى قصر روزنبرج الرائع، ولا إلى مبنى البورصة البديع الذي يعود إلى عصر النهضة بناقوسه المصنوع من ذيول متشابكة لأربعة تنانين من البرونز، ولا استرعت انتباهه الطواحين الكبيرة على الأسوار بأجنحتها الواسعة المنبسطة التي تشبه أشرعة السفينة حين تنفرد منتفخة برياح البحر.

أي نزهة رائعة كان يمكن أن أقوم بها مع جميلتي الفيرلاندية عند الميناء حيث السفن والبواخر ترقد في سلام تحت أسقفها الحمراء؟! وأي سعادة تلك التي كنا سنشعر بها ونحن نسير معًا على الضفاف

الخضراء للممشى الضيق الذي يمر عبر هذه الأغصان الكثيفة التي تلقي ظلالها على القلعة، حيث فوهات المدافع السوداء تختبئ بين أفرع أشجار البيلسان والصفصاف؟!

ولكن هيهات! جروبن حبيبتي المسكينة بعيدة جدًّا الآن. هل بقي لي أمل في أن أراها مرة أخرى أبدًا؟

ومع ذلك وبالرغم من أن عمي لم يلتفت إلى هذه الأماكن الساحرة، فقد انتبه بشدة لمرأى ناقوس ما فوق جزيرة آماك، والتي تشكل الجزء الجنوبي الغربي من كوبنهاجن، وأمرني على الفور أن نتجه إلى هذه الناحية. فصعدنا إلى متن سفينة بخارية صغيرة كانت تقوم بخدمة النقل في قنوات المدينة، وفي لحظات قليلة وصلنا إلى رصيف الـ«دوك يارد» وبعد أن اخترقنا بضعة شوارع ضيقة حيث كان المحكوم عليهم، بسراويلهم المميزة ذات اللونين الأصفر والرمادي، يعملون تحت عصي حراسهم، وصلنا إلى كنيسة «فور فريلسير»، وهي كنيسة ليس بها ما يميزها، ولكن سببًا جعل ناقوسها العالي يسترعي انتباه البروفيسور: كان هذا السبب هو سلم خارجي يبدأ من قاعدة الناقوس ويلتف حول سهمه في حلقات حلزونية في الخلاء تحت السماء، عندما وصلنا عنده قال عمي:

- هيا بنا نصعد.

- وماذا عن الدوار؟

- هذا سبب أدعى لكي نصعد، يجب أن نتعود على الدوار.

- ولكن...

- تعالَ، اسمع ما أقول ولا تضِع الوقت.

ولم يكن أمامي سوى أن أطيع. وأتى إلينا بالمفاتيح حارس كان واقفًا في الناحية المقابلة من الشارع، وبدأت رحلة الصعود.

سبقني عمي بخطوة وتبعته وأنا مرتعب، فقد كان رأسي يدور بسهولة يُرثى لها، ولم أكن أملك شجاعة النسور ولا رباطة جأشها.

ظلت الأمور على ما يرام ونحن نصعد الدرجات الأولى بداخل المبنى، ولكن بعد مائة وخمسين درجة لفح الهواء وجهي وكنا قد وصلنا إلى قاعدة الناقوس وبدأ الجزء المعلق من السلم، ولم يكن يستند إلا إلى درابزين متهالك، ودرجاته كانت تضيق أكثر فأكثر، حتى بدا لي وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية.

وصحت قائلًا:

- لا، لا أستطيع، لن أصل أبدًا.

ورد عمي على الفور بلا رحمة ولا شفقة:

- أجبان أنت؟! اصعد، هيا.

واضطررت رغمًا عني أن أتبعه وأنا أحبو متشبثا بالسلم. كانت الرياح قوية أدارت رأسي وشعرت وكأن الناقوس يترنح تحت وطأتها، ولم تعد قدماي تقويان على حملي، واستمررت في الصعود زحفًا على ركبتي ثم على بطني مغمضًا عينيَّ وكدت أفقد الوعي، وأخيرًا شدني عمي من ياقة قميصي فوصلت بالقرب من قمة الناقوس. وقال لي:

- انظر، انظر جيدًا، يجب أن تتعلم كيف تنظر إلى الهاوية.

وفتحت عينيَّ ولمحت البيوت وكأنها سويت بالأرض وكأن حممًا سحقتها، وكان الدخان الكثيف يحيط بها. وفوق رأسي رأيت سحبًا مبعثرة، وبانعكاس بصري، بدت لي السحب وكأنها ثابتة لا تتحرك بينما الناقوس وأنا، كلنا ندور كما لو أن قوة ما تسحبنا بسرعة فائقة. وفي البعد لاحت لي الحقول الخضراء الممتدة من ناحية، ومن الناحية الأخرى مياه البحر تلمع تحت شعاع من ضوء.

كان مضيق السوند يمتد من طرف مدينة إلسينور، تقطعه بعض أشرعة بيضاء وكأنها أجنحة طيور النورس. وإلى الشرق بدت سواحل السويد وكأنها موجات باهتة وسط الضباب. كل هذا البراح اللا نهائي كان يدور ويدور أمام ناظري.

ومع ذلك كان يجب أن أقوم وأن أقف مستقيمًا وأنظر إلى الأمام. واستمر الدرس الأول في الدوار ساعة كاملة. وسمح لي في النهاية أن أنزل، ولمست قدماي الأرض الصلبة على رصيف الشارع. كان ظهري يؤلمني بشدة وسمعت البروفيسور يقول:

- سنعيد الكرة غدًا.

وبالفعل ولمدة خمسة أيام، أعدت هذا التمرين المذهل، وأردت أم لم أُرِد، أحرزت تقدمًا ملموسًا في فن «التأمل من أعلى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

حان يوم الرحيل. وفي المساء السابق على اليوم الموعود، أحضر لنا السيد طومسون المتعاون، خطابات توصية حارة موجهة إلى الكونت ترامب حاكم أيسلندا، والسيد بيتورسون مساعد الأسقف والسيد فينسن عمدة ريكيافيك. وفي المقابل، شد عمي على يده بحرارة معربًا عن شكره العميق.

وفي الساعة السادسة صباح اليوم التالي كانت حقائبنا الثمينة قد حملت على ظهر الباخرة «فالكيري». واقتادنا القبطان إلى كبائن ضيقة للغاية، مرتبة ومسقوفة بطريقة ما. وتساءل عمي موجهًا حديثه إلى القبطان:

- هل الريح مواتية؟

وأجاب القبطان بيارنه:

- الريح ممتازة. اتجاه الرياح جنوبي شرقي. سنغادر مضيق السوند إلى البحر الواسع وكل أشرعتنا مفرودة.

وبعد لحظات قليلة انطلقت السفينة الشراعية مستندة إلى صاريها الأمامي والخلفي وبرجها وأشرعتها مربعة الشكل، مبحرة عبر المضيق. وبعد ساعة بدت عاصمة الدنمارك وكأنها تغوص تحت الأمواج البعيدة، بينما «فالكيري» تبحر بمحاذاة ساحل الإلسينور. وفي الحالة العصبية التي كنت فيها، توقعت أن أرى شبح هاملت وهو يذرع شرفة القصر الأسطورية. وقلت في نفسي: «أيها الأحمق النبيل، أنت كنت ستوافقنا لا شك عندي في ذلك، بل ربما كنت ستتبعنا إلى مركز الأرض بحثًا عن حل لشكك الخالد».

ولكن شيئًا لم يظهر على الحوائط العتيقة، بل إن القصر في الواقع بدا وكأنه أصغر عمرًا من الأمير الدنماركي البطل. وهو يُستخدم الآن كمقر إقامة فخم للقائم على مضيق السوند هذا الذي تعبره سنويًّا نحو خمس عشرة سفينة من جميع الجنسيات.

وسرعان ما اختفى قصر كرونبورج وسط الضباب وكذلك برج هلسينبورج العالي على الضفة السويدية من المضيق. وتمايلت سفينتنا الشراعية قليلًا بفعل نسائم الكاتيجات، وهي المنطقة البحرية الممتدة بين الدنمارك والسويد، تحدها مضايق كثيرة من جهة الجنوب وخليج واسع من جهة الشمال. الفالكيري كانت سفينة شراعية متميزة، ولكن عندما تكون على متن هذا النوع من السفن، لا يمكنك أن تعتمد ميعادًا ثابتًا للوصول إلى وجهتك. كانت الفالكيري تنقل شحنات من الفحم والأدوات المنزلية والفخار والألبسة الصوفية، وكذلك شحنة من القمح، إلى ريكيافيك. وكان يكفي لقيادتها طاقم من خمسة أفراد، جميعهم دنماركيون.

وسأل عمي قبطان السفينة:

- كم من الوقت سوف نستغرق للوصول؟

وأجابه القبطان:

- نحو عشرة أيام لو لم تصادفنا رياحًا شمالية غربية من ناحية أرخبيل الفارو.

- حسن، ولكن ليس من المتوقع أن يكون هناك ما يؤدي إلى تأخير كبير، أليس كذلك؟

- كلا يا سيد ليدنبروك، اطمئن، سوف نصل إلى وجهتنا.

ونحو المساء تركت السفينة خلفها مدينة سكاجن في أقصى شمال الدنمارك، وفي الليل عبرت مضيق سكاجر-راك وأبحرت بمحاذاة الطرف الجنوبي الشرقي للنرويج ودلفت إلى بحر الشمال.

وبعد يومين كنا قد أبحرنا قريبًا من سواحل اسكتلندا عند مدينة بيترهيد شمال أبردين، ثم توجهت فالكيري نحو جزر أرخبيل الفارو مرورًا بأرخبيل الأوركيد شمال اسكتلندا.

وسرعان ما ضربت سفينتنا أمواج الأطلنطي العاتية وأصبح عليها أن تناور رياح الشمال، ولم تصل إلى أرخبيل الفارو من دون عناء. وفي اليوم الثامن لمح القبطان جزيرة ميجانيس، وهي الجزيرة التي تقع إلى أقصى الشرق في هذا الأرخبيل، ومنذ أن رآها وجَّه سفينته في خط مستقيم إلى رأس بورتلاند على الساحل الجنوبي لأيسلندا.

لم تكن في رحلتنا أحداث تستحق أن تذكر، فقد تحملت جيدًا تقلبات البحر بينما شعر عمي بالدوار وكان مريضًا طوال الرحلة، مما أثار استياءه الشديد وجعله يتوارى خجلًا.

بالتالي لم يتمكن من الحديث مع القبطان حول السنيفيليس ووسائل التنقل المتاحة، واضطر إلى تأجيل استفساراته إلى حين الوصول، وظل طوال الوقت ممددًا في قمرته التي كانت الحواجز الخشبية فيها لا تتوقف عن الصرير. ويجب أن أقول إنه إلى حدٍّ ما كان يستحق هذا المصير.

وفي اليوم الحادي عشر مررنا برأس بورتلاند، وكان الجو صحوًا مما أتاح لنا أن نلمح جبل ميردال يوكول الجليدي الذي يحيط به. ورأس بورتلاند هذا يتكون من كتلة أرضية قاتمة ذات منحدرات حادة، تقف معزولة على الشاطئ.

كانت فالكيري تبحر على مسافة معقولة من السواحل متجهة نحو الغرب وسط العديد من قطعان الحيتان وأسماك القرش. وفجأة ظهرت صخرة هائلة مثقوبة تمر من خلالها أمواج البحر مزبدة عاتية. وبدت جزر ويستمان الصغيرة وكأنها تنبت من المحيط، وكأنها بذور صخرية منثورة على سهول سائلة. ومنذ هذه اللحظة اتخذت السفينة مسارًا يشبه قوسًا واسعًا أتاح لها أن تمر بمسافة معقولة حول رأس ريكيانيس الذي يقفل الزاوية الغربية لأيسلندا.

منع البحر العاتي عمي من الصعود إلى السطح للتمتع برؤية هذه السواحل التي تضربها رياح الجنوب الغربي الشديدة.

وبعد ثمانية وأربعين ساعة، وبعد أن خرجنا من العاصفة التي أجبرت سفينتنا على طي أشرعتها، رأينا إلى الشرق علامة نقطة سكوجن التي تمتد صخورها الخطرة إلى مسافة طويلة تحت صفحة المياه.

صعد إلى سطح السفينة قبطان أيسلندي، وبعد ثلاث ساعات، وصلت فالكيري أمام ريكيافيك، في مياه خليج فاكسا.

غادر البروفيسور قمرته أخيرًا، وكان شاحب الوجه قليلًا يبدو عليه الضعف إلى حدٍّ ما، ولكنه كان يفيض بالحماس، وتعكس عيناه ارتياحًا وسعادة بادية. أما سكان المدينة فقد تجمعوا على رصيف الميناء يرقبون وصول السفينة التي تحمل إلى كل منهم طردًا أو رسالة ينتظرها.

كان عمي متعجلًا على مغادرة سجنه العائم أو لنقُل المستشفى العائم الذي حبس فيه الأيام الماضية. ولكنه قبل أن يغادر سطح السفينة دفعني أمامه إلى المقدمة، وهناك أشار لي بإصبعه إلى الجزء الشمالي من الخليج، حيث جبل عالٍ ذي قمتين، يشبه مخروطًا مزدوجًا تغطيه ثلوج أبدية وصاح قائلًا:

- السنيفيليس، هذا هو السنيفيليس.

ثم، وبعد أن أمرني بإشارة منه أن ألزم الصمت التام، هبط إلى القارب الذي كان ينتظره، وتبعته، وسرعان ما لمست أقدامنا أرض أيسلندا.

في البداية لمحنا رجلًا ذا بنية متوسطة يرتدي زي جنرال، لكنه في الحقيقة لم يكن سوى قاضٍ بسيط هو حاكم الجزيرة، البارون ترامب شخصيًّا. تعرف البروفيسور على شخصية الرجل وسلم له الخطابات التي أتى بها من كوبنهاجن، ودار حوار قصير بينهما باللغة الدنماركية، وبالطبع ولهذا السبب تحديدًا، لم أفهم شيئًا مما قالاه. ونتج عن هذا اللقاء الأول ما يلي: البارون ترامب قرر أنه يضع نفسه بالكامل تحت تصرف البروفيسور ليدنبروك.

لقي عمي استقبالًا حارًّا من قبل العمدة، السيد فينسونن الذي كان يرتدي هو الآخر زيًّا عسكريًّا وإن بدا طبعه هادئًا على عكس ما قد يوحي به ملبسه. أما الأسقف، السيد بيكتورسن، فقد كان ساعتها يقوم بجولة رعوية في دائرة الشمال، ولهذا السبب فقد اضطررنا في الوقت الحاضر إلى تأجيل التعرف عليه، لكننا قابلنا رجلًا رائعًا آخر هو السيد فريدريكسن، أستاذ العلوم الطبيعية في مدرسة ريكيافيك، والذي كان ما أدلى به إلينا ذا قيمة كبيرة. هذا العالم المتواضع لم يكن يتحدث سوى اللغتين الأيسلندية واللاتينية، فبدأ حديثه معي عارضًا خدماته باللاتينية (لغة هوارشيوس)، وشعرت حينئذٍ أننا خُلقنا لكي نتفاهم. وبالفعل أصبح هو الشخص الوحيد الذي استطعت الحديث معه خلال إقامتي في أيسلندا.

وضع هذا الرجل الرائع تحت إمرتنا غرفتين من الغرف الثلاث التي يتكون منها منزله. استقررنا في الغرفتين ووضعنا أمتعتنا التي أثار عددها دهشة سكان ريكيافيك.

وبادرني عمي قائلًا:

- وأخيرا يا آكسل، الأمور تسير جيدًا والأصعب قد مر.

- الأصعب؟ كيف هذا؟

أجبته صائحًا.

- بلا شك، لم يعد أمامنا سوى الهبوط إلى أسفل.

- ربما تكون على حق لو أنك نظرت إلى الأمر من هذه الزاوية، ولكن في نهاية الأمر بعد أن نهبط سيكون علينا أن نصعد ثانية، أليس كذلك؟

- أوه! هذا الأمر لا يقلقني على الإطلاق. هيا، ليس أمامنا وقت نضيعه. سوف أذهب إلى المكتبة ربما أجد هناك إحدى مخطوطات ساكنوسسيمم، وسأكون في غاية السعادة لو اطلعت عليها.

- إذَنْ بينما تفعل سأقوم أنا بزيارة المدينة. ألن تفعل ذلك أنت أيضًا؟

- أوه! هذا الأمر لا يسترعي اهتمامي. المثير في أرض أيسلندا هذه هو ما يوجد في باطنها وليس على السطح.

وخرجت أسير بلا هدي.

ليس من السهل أن يضل المرء طريقه في شارعين هما كل ما في ريكيافيك. ولهذا فلم أضطر إلى أن أسأل أحدًا عن الطريق، وهو الأمر الذي لو حدث عن طريق لغة الإشارة، لعرَّضني إلى قدر كبير من سوء التقدير.

كانت المدينة تمتد فوق أرض منخفضة كثيرة المستنقعات تقع بين هضبتين. من ناحية كانت تدفقات هائلة من الحمم، تغمرها قبل أن تتجه إلى البحر عبر منحنيات هادئة، ومن الناحية الأخرى، كان خليج فاكسا الواسع يحده من الشمال جبل سنيفيليس الجليدي الضخم حيث السفينة فالكيري تقف وحيدة في المرسى في هذا الوقت، وحيث في المعتاد توجد سفن الصيد الفرنسية والإنجليزية في عرض البحر، ولكنها في هذا الوقت كانت في مهمة عمل على السواحل الشرقية للجزيرة.

كان الشارع الموازي للشاطئ هو الأطول في الشارعين الرئيسين في ريكيافيك. وهذا الشارع هو الذي يتواجد فيه التجار والسكان الذين يأتون للتفاوض معهم داخل كبائن خشبية مصنوعة من ألواح حمراء مرتبة أفقيًّا. والشارع الآخر في الغرب كان يؤدي إلى بحيرة صغيرة تتوسط المنازل التي يقطنها الأسقف وشخصيات أخرى من غير المتصلين بالتجارة. سرت أتجول في هذه الطرق الكئيبة التي توحي بالحزن. رأيت حينًا رقعة من العشب باهت اللون الذي يشبه سجادة قديمة من الصوف وقد تآكلت بفعل الزمن، وفي مكان آخر رأيت ما يشبه بستانًا تتناثر فيه خضراوات قليلة من بطاطس وكرنب وخس، صغيرة الحجم كتلك التي تجدها عادة على مائدة عائلة من الأقزام. كما تناثرت هنا وهناك بعض زهرات قرنفل ذابلة تحاول أن تتنفس تحت شعاع شمس هارب.

وعند منتصف هذا الشارع غير التجاري تقريبًا وجدت الجبانة العامة التي يحيطها سور من الطوب اللين. وبعد خطوات قليلة وصلت إلى بيت الحاكم، الذي كان يشبه الكوخ بالمقارنة بمبنى البلدية في هامبورج، والذي يعتبر قصرًا بالمقارنة بالأكواخ التي يقطنها الأيسلنديون.

وفي المنطقة ما بين البحيرة الصغيرة والمدينة، كانت الكنيسة ذات النمط البروتستانتي مبنية من الحجارة المتكلسة التي لم تكلفهم عناء استخراجها، إذ كانت بعضًا من آثار البراكين المحيطة بالمدينة.

سقف الكنيسة كان مصنوعًا من القرميد الأحمر الذي بكل تأكيد قد يتناثر في الهواء تحت رياح الغرب العاتية، مخلفًا وراءه حسرة وضررًا للمؤمنين المترددين عليها.

وعلى ربوة قريبة لمحت المدرسة القومية، والتي كانت تُدرَّس فيها، كما أخبرني لاحقًا مضيفنا الكريم، اللغات العبرية والإنجليزية والفرنسية والدنماركية، أربع لغات لم أكن ويا للخجل، أعرف منها ولا كلمة واحدة. كنت سآتي في الترتيب الأخير بين الأربعين تلميذًا من تلاميذ هذه المدرسة الصغيرة، ولم أكن لأستحق أن أقيم معهم في هذه الغرف الضيقة التي بالتأكيد لن يتحمل الطالب الحساس البقاء فيها ليلة واحدة.

في غضون ثلاث ساعات كنت قد زرت المدينة كلها ومحيطها أيضًا. كان الانطباع العام حزينًا. فلا أشجار هناك ولا نباتات لو جاز لي القول. الصخور البركانية بأطرافها المدببة الحية تجدها في كل الأرجاء. وكانت أكواخ الأيسلنديين مصنوعة من الطين والتربة المكونة من مواد عضوية متحللة ومجففة، وكانت حوائطها التي تميل إلى الداخل تجعلها تشبه أسقفًا موضوعة على الأرض بلا حوائط تحتها. كانت هذه الأكواخ التي تشبه الأسقف عبارة عن براري خصبة نسبيًّا، فنتيجة للحرارة المنبعثة ممن يسكنونها، كان العشب ينمو فيها بصورة طيبة للغاية، وكانوا يقصونه في أواني القش لأنهم لو لم يفعلوا لظنت الحيوانات أن هذه المنازل الخضراء هي مراعٍ شهية.

قابلت في تجوالي عددًا قليلًا من سكان المدينة، وشاهدت عند عودتي إلى الشارع التجاري العدد الأكبر من السكان وهم منشغلون في تجفيف الحيتان وتمليحها ووضعها في الصناديق، إذ كانت هذه الحيتان هي السلعة الرئيسة التي يصدرونها. الرجال كانوا يبدون أقوياء ولكنهم ثقيلو الحركة مثلهم مثل فصيل من الألمان ذوي الرؤوس الشقراء والنظرات الساهمة، يشعرون بأنهم منبوذون من الإنسانية، فقراء منفيون إلى هذه الأرض الجليدية التي كانت طبيعتها حرية بأن تصنع منهم شعبًا من الإسكيمو، بما أنها حكمت عليهم بالعيش على أطراف القوس القطبي. حاولت عبثًا أن ألمح شبح ابتسامة على وجوههم. كانوا يضحكون مرات في نوع من الانقباض العضلي اللا إرادي، ولكنهم لا يبتسمون أبدًا.

وكان ملبسهم مكونًا من سترة سوداء بدائية كما في بقية الدول الإسكندنافية، تعرف باسم «فادميل»، وقبعة عريضة الأطراف وسروال به شريط أحمر وقطعة جلد مثنية بمثابة حذاء.

والنساء كانت وجوههن حزينة مستسلمة، جميلة وإن كانت بلا تعبير. وكن يرتدين صدرية وتنورة من الـ«فادميل» داكن اللون. وكانت الفتيات منهن يضعن قبعات صغيرة بنية اللون من الصوف فوق رؤوسهن ذات الضفائر التي تزينها الشرائط. أما المتزوجات، فكن يضعن حول رؤوسهن مناديل ملونة في أعلاها ما يشبه العرف من القماش أبيض اللون.

عدت إلى منزل السيد فريدريكسن بعد نزهة جيدة ووجدت عمي جالسًا بصحبة مضيفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

أعد طعام العشاء والتهمه البروفيسور ليدنبروك بنهم شديد، إذ إنه كان قد فرض على نفسه نظامًا غذائيًّا صارمًا في أثناء وجوده على السفينة، مما جعل معدته بعد انتهاء الرحلة تتحول إلى بئر عميقة لا تمتلئ. طعام العشاء المذكور كان دنماركيًّا أكثر منه أيسلنديًّا، ولم يكن فيه شيء جديد أو مختلف على وجه الخصوص، وإن كان مضيفنا أيسلنديًّا أكثر منه دنماركيًّا، ذكرني بنبلاء العصور القديمة وحسن ضيافتهم الشهيرة. وبدا لي كما لو أننا نحن أصحاب البيت أكثر منه هو شخصيًّا. الحديث في أثناء العشاء وبعده دار باللغة المحلية التي اختلطت بها اللغة الألمانية من جانب عمي واللغة اللاتينية من جانب السيد فريدريكسن، وذلك لطفًا منهما حتى أتمكن من متابعة الحديث الذي تناول مسائل علمية كما يليق بالعلماء، وإن كان البروفيسور ليدنبروك قد التزم بالحرص الشديد في أثناء الحديث، وأمرتني نظراته في كل جملة بالتزام الصمت التام فيما يتعلق بمشاريعنا المستقبلية.

في البداية، سأل السيد فريدريكسن البروفيسور عن نتيجة بحثه في مكتبة البلدة ورد عليه هذا الأخير قائلًا:

- مكتبتكم هذه لا تحتوي إلا على كتب غير متطابقة مرصوصة على رفوف شبه خاوية.

- كيف هذا؟

أجابه السيد فريدريكسن.

- نحن نمتلك ثمانية آلاف كتاب، الكثير منها ثمين ونادر. ومنها مجلدات باللغة الإسكندنافية القديمة بالإضافة إلى كل ما هو حديث مما تمدنا به كوبنهاجن كل عام.

- وأين هي الثمانية آلاف كتاب هذه؟ أنا لم أرَ...

- آه يا سيد ليدنبروك، إنها تجوب البلاد. نحن في هذه الجزيرة الجليدية القديمة ندمن المعرفة والدراسة. ليس هناك فلاح ولا صياد لا يعرف القراءة والكتابة. نحن نرى أن الكتب يجب أن تبلى تحت أعين قرائها بدلًا من أن تبلى وتتعفن وهي على الرفوف الحديدية بعيدًا عن الأعين الفضولية النهمة إلى المعرفة. وهكذا تتنقل هذه الكتب من يد إلى يد تتصفحها، ومن عين إلى عين تقرأها وتعيد قراءتها. وفي أغلب الأحيان لا تعود إلى مكانها على الرفوف إلا بعد عام أو اثنين من الغياب.

- وفي هذه الأثناء...

رد عمي ببعض الانفعال:

- الغرباء...

- ماذا عن الغرباء يا سيدي؟ هم يملكون مكتبات في بلادهم. نحن قبل كل شيء يجب أن نتيح المعرفة لفلاحينا. دعني أقول لك مرة أخرى، إن حب الدراسة يجري في دم الأيسلنديين. ودعني أضيف أننا أسسنا عام 1816 جمعية أدبية، ما زالت أمورها تسير جيدًا والعلماء الأجانب يفخرون بانتمائهم إليها.

وهي تنشر كتبًا مخصصة لتعليم مواطنينا، وتؤدي خدمات حقيقية لبلادنا. ولو أردت يا سيدي أن تكون عضوًا منتسبًا في هذه الجمعية فسيكون هذا من دواعي سرورنا.

وقبِل عمي بكل سرور هذا العرض، وهو الذي كان بالفعل عضوًا في مئات من الجمعيات العلمية، مما لاقى امتنانًا واضحًا من جانب السيد فريدريكسن، الذي خاطب عمي قائلًا:

- والآن يا سيدي، خبرني عن أسماء الكتب التي كنت تود العثور عليها في مكتبتنا، وسوف أتحرى عنها.

ونظرت إلى عمي الذي تردد في الإجابة فالأمر يتعلق مباشرة بالمشاريع التي أتينا من أجلها.

ومع ذلك وبعد أن فكر في الأمر مليًّا قرر أن يتكلم.

- يا سيد فريدريكسن، أنا كنت أود أن أعرف لو كانت المخطوطات الخاصة بآرنه ساكنوسسيمم موجودة ضمن المخطوطات القديمة التي تحتوي عليها مكتبتكم.

وأجابه البروفيسور فريدريكسن:

- آرنه ساكنوسسيمم؟ أنت تقصد العالم الذي ينتمي إلى القرن السادس عشر؟ هذا الذي هو عالم طبيعة عظيم وخيميائي عظيم ورحالة عظيم في آن واحد؟

- هو بعينه.

- أحد مفاخر الأدب والعلم الأيسلنديين؟

- كما تقول تمامًا.

- هذا الرجل الشهير في عالمنا هنا؟

- أوافقك على هذا الوصف.

- والذي كان يملك من العبقرية مثلما يملك من الإقدام والشجاعة؟

- أرى أنك تعرفه تمام المعرفة.

كان عمي يسبح في بحر من السعادة بما يسمع من مديح لبطله، وكاد يلتهم السيد فريدريكسن بنظراته وهو يسأله:

- حسنًا والآن ماذا عن أعماله ومخطوطاته؟

- آه، أعماله ومخطوطاته نحن لا نملكها.

- ماذا؟ أنتم في أيسلندا لا تملكونها؟

- أعماله لا توجد في أيسلندا ولا في غيرها.

- ولم ذلك؟

- لأن آرنه ساكنوسسيمم كان مضطهدًا واتّهم بالهرطقة والكفر، وفي عام 1573 أحرقت كتبه ومخطوطاته في كوبنهاجن على يد الجلاد.

- حسن جدًّا، رائع.

صاح عمي قائلًا لدهشة واستياء أستاذ العلوم الطبيعية الذي كان يحدثه، والذي رده عليه مستنكرًا:

- ماذا؟

- نعم، هذا يفسر كل شيء، كل الأمور تتوالى وتتضح الصورة تمامًا. أنا الآن أعرف لماذا اضطر ساكنوسسيمم الذي أجبر على إخفاء الاكتشافات التي توصلت إليها عبقريته، إلى أن يخفي في كريبتوجرام غير مفهوم، السر الذي...

- أي سر؟

تساءل السيد فريدريكسن متحمسًا.

- سر... السر الذي...

أجاب عمي مرتبكًا.

واستطرد مضيفنا:

- هل بحوزتك مخطوط أو مستند بعينه؟

- كلا، كنت أطرح فرضية، مجرد فرضية.

- حسنًا.

أجابه السيد فريدركسن الذي فضَّل عدم الاستطراد مراعاة للارتباك الذي رأى أنه أصاب محدثه. وأضاف قائلًا:

- أرجو ألا تغادر جزيرتنا قبل أن تستكشف كنوزها من المعادن.

- بالتأكيد.

أجابه عمي.

- ولكني أصل متأخرًا قليلًا. علماء كثيرون مروا من هنا قبلي، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي، إن الأعمال التي قام بها السيدان أولافسن وبوفسيلسن تنفيذًا لأمر مباشر من الملك، والدراسات التي أجراها ترويل، والمهمة العلمية التي أنجزها السيدان جيمار وروبرت، على متن السفينة الحربية الفرنسية «لا روشارش 1» التي تعني «البحث 1»(4)، وأخيرًا الملاحظات التي دونها العلماء الذين كانوا على متن الفرقاطة «الملكة هورتانس»، كلها أسهمت بقوة في التعريف بأيسلندا. ولكن صدقني، هناك الكثير الذي لم يُكتشف بعد.

(4) السفينة الحربية «لا روشارش» أو «البحث 1»: هي سفينة أرسلها الأدميرال دوبيري عام 1835 لاقتفاء أثر بعثة استكشافية مفقودة، وهي بعثة السيدَين دي بلوسوفيل ودي لاليلواز، والتي لم يُعثر لها على أثر قَطُّ.

- أتظن ذلك؟

أجاب عمي بلهجة من لا يعنيه الأمر وهو يحاول أن يخفف قليلًا من اللمعة التي ومضت في عينيه.

- نعم، هناك الكثير من الجبال والكتل الجليدية والبراكين التي لا نعرف عنها سوى القليل، والتي يجب أن تدرس. ولن نذهب بعيدًا، أترى هذه الهضبة التي ترتفع في الأفق؟ إنها هضبة السنيفيليس.

- آه! السنيفيليس!

- نعم، أحد البراكين الأكثر غموضًا والتي لا يصل أحد إلى فوهتها إلا نادرًا.

- بركان خامد، أليس كذلك؟

- أوه! إنه بركان خامد منذ خمسمائة عام.

- حسن.

أجابه عمي الذي وضع ساقًا فوق ساق بعصبية حتى لا يقفز في الهواء من فرط سعادته. أريد إذَنْ أن أبدأ دراساتي الجيولوجية بهذا السنيف ليس... كيف تنطقون هذا الاسم؟

- سنيفيليس.

استطرد الرائع فريدريكسن.

هذه الفقرة الأخيرة من الحوار دارت باللغة اللاتينية، ولذا فهمت كل شيء ووجدت صعوبة بالغة في الاحتفاظ بجديتي وأنا أرى عمي يحاول أن يكتم السعادة التي تفيض من كل قسماته، وقد اتخذ هيئة بريئة وعلت وجهه ابتسامة لئيمة تشبه ابتسامة شيطان عجوز ثم قال:

- نعم، إن ما قلته الآن أقنعني. سنحاول أن نتسلق هذا السنيفيليس، بل وربما نقوم بدراسة فوهته.

- أنا آسف بشدة لأن التزاماتي لا تسمح لي بالتغيب عن عملي. لكم كنت أود أن أستمتع وأستفيد بصحبتكم في هذه الرحلة.

- أوه، كلا، كلا، لا عليك.

أجابه عمي سريعًا.

- نحن لا نريد أن نزعج أحدًا يا سيد فريدريكسن. أنا أشكرك من كل قلبي. إن وجود عالم مثلك إضافة كبيرة ولكن الواجبات التي يمليها عليك عملك...

تمنيت لو أن مضيفنا الكريم، بروحه الأيسلندية البريئة لم يفهم حيل عمي الذكية، وهو بالفعل لم يفهم إذ أجاب قائلًا:

- أتفق معك تمامًا يا سيد ليدنبروك، الأفضل أن تبدأ بهذا البركان. سوف تحصل من هذا الموقع على حصاد ضخم من الملاحظات الهامة. ولكن أخبرني، هل فكرت كيف ستصل إلى شبه جزيرة سنيفيليس؟

- عن طريق البحر، عبر الخليج. هذا هو الطريق الأسرع.

- بلا شك. ولكنه طريق مستحيل.

- ولم ذلك؟

- لأننا في ريكيافيك لا نملك قاربًا واحدًا.

- اللعنة!

- يجب أن تسلك الطريق البري. يجب أن تسير بحذاء الساحل. سيكون هذا الطريق أطول ولكنه أكثر إثارة للاهتمام.

- حسنًا، سأحاول أن أتعاقد مع دليل.

- لديَّ شخص يقوم بهذه المهمة.

- هل هو شخص ذكي، أهل للثقة؟

- نعم، إنه أحد سكان شبه الجزيرة، صياد يصطاد بط العيدر، ماهر جدًّا وسوف يحوز إعجابك. وهو يتكلم الدنماركية بطلاقة.

- ومتى يمكنني أن أقابله؟

- غدًا لو أردت.

- ولم ليس اليوم؟

- لأنه لن يصل قبل الغد.

- إلى الغد إذَنْ.

أجاب عمي وهو يزفر مستسلمًا.

وانتهى هذا الحوار الهام بعد لحظات بشكر عميق حار وجَّهه البروفيسور الألماني إلى البروفيسور الأيسلندي. كان عمي قد حصل في أثناء العشاء على معلومات هامة، منها قصة ساكنوسسيمم، والسبب وراء مخطوطته الغامضة، واطمأن أيضًا أن مضيفه لن يصحبه في رحلته الاستكشافية، وأن دليلًا سيكون تحت إمرته بدءًا من الغد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

قمت في المساء بجولة قصيرة على شواطئ ريكيافيك، وعدت مبكرًا لأستلقي على سريري ذي الألواح العريضة وغبت في نوم عميق.

وحين استيقظت سمعت عمي يتكلم بلا توقف في الغرفة المجاورة. قمت سريعًا لألحق به. كان يتحدث باللغة الدنماركية إلى رجل طويل القامة، ضخم البنية. هذا الرجل الضخم بدا أنه يملك قوة نادرة الوجود. عيناه اللتان توسطتا رأسه الكبير الذي حمل سمات السذاجة، كانتا تشعان ذكاءً. كانت عيناه ذات لون أزرق حالم، وكان شعره طويلًا يميل لونه إلى الحمرة، يتهدل حتى يصل إلى كتفيه العريضتين القويتين. هذا المواطن الأيسلندي كان جسده مرنًا، ولكنه لم يكن يحرك ذراعيه سوى قليل كما يفعل الرجل الذي يجهل أو يحتقر لغة الجسد، وكان كل ما فيه يعكس طبعًا هادئًا ومثاليًّا. لم يكن كسولًا ولكنه هادئ، تشعر وكأنه لا يطلب شيئًا من أحد وأنه يعمل كما يحلو له، وأنه في هذا العالم يتبع فلسفة لا يدهشها ولا يزعجها شيء.

رأيت ملامح هذه الشخصية في الطريقة التي كان هذا الأيسلندي ينصت بها إلى الإسهاب الشغوف لمحدثه. ظل واقفًا عاقدًا ذراعيه بلا حراك أمام حركات عمي الكثيرة. عندما كان يريد أن يجيب بلا، كان رأسه يلف من الشمال إلى اليمين، وينحني إلى الأمام دليلًا على الموافقة أو التأكيد، قليلًا جدًّا حتى إن شعره الطويل كان يهتز بالكاد. إنه اقتصاد في الحركة يصل إلى درجة البخل.

بالتأكيد لو أني التقيت هذا الرجل مصادفة لم أكن لأخمن قَطُّ أنه يمتهن الصيد، فرجل مثله لم يكن بوسعه أن يخيف الفريسة بضربة واثقة قوية، ولكن كيف كان ينجح في الإيقاع بفرائسه إذَنْ؟

فهمت الأمر فقط عندما أخبرني السيد فريدريكسن أن هذا الشخص الهادئ ما هو إلا «صياد بط العيدر»، وهو طائر يمثل زغبه إحدى أكبر الثروات في هذه الجزيرة. في الواقع كان هذا الزغب يسمى اللحاف ولم يكن يحتاج إلى حركة كثيرة لجمعه.

في أوائل أيام فصل الصيف، تقوم أنثى العيدر، وهو نوع من البط الجميل، ببناء عشها وسط صخور الخلجان ذات الحافة المهدبة. وعندما تنتهي من بناء العش تقوم بتبطينه بريشات ناعمة تنزعها من بطنها. وسرعان ما يصل الصياد، أو بالأحرى التاجر المفاوض، فيأخذ العش وتعود أنثى بط العيدر إلى العمل لتعيد البناء من جديد. ويظل الأمر هكذا، تعيد هي الكرة ما دام بقي في بطنها ريش. وعندما لا يبقى لها منه شيء يأتي دور الذكر. ولأن هذا الأخير ريشه جامد ولا قيمة تجارية له، لا يتكلف الصياد عناء سرقة السرير الذي سيتلقى أفراخه، وهنا يكتمل بناء العش وتضع الأنثى بيضها، ويفقس البيض صغارًا، وفي السنة التالية، يتكرر الحصاد. وبما أن بط العيدر لم يكن يختار الصخور حادة الانحدار لبناء أعشاشه، بل الصخور السهلة المستوية والأفقية التي تتمدد لتختفي في مياه الخليج، كان بوسع الصياد الأيسلندي أن يمارس مهنته من دون أن يتحرك كثيرًا. كان أشبه بفلاح ليس عليه أن يبذر البذور ولا أن يقص زراعته، بل كل مهمته هي أن يجمع الحصاد.

هذا الشخص الجاد، البارد، الصامت، كان يُدعى هانز بيالكه، قدم إلينا بتوصية من السيد فريدريكسن. هذا هو دليلنا منذ صباح الغد. كان أسلوبه يتعارض تمامًا مع أسلوب عمي ومع ذلك تفاهما بسهولة ويسر. لم يكن الأجر يعني شيئًا بالنسبة لأي منهما. أحدهما مستعد أن يقبل ما يعرض عليه والآخر مستعد أن يدفع ما يطلب منه. لم يكن هناك أسهل من هكذا صفقة.

وسريعًا تم الاتفاق على أن يصحبنا هانز إلى قرية ستابي الواقعة على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة سنيفيليس، على حافة البركان تمامًا. كانت المسافة اثنين وعشرين ميلًا تقريبًا، تستغرق مسيرة يومين طبقًا لتقدير عمي. ولكنه عندما علم أن هذه المسافة هي اثنان وعشرون ميلًا دنماركيًّا، أي أربع وعشرون ألف قدم، أعاد حساباته، وبما أن الطرق لم تكن كلها ممهدة، فقد قدر زمن الرحلة بسبعة أو ثمانية أيام من المسير.

أربعة جياد وضعت تحت تصرف عمي. جوادان نمتطيهما أنا وهو والجوادان الآخران لحمل الأمتعة. أما هانز، فطبقًا لعادته سيتبعنا سيرًا على قدميه. كان يعرف هذا الجزء من الساحل معرفة تامة ووعد باتباع أقصر الطرق وصولًا إلى وجهتنا.

لم يكن اتفاقه مع عمي ينتهي بوصولنا إلى قرية ستابي، بل اتفقا على أن يبقى تحت إمرته طوال الوقت اللازم لرحلاتنا العلمية مقابل ثلاثة ريكسدال(5) في الأسبوع. فقط تم الاتفاق على أن يدفع هذا المبلغ إلى الدليل مساء كل يوم سبت، وكان هذا شرطًا لا غنى عنه في الاتفاق.

(5) ثلاثة ريكسدال: الريكسدال هو عملة سويدية، كانت تستخدم في الدول الإسكندنافية منذ القرن السادس عشر، وحتى أوائل القرن التاسع عشر.

وتحدد يوم المغادرة في السادس عشر من يونيو. وأراد عمي أن يدفع للصياد مقدم العقد ولكن هذا الأخير رفض بكلمة واحدة: «فيما بعد».

«لاحقًا»، هذا هو معنى ما قاله، أضاف عمي موجهًا كلامه لي وشارحًا للكلمة التي أجابه بها الدليل باللغة الأيسلندية.

وبعد أن أتما الاتفاق انسحب هانز إلى الخارج وقال عمي:

- إنه رجل غريب، ولكنه يجهل الدور الرائع الذي يخبئه المستقبل له.

- سيصحبنا إذَنْ إلى...

- نعم يا آكسل، إلى باطن الأرض.

كان أمامنا ثمانية وأربعون ساعة قبل الرحيل. ولأسفي الشديد اضطررت لتمضية هذا الوقت الثمين في القيام بالاستعدادات اللازمة للرحلة. شحذنا كل همتنا وذكائنا لترتيب كل شيء بأفضل طريقة، الأدوات في جانب والأسلحة في جانب آخر، الآلات في هذه الحزمة والأطعمة في الحزمة الأخرى. وفي النهاية جمعنا كل شيء في أربع مجموعات.

هذه الأدوات تضمنت:

أولًا: ترموميتر آيجل، وهو مقياس حرارة مئوي، متدرج ليقيس حتى درجة حرارة 150، وهو ما رأيت أنه تقدير مبالغ فيه أو غير كافٍ. مبالغ فيه لأنه لو وصلت الحرارة المحيطة بنا إلى 150 درجة، نكون قد احترقنا في هذه الحالة، وغير كافٍ لو كان الأمر متعلقًا بقياس درجة حرارة المصادر أو أي مواد منصهرة أخرى.

ثانيًا: مقياس للضغط ذو هواء مضغوط، مصمم بحيث يشير إلى درجة الضغط التي تتعدى درجة ضغط الغلاف الجوي عند مستوى المحيط. في الحقيقة، لم يكن البارومتر العادي ليكفي في رحلتنا، إذ إن الضغط الجوي من المتوقع أن يزيد طرديًّا مع نزولنا تحت مستوى سطح الأرض.

ثالثًا: كرونوميتر (آلة قياس الوقت) بواسوناس، المضبوط بدقة تامة على خط الطول الذي تقع عليه مدينة هامبورج.

رابعًا: بوصلتان، بوصلة الإمالة (وهي المستخدمة لقياس الزاوية بين الأفق والحقل المغناطيسي للأرض)، وبوصلة الانحراف (وهي الآلة الميكانيكية المستخدمة لقياس الانحراف المغناطيسي في نقطة ما).

خامسًا: نظارة رؤية ليلية.

سادسًا: جهازا روهمكورف (6). وهي أجهزة توفر إضاءة متنقلة قوية، مضمونة وغير مربكة.

(6) جهاز روهمكورف: هو جهاز مكون من بطارية بونزن، يتم تشغيلها ببيكرومات البوتاس عديمة الرائحة. ملف الإشعال يوصل الكهرباء التي تولدها البطارية إلى مصباح بمواصفات خاصة، يوجد بداخله ملف زجاجي مفرغ لا يوجد بداخله سوى بقايا ثاني أكسيد الكربون أو المازوت. عند تشغيل الجهاز يصبح هذا الغاز مضيئًا، ويصدر نورًا أبيض ومستمرًّا. البطارية وبكرة الإشعال موضوعتان في حقيبة جلدية يحملها المسافر على كتفه، بينما يتدلى المصباح خارج الحقيبة حتى يوفر إضاءة قوية وكافية جدًّا لإنارة الظلمة العميقة الكثيفة، ويسمح للمسافر في الوقت نفسه بالتجول والمغامرة من دون خشية انفجار وسط غازات سريعة الاشتعال، ولا ينطفئ نوره حتى في أعماق المياه. السيد روهمكورف عالم وفيزيائي متميز وقدير، واكتشافه العظيم هو ملف الإشعال الذي يتيح إنتاج كهرباء الضغط العالي. وقد حصل عام 1864 على الجائزة الخماسية، وقيمتها 50000 فرنك، التي منحتها فرنسا لأكثر تطبيقات الكهرباء عبقرية وابتكارًا.

وكانت الأسلحة عبارة عن بندقيتين بوردلي مور وكو، ومسدسين كولت. لماذا الأسلحة؟ لم نكن نخشى وحوشًا ولا حيوانات مفترسة على ما أظن. ولكن عمي كان متمسكًا بترسانته من الأسلحة بمثل تمسكه بأدواته العلمية، وتحديدًا بكمية كبيرة من البارود الذي لا يتأثر بالرطوبة، والذي تغطي قوته التدميرية رقعة أكبر كثيرًا جدًّا من البارود العادي.

أما الآلات فقد تضمنت فأسين ومعولين وسلمًا وثلاث عصي حديدية ومطرقة ومجموعة من المسامير المعقوفة وأحبالًا طويلة ذات عقد. ولم يكن كل هذا حملًا سهلًا، إذ إن السلم بلغ طوله ثلاثمائة قدم.

وأخيرًا كان هناك صندوق المؤن، وهو وإن لم يكن حجمه كبيرًا إلا أنه كان يدعو للاطمئنان. فقد علمت أنه يحتوي على كمية من اللحوم المقددة والبسكويت الجاف، تكفي لمدة ستة أشهر. وكان شراب العرق هو السائل الوحيد في هذا الصندوق الذي لم يكن يحتوي على ماء مطلقًا. ولكننا كنا نحمل معنا قرعات ماء كان عمي يعتمد في ملئها على المصادر الطبيعية. أما اعتراضاتي التي أبديتها على نوعية هذه المياه ودرجة حرارتها أو حتى عدم وجودها، فقد ذهبت كلها أدراج الرياح.

ولكي أكمل القائمة الصحيحة لكل ما أعددناه لرحلتنا، يجب أن أذكر الصيدلية المحمولة التي تحتوي على مقصات حادة وجبائر للكسور وقطعة من شريط مصنوع من خيط يميل لونه إلى الأبيض، وضمادات وكمادات وشرائط لاصقة ومنصة نقالة للنزيف، وكلها أشياء مفزعة، بالإضافة إلى مجموعة من القوارير تحتوي على محلول الدكسترين والكحول وخلات الرصاص السائل والإثير والخل والأمونيا، وكلها أدوية استخداماتها لا تدعو للاطمئنان على الإطلاق. وأضيف إليها المواد اللازمة لأجهزة روهمكورف.

ولم ينسَ عمي أن يأخذ معه مخزونًا كافيًا من التبغ ومن مسحوق الصيد والصوفان، وأيضًا لم ينسَ حزامًا جلديًّا لفه حول وسطه كان يخفي فيه كمية كافية من العملات الذهبية والفضية والورقية. وأضاف إلى ذلك ستة أزواج من الأحذية جيدة الصنع كان قد غطاها بطبقة من القطران والصمغ المرن كي لا ينفذ إليها الماء.

وعندما انتهى من حزم الأمتعة قال لي:

- والآن وقد ارتدينا ما يلزم من الثياب والأحذية وجهزنا أدواتنا، لا يوجد سبب يمنعنا من المضي قدمًا.

وأمضينا نهار يوم 14 بالكامل في ترتيب هذه الأشياء المختلفة. وفي المساء تناولنا العشاء على مائدة البارون ترامب بصحبة عمدة ريكيافيك والدكتور هفالتالين، طبيب البلاد الشهير. لم يكن السيد فريدريكسن من ضمن المدعوين. وعلمت فيما بعد أنه والحاكم على خلاف بخصوص مسألة تتعلق بالإدارة ولم يكونا يلتقيان. وبالتالي فلم تُتَح لي الفرصة كي أفهم كلمة واحدة مما قيل في أثناء هذا العشاء شبه الرسمي، ولكني لاحظت أن عمي لم يتوقف عن الحديث.

في اليوم التالي كانت الاستعدادات قد اكتملت. أما مضيفنا فقد أسعد عمي سعادة كبيرة بأن أهدى إليه خريطة رائعة لأيسلندا أفضل كثيرًا من خريطة هاندرسون. هذه الخريطة أعدها السيد أولاف نيكولاس أندرسون، بمقياس 1/480000، ونشرتها الجمعية الأدبية الأيسلندية طبقًا للأعمال الجيوديسية للسيد سشيل فريزاك، والمسح الطبوغرافي للسيد بيورن جوملاوجسون. كانت هذه الخريطة وثيقة ثمينة لأي جيولوجي.

أما الأمسية الأخيرة فقد أمضيناها في ثرثرة حميمة مع السيد فريدريكسن الذي وجدت أني أشعر تجاهه بتعاطف شديد. وتلا هذه الثرثرة نوم متقطع، بالنسبة لي أنا على الأقل.

وفي الخامسة صباحًا، أيقظني صهيل أربعة جياد كانت تتشاجر تحت نافذتي. ارتديت ملابسي سريعًا ونزلت إلى الشارع. وهناك رأيت هانز وهو يستكمل تحميل أمتعتنا من دون أن يتحرك تقريبًا ومع

ذلك كان يعمل بمهارة نادرة. أما عمي فقد كان الضجيج الذي يحدثه أكثر مما ينجزه من عمل، بينما لم يكن دليلنا في هذه الرحلة مهتمًّا على الإطلاق بأوامره وتعليماته.

أنهينا الاستعدادات كلها في تمام السادسة، وصافحنا السيد فريدريكسن بحرارة وشكره عمي باللغة الأيسلندية على كرم ضيافته. أما أنا فقد استدعيت ما أعلم من اللغة اللاتينية لأوجه له تحية مستحقة. وامتطينا جيادنا وصاح السيد فريدريكسن مودعًا بتحية أخيرة، كانت هي هذا البيت من الشعر لفيرجيل والذي يبدو وكأنه كتبه خصيصًا لنا، نحن المسافرون غير الواثقين من طريق رحلتنا:

«أيًّا كان الطريق الذي يقودنا القدر إليه، فسوف نتبعه».

Et quacumque viam dederit fortuna sequamur.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

بدأنا رحلتنا في طقس ضبابي ولكنه مستقر، فلم نخشَ حرارة مرهقة ولا أمطارًا كارثية. كان طقسًا يصلح لسائحين. وجعلتني متعة الركض بجواد عبر بلد مجهول أكثر انفتاحًا وتفاؤلًا في بداية مهمتنا، وملأني تمامًا إحساس الرحالة بالسعادة التي تنبع من الرغبة في الاستكشاف والحرية المطلقة. وكانت هذه نقطة البداية لمشاركتي الحقيقية في هذه المهمة.

وقلت لنفسي: «ما الذي أخشاه؟ السفر والترحال في بلد هو الأكثر إثارة للفضول؟ أم تسلق جبل شاهق الارتفاع؟ أو على أسوأ الفروض، الهبوط إلى قاع بركان خامد؟ من الواضح أن هذا الساكنوسسيمم لم يفعل ما هو أكثر من ذلك. أما عن فرضية وجود ممر يقود إلى باطن الأرض فهذا محض خيال، محض استحالة. إذَنْ ليس عليَّ سوى أن آخذ من هذه الحملة كل ما هو جيد بلا جدال أو مقايضة». وما إن انتهيت من حديثي الداخلي هذا إلا وكنا قد غادرنا ريكيافيك.

كان هانز يسير في المقدمة بخطوات سريعة متساوية متصلة، يتبعه الجوادان اللذان حملا أمتعتنا من دون حاجة لقيادة، وتبعناهم عمي وأنا على ظهر جوادينا الشديدين.

أيسلندا هي إحدى الجزر الكبيرة في أوروبا التي تبلغ مساحتها ألف وأربعمائة ميل، ولا يسكنها سوى ستين ألفًا من البشر. وقد قسمها علماء الجغرافية إلى أقسام أربعة، وكان علينا أن نمر عبر أحد هذه الأقسام، هذا الذي يطلق عليه اسم «بلد الربع الجنوب-شرقي» في مسار شبه ملتوٍ.

كان هانز يتبع طريقًا محاذيًا للبحر منذ أن تركنا ريكيافيك. كنا نمر عبر مراعٍ فقيرة، يخيل للمرء أنها تصارع لتبدو خضراء، ولكن اللون الأصفر فيها هو الغالب. وفي الأفق تلاشت القمم الخشنة للكتل الجبلية الصماء. وبين الحين والآخر كنا نلمح قطعًا من الجليد ينعكس عليها ضوء النهار فتبدو براقة ساطعة فوق المنحدرات البعيدة، بينما القمم الأخرى يبدو بعضها منتصبًا في شجاعة وكأنها تخترق السحب الرمادية وتلوح وكأنها شعاب مرجانية تبزغ وسط السماء فوق الكتل المتحركة.

وغالبًا ما كانت هذه السلاسل من الصخور القاحلة تبدو وكأنها طرف مدبب يتجه ناحية البحر، بينما القاعدة تزحف لتغطي المراعي الفقيرة، وبين هذا وذاك بقيت مساحة صغيرة سمحت لنا بالسير. وكانت جيادنا في الحقيقة تتخير دائمًا بالغريزة المكان المناسب لمرورها من دون أن تبطئ الخطى، وافتقد عمي حاجته إلى إثارة جواده عن طريق الصوت أو السوط، فلم تكن هناك حاجة به لأيهما ولم تُتِح له الظروف سببًا يجعله يفقد الصبر كما هو معتاد أن يفعل. ولم أتمالك نفسي من الابتسام وأنا أراه منتصبًا بقامته الكبيرة فوق صهوة جواده ضئيل الحجم، إذ كان وساقاه الطويلتان تكادان تلمسان الأرض، يشبه قنطورًا ذا ستة أقدام. وكان طوال الوقت يردد:

- جواد طيب، جواد طيب. سترى يا آكسل أنه لا يوجد حيوان أكثر ذكاءً من الجواد الأيسلندي الذي لا الجليد يوقفه ولا الصخور ولا العاصفة ولا تعوقه الطرق غير المعبدة عن السير قدمًا. جواد شجاع ورصين وواثق الخطى لا يتعثر أبدًا ولا ينفعل. لو صادفه نهر أو خليج عليه أن يعبره. ستراه يتقدم ومن دون تردد يخوض عبر الماء وكأنه حيوان برمائي ليصل إلى الضفة الأخرى بنجاح. وما علينا

سوى ألا نفزعه وأن نتركه يتصرف وبالتأكيد سننجح معًا، أحدنا ممتطي الآخر، في قطع مسافة العشرة فراسخ يوميًّا كما قدرنا.

- سنفعل ذلك بكل تأكيد. ولكن ماذا عن الدليل؟

- أوه، لا يقلقني أمره البتة. هؤلاء الناس يمشون من دون أن يشعروا، ودليلنا هذا يتحرك بالكاد ولن يرهقه المسير. وعمومًا لو استدعى الأمر سأتنازل له عن جوادي، إذ إن عضلات ساقي سوف تنقبض وتؤلمني بكل تأكيد لو لم أتحرك قليلًا، ذراعي بخير ولكن يجب أن أفكر في ساقي.

ومع ذلك كنا نتقدم سريعًا. البلد كان شبه صحراوي. تلمح هنا وهناك مزرعة وحيدة، أو منزلًا تقليديًّا لفلاح أيسلندي، أو قطعًا من الحمم البركانية التي تبدو وكأنها شحاذ على قارعة طريق عميق الانحدار. هذه الأكواخ المتهدمة بدت وكأنها تتسول المساعدة من المارة، ولو استطعنا لطرقنا الباب وتصدقنا لأصحابها. في هذه البلاد كانت الشوارع وممرات السير نادرة الوجود تمامًا وكانت الزراعات، على بطء نموها، قد امتدت وزحفت بسرعة لتمحو آثار خطى المسافرين على قلتهم. ومع ذلك فقد كان هذا الجزء من المقاطعة، والذي يقع على بعد خطوات من العاصمة، يعد من أكثر المناطق المزروعة والمأهولة بالسكان في أيسلندا.

كيف كان الحال إذَنْ في البلدات الأكثر تصحرًا من هذه الصحراء؟ بعد مسيرة أكثر من نصف ميل، لم نكن قد صادفنا مزارعًا واحدًا يقف على باب كوخه، أو راعيًا بدائيًّا يرعى قطيعًا أقل بدائية وتوحشًا. لم نصادف سوى بضع بقرات وخراف مهملة تهيم بلا راعٍ. ما هو الحال إذَنْ في المناطق المزلزلة والمضطربة بفعل ظاهرة البراكين، تلك المناطق التي نشأت بفعل الانفجارات البركانية والارتجاجات والزلازل التي حدثت تحت سطح الأرض؟

كان مقدرًا لنا أن نتعرف على هذه المناطق في مرحلة تالية. ولكن عندما بحثت في خريطة أولسن رأيت أننا نتفادى هذه المناطق بالسير بمحاذاة الشاطئ بطول حافته المتعرجة.

في الواقع كانت الحركة الجوفية الضخمة تتركز في الأساس في المناطق الداخلية من الجزيرة، هناك حيث الطبقات الأفقية من الصخور المتراكبة، والتي تسمى «ترابس» باللغة الإسكندنافية (تعني ذلك الشكل الذي يشبه سلمًا مكونًا من كتل صخرية عملاقة، تغير شكل حافتها بفعل التآكل بعد أن تكونت من تراكم حمم بركانية سائلة جدًّا ورقيقة جدًّا)، وسلاسل الصخور الرغامية (وهي صخور بركانية من النورع البورفيريقي، تتكون كيميائيًّا ومعدنيًّا من خام السيانيت الذي يتميز بثراء ملمسه وبغلبة الفلسبار القلوي والغياب شبه الكامل لخام الكوارتز أو النيفلين)، والانصهارات البازلتية والطف البركاني (ويسمى أيضًا السيكوريا، وهو صخر مكون من المخلفات السيليكانية)، وكل الكتل البركانية والحمم المنسكبة والبورفيرات المنصهرة، كل هذا قد شكَّل بلدًا ذا طابع مرعب وخارق للطبيعة.

لم يكن لديَّ أدنى شك بعد ذلك حول المشهد الذي ينتظرنا في شبه جزيرة السنيفيليس، حيث الأضرار التي خلَّفتها طبيعة في عنفوانها تُشكِّل لوحةً من الفوضى العارمة.

وصلنا إلى بلدة جوفون، والتي يطلق عليها «آولكيركه» أو «الكنيسة الرئيسة»، بعد ساعتين من مغادرتنا ريكيافيك. لم يكن بالبلدة شيء مميز، فقط بضعة منازل متفرقة تُشكل بالكاد قرية صغيرة

بالمفهوم الألماني للكلمة.

توقف بنا هانز في هذا المكان مدة نصف الساعة، ووزع علينا غداءً بسيطًا ولم يرد إلا بنعم أو لا على أسئلة عمي حول طبيعة الطريق، وأجاب قائلًا حينما سألناه عن الموضع الذي قرر أن نبيت فيه ليلتنا:

- جاردور.

ولم يُضِف كلمة أخرى.

وبحثت في الخريطة لكي أعرف ما هي «جاردور». ووجدت قرية بهذا الاسم على ضفاف خليج هفالفيورد، على بُعد أربعة أميال من ريكيافيك. وأشرت إلى عمي قائلًا:

- أربعة أميال فقط! ها نحن بصدد نزهة جميلة!

أراد عمي أن يوجه ملحوظة ما للدليل الذي استدار من دون أن يجيبه ناحية الجياد واستأنف السير.

وبعد ثلاث ساعات من السير عبر المراعي الفقيرة، كان علينا أن نلتف حول خليج كوللافيورد، وهو التفاف أقصر وأسهل من عبور هذا الخليج. وسرعان ما وصلنا إلى «بينجستاور» وهو مقر للبلدية يطلق عليه اسم «ايولبيرج»، والذي كان يمكن لناقوسه أن يدق معلنًا منتصف النهار لو كانت الكنائس الأيسلندية ثرية بدرجة سمح بوجود ساعة تشير إلى الوقت، ولكنها كانت مثل روادها الذين لا يملكون ساعات ولا يحتاجون إليها في الأساس.

خلدت الجياد إلى الراحة في هذا الموضع ثم حملتنا عبر شاطئ ضيق محصور بين البحر وبين سلسلة من التلال، حتى وصلنا دفعة واحدة إلى «آولكيركه» أو «الكنيسة الرئيسة» لبلدة برانتور، وبعد ميل آخر إلى «ساوربور آنيسكيا» أو «الكنيسة الملحقة» الواقعة على الضفة الجنوبية لخليج هفالفيورد.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة عصرًا ولم نكن قد قطعنا سوى أربعة أميال. كان عرض الخليج في هذا الموضع نحو نصف الميل تقريبًا، وكانت أمواجه الصاخبة تحدث ضوضاء وهي تضرب الصخور المدببة. كان هذا الخليج ينساب متسعًا بين جدران من الصخور التي تُشكل جرفًا عاليًا ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم، يتميز بطبقات بنية اللون تفرق بينها طبقات من الطف البركاني يميل لونها إلى الحمرة.

وأيًّا ما كان مبلغ ذكاء جيادنا إلا أنني لم أكن متفائلًا بعبور بحر حقيقي على صهوة جواد.

وقلت لنفسي: «لو كانت هذه الحيوانات ذكية فعلًا فلن تحاول العبور. وعلى كل حال فلأتولَّ أنا مهمة التفكير الذكي بدلًا منها».

ولكن عمي لم يكن يريد الانتظار، واندفع بجواده في اتجاه الشاطئ ولامس جواده الأمواج وهي تتكسر على الرمال ثم توقف. ولكن عمي الذي كان يتبع حدسه هو فقط دفعه ليتقدم، ورفض الحيوان مجددًا وأخذ يهز رأسه مشددًا على الرفض. وتبع ذلك بالطبع ضربات سوط ولعنات ولكن الجواد اندفع يركل الأرض بحوافره محاولًا إسقاط فارسه. وأخيرًا تمكن الجواد الصغير، وهو يثني ركبتيه،

من البروفيسور وتركه يسقط منزرعًا على صخرتين من صخور الشاطئ، كمثل تمثال رودس العملاق.

وصرخ الفارس الذي أصبح فجأة مترجلًا خزيانًا وكأنه ضابط في سلاح الفرسان عوقب فنُقل إلى سلاح المشاة، قائلًا: «هذا الحيوان الملعون!».

قال الدليل لعمي وهو يلمس كتفه:

- العبارة!

- ماذا؟ أهناك سفينة؟

- نعم، هناك.

أجابه هانز وهو يشير إلى سفينة.

- نعم، نعم.

قلت وأنا أشير إلى حيث أشار هانز.

- هناك سفينة.

- كان يجب أن تقول ذلك منذ البداية. حسن، فلنستأنف السير.

ورد هانز قائلًا بلغته الدنماركية:

- Tidvatten.

- ماذا يقول؟

- يقول المد.

أجابني عمي وهو يترجم الكلمة الدنماركية.

- بلا شك، هل يجب أن ننتظر المد؟

- ممنوع؟

سأله عمي

وأجاب هانز:

- نعم.

ودق عمي الأرض بقدمه في عصبية بينما اتجهت الجياد ناحية السفينة.

وتفهمت أنا تمامًا أهمية انتظار لحظة معينة من المد لعبور الخليج، هذه اللحظة التي يكون البحر فيها ساكنًا، وقد وصل إلى أعلى ارتفاع له. في هذه اللحظة لا يكون لتدفق الماء وارتداده أي أثر ملموس،

وبالتالي لا يكون هناك خطر من أن تستدرج السفينة إلى قاع الخليج أو إلى عرض المحيط.

ولم تسنح اللحظة المواتية سوى الساعة السادسة مساء، وكنت أنا وعمي والدليل والجياد الأربعة وشخصين آخرين قد اتخذنا أماكننا على متن قارب مسطح وهش للغاية. أنا الذي كنت معتادًا على السفن البخارية التي تعبر نهر الألب، صدمتني رؤية مجاديف ملاحي السفينة التي لم أرَ فيها سوى آلة ميكانيكية حزينة. واستغرق الأمر ساعة كاملة لنعبر الخليج، ولكن في النهاية تم الأمر في سلام ومن دون حادثة تُذكَر. وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى الآولكيركه، أو الكنيسة الرئيسة في بلدة جاردور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

كان من المفترض أن يكون الوقت ليلًا ولكن بما أننا كنا تحت خط التوازي الخامس والستين، فلم تدهشني رؤية الأضواء الليلية التي تميز المناطق القطبية، إذ إنه في أيسلندا لا تغيب الشمس أبدًا طوال شهري يونيو ويوليو.

ومع ذلك كانت درجة الحرارة منخفضة. كنت أشعر بالبرد والجوع أيضًا. ولذا فمرحبًا بالكوخ الذي فتح أبوابه لاستقبالنا بحسن ضيافةٍ محمود.

كان منزل فلاح بسيط ولكن حسن الضيافة جعله أفضل من قصر كبير. عندما وصلنا استقبلنا صاحب المنزل ومن دون تكلف أو كلام كثير أشار لنا بيده أن نتبعه.

نتبعه هي الكلمة الصحيحة هنا، إذ إنه كان من المستحيل عمليًّا أن نسير معه، أي بجانبه. كان الممر الطويل، الضيق والمعتم في هذا المنزل المبني من عوارض خشبية شبه مربعة، يسمح بالكاد بالوصول إلى كل غرفة من الغرف التي كان عددها أربعًا: المطبخ، ورشة النسيج، وحجرة نوم العائلة، ثم أفضل الغرف جميعًا وهي حجرة الضيوف. وكانت قامة عمي المديدة مشكلة لم يأخذها في الاعتبار من قاموا ببناء هذا المنزل، إذ إن رأسه ارتطم ثلاث أو أربع مرات بالنتوءات التي في سقف المنزل.

قادنا صاحب المنزل إلى غرفتنا، وهي عبارة عن صالة كبيرة أرضيتها ترابية وإضاءتها تأتي من خلال نافذة حلت جلود الخراف غير الشفافة فيها محل الزجاج. وكان الفراش عبارة عن علف جاف ملقى داخل إطارين من الخشب مدهونين باللون الأحمر ومزينين بجمل أيسلندية. لم أتوقع أن يكون فراشي مريحًا بالطبع. وكانت رائحة قوية تنتشر في هذا المنزل هي رائحة السمك المجفف واللحم المقدد واللبن الحامض، وهي روائح لم يستسيغها أنفي. وعندما ألقينا أمتعتنا في جانب الغرفة سمعنا صوت مضيفنا يدعونا إلى المطبخ، وهي الحجرة الوحيدة التي توقد فيها النار حتى في أشد الأوقات برودة.

ولبى عمي هذه الدعوة الكريمة سريعًا وتبعته. كان الموقد في المطبخ من طراز عتيق: عبارة عن حجر في منتصف الحجرة هو الموقد، وفي السقف فتحة صغيرة يخرج منها الدخان. وكان هذا المطبخ يستخدم أيضًا كحجرة للطعام.

عند دخولنا حيانا مضيفنا وكأنه لم يرانا من قبل، قائلًا: «saellvertu»، التي تعني «فلتكونوا سعداء»، وأتى ليضع قبلة على وجنتينا.

وبعده حضرت زوجته ورددت الكلمة نفسها، وتبعتها بالطقس نفسه الذي قام به زوجها. ثم انحنى الزوجان انحناءة عميقة وهما يضعان اليد اليمنى على قلبيهما.

ويجب أن أخبركم أن السيدة الأيسلندية كانت أمًّا لتسعة عشر طفلًا، كانوا جميعهم كبارًا وصغارًا يروحون ويجيئون وسط دخان الموقد الذي كان يملأ الحجرة. وكنت ما بين لحظة وأخرى أرى

طرف رأس شقراء وحزينة نوعًا ما تخرج وسط هذا الضباب. كنت تظنهم شريطا جميلًا من الملائكة أتوا من دون أن يغسلوا وجوههم.

وقام عمي وأنا أيضًا بالترحيب الحار بهذا القطيع الصغير، وسريعًا ما كان ثلاثة أو أربعة من الصغار قد تسلقوا أكتافنا، وغيرهم يجلسون فوق رُكبنا، والباقون يلهون بين أرجلنا. من كان منهم يستطيع الكلام كان يردد كلمة الترحيب التي حيانا بها والداهم بكل طبقات الصوت التي يمكن تخيلها، والآخرون الذين لم يتكلموا بعد كانوا يرددونها صراخًا.

لم يقطع هذا الحفل الموسيقي سوى إعلان الدعوة إلى المائدة. في هذه اللحظة دخل الصياد الذي كان يسهر على توفير الطعام للجياد الأربعة، وهذا يعني أنه أطلق لها العنان لتنطلق في الحقول بحثًا عن طعامها. الجياد المسكينة كان عليها أن تكتفي بالتهام الطحالب النادرة إن وجدتها فوق الصخور، نباتات لا تسمن ولا تغني من جوع، وفي الغد سوف تأتي من تلقاء نفسها لتستأنف عمل الأمس.

«Saellvertu» قالها هانز بهدوء عندما دلف إلى الداخل ثم بهدوء أكثر، وبصورة تلقائية، قام بطبع قبلة على وجنة كل من المضيف وزوجته وكل طفل من أطفالهم التسعة عشر من دون زيادة أو نقصان.

وعندما تمت الطقوس جلسنا إلى المائدة. كان عددنا أربعًا وعشرين، وبالتالي جلس البعض منا فوق الآخر، بالمعنى الحرفي للكلمة. ومن كان حظه أفضل من الآخر حمل على ركبتيه اثنين فقط من الصغار.

ومع ذلك ساد الصمت التام بين الجمع الكبير عندما وضع الحساء على المائدة، واستعاد الصمت المعتاد للأيسلنديين سلطانه على الجميع، حتى الأطفال الصغار.

قدم لنا مضيفنا حساءً من الفطر البحري لم يكن سيئًا قَطُّ، ثم تبعته قطعة هائلة من السمك المجفف تعوم فوق سطح زبد تعتق على مدى عشرين عامًا، وبالتالي فهو أفضل كثيرًا من الزبد الطازج طبقًا للمعتقدات الأيسلندية عن جودة الطعام. وكان على المائدة أيضًا نوع من اللبن الرائب يطلقون عليه الـ«skyr» يقدم معه بسكويت معجون بعصير التوت. وأخيرًا، كان شرابنا نوعًا آخر من اللبن الممزوج بالماء يسمونه «Blanda»، ولو سألت عن الطعام إن كان جيدا أم لا، فلن أستطيع أن أحكم إذ كنت أتضور جوعًا، وعندما أتى دور الحلوى التهمت إلى القضمة الأخيرة عصيدة سميكة من الحنطة السوداء.

وعندما انتهى العشاء اختفى الأطفال والتف الكبار حول الموقد حيث كان يحترق الخث، وهو مادة عضوية أحفورية تتكون من تراكم المواد العضوية على مدى فترات طويلة، خاصة من النباتات الميتة في بيئة مشبعة بالماء، ونبات الخلنج الجاف وروث البقر وعظام الأسماك المجففة.

ثم بعد هذه «الجرعة من التدفئة» تفرق الجمع واتجهت كل مجموعة إلى غرفتها.

ثم عرضت علينا مضيفتنا أن تقوم تبعًا للعادة المتبعة بخلع بناطيلنا وجواربنا، ولكنها لم تلح عندما رفضنا عرضها الكريم بكل أدب وأريحية. وهكذا استطعت أخيرًا أن أنكمش تحت الغطاء في فراشي المصنوع من صوف الخراف والعلف.

وفي تمام الخامسة صباح اليوم التالي كنا نودع المزارع الأيسلندي الذي استضافنا. ووجد عمي عناءً كبيرًا في إقناعه بقبول مبلغ بسيط تعبيرًا عن شكرنا وامتناننا لحسن الضيافة. ثم أعطى هانز إشارة التحرك.

وبعد نحو مائة خطوة من جاردور، بدأ المنظر من حولنا يتغير، وأصبح عبارة عن مستنقعات يصعب السير فيها. من جهة اليمين امتدت سلاسل من الجبال إلى مدى البصر كمثل حصون دفاعية من صنع الطبيعة، وسرنا نحن بمحاذاة المنحدر الخارجي لها: وكثيرًا ما اعترضتنا جداول كان لزامًا علينا أن نعبرها سيرًا على الأقدام محاولين ألا تبتل أمتعتنا كثيرًا.

ثم امتدت الصحراء عمقًا أكثر فأكثر، ومع ذلك كنا نلمح بين الحين والآخر طيف إنسان في البعد يجري هاربًا. وفي الأحيان التي جعلتنا التفافات الطريق نقترب صدفة من أحد هذه الأطياف أصابني نفور مفاجئ لرؤية رأس منتفخ، لامع الجلد، لا شعر فيه، وجروح متقيحة ندت عنها الثياب المهترئة. لم يكن هذا الكائن البائس يقترب منا ولا يمد يده المشوهة، ولكنه على النقيض كان يجري هاربًا، وإن كانت سرعة هروبه لا تكفي لاختفائه قبل أن يعاجله هانز بالتحية المعتادة قائلًا له:

- Saellvertu.

فيجيبه الكائن قائلًا:

- Spetelsk.

ورد عمي على الفور شارحًا معنى الكلمة:

- إنه مريض جذام.

وأتت هذه الكلمة الواحدة أثرها المطلوب. كان هذا المرض اللعين، الجذام، منتشرًا في أيسلندا. وهو ليس مرضًا معديًا ولكنه وراثي، وبالتالي فهذه الكائنات المسكينة كان محرمًا عليها الزواج.

ولم تكن هذه الظهورات المتكررة لتزيد بهجة الطريق الذي ازدادت وحشته وكآبته، إذ كانت النبتات الأخيرة تموت وتذوي تحت أقدامنا. لا ظل لشجرة هناك بل بضعة عناقيد من أشجار البتولا المقزمة التي تشبه الفرشاة. ولا ظل لحيوان سوى بضعة خيول لا يملك صاحبها لها طعامًا فتهيم على وجهها في السهول الموحشة. ربما لاح صقر يحوم وسط الغيوم الرمادية ثم يهرب فاردًا جناحيه صوب المناطق الجنوبية. استسلمت تمامًا للشجن وسط هذه الطبيعة الموحشة، وقادتني ذكرياتي إلى بلدي ومسقط رأسي.

ثم كان علينا أن نعبر خلجانًا صغيرة كثيرة لا أهمية لها، ثم أخيرًا خليج حقيقي كبير، وسمح لنا المد في لحظة سكونه أن نمر من دون انتظار وصولًا إلى قرية الفتانيس الواقعة على ارتفاع ميل واحد.

وفي المساء كنا قد عبرنا سيرًا على الأقدام نهرين يعجان بأسماك السلمون المرقط، وأسماك البايك الشمالي بنوعَيه الألفا والهيتا، وهي نوع من الأسماك المفترسة تعيش في المياه العذبة في نصف الكرة الشمالي.

واضطررنا للمبيت في كوخ مهجور حري بأن يحوم حوله الجان الذي تذخر به الأساطير الإسكندنافية. والأمر المحقق هو أن البرد هو الآخر قد اختاره مأوى له وأمضى فيه الليل بطوله معنا.

وفي صباح اليوم التالي لم يحدث أي شيء يذكر. المستنقعات هي هي لا تزال، والأفق الباهت والطبيعة الحزينة. وعندما أتى الليل كنا قد قطعنا نصف المسافة وأمضينا ليلتنا في l'annexia أو الكنيسة الموازية في بلدة كروسولبت.

وفي التاسع عشر من يونيو، وعلى امتداد مسافة ميل تقريبًا سرنا فوق حقل من الحمم، وهذا النوع من التربة يطلق عليه في هذه البلاد «hraun».

كانت الحمم ذات السطح المجعد تمتد على شكل كابلات طويلة حينًا، وحينًا آخر بدت وكأنها ملفوفة حول نفسها، وكانت تدفقات هائلة تُسقط من قمم الجبال المجاورة حممًا من براكين خامدة الآن، ولكن بقاياها تبقى شاهدة على عنفوان سابق. وبالرغم من ذلك بقي أيضًا بعض من دخان يتصاعد هنا وهناك من مصدر كان لا يزال ساخنًا.

لم نكن نملك وقتًا كافيًا لنتأمل هذه الظواهر، وكان يجب علينا أن نستمر في المسير. وسرعان ما ظهرت المستنقعات مرة أخرى تحت سنابك جيادنا تقطعها بحيرات صغيرة بين الحين والآخر. كان اتجاهنا نحو الغرب وكنا بالفعل قد أتممنا التفافنا حول خليج فاكسا الكبير، وكانت قمة السنيفيليس البيضاء المزدوجة تلوح منتصبة حتى تكاد تلمس السحاب على بُعد أقل من خمسة أميال.

كانت الجياد تسير جيدًا ولم تكن صعوبة التربة توقفها. أما عن نفسي فكنت قد بدأت أشعر بالإرهاق الشديد، بينما بقي عمي ثابتًا ومستقيمًا مثلما كان في اليوم الأول من رحلتنا. ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الإعجاب به بقدر إعجابي نفسه بالصياد الذي كانت هذه الرحلة الشاقة بالنسبة له مجرد نزهة طريفة.

وفي يوم السبت العشرين من يونيو، في السادسة مساء، وصلنا إلى بودير، وهي قرية صغيرة تقع على شاطئ البحر. وهنا طالب الدليل بأجره المتفق عليه. وكانت عائلة هانز، أي أعمامه وأبناء عمومته، هم من قاموا باستضافتنا. واستقبلونا استقبالًا جيدًا. ومن دون استغلال للطف هؤلاء الناس الطيبين كنت سعيدًا بأن أستريح قليلًا عندهم من تعب السفر، ولكن عمي الذي لم يكن يشعر بالتعب، لم ينظر إلى الأمر على هذا النحو. وفي الصباح مباشرة كان علينا أن نمتطي جيادنا من جديد.

كانت التربة في هذه المنطقة تشي بقربنا من الجبال التي كانت قواعدها الجرانيتية تبرز فوق سطح الأرض مثل جذع شجرة بلوط عجوز. وسرنا حول قاعدة البركان الهائلة. ولم يحد البروفيسور ببصره عنه، وطفق يردد وكأنه يكلم البركان ويتحداه:

- ها هو إذَنْ العملاق الذي سوف أخضعه وأسيطر عليه.

وأخيرًا وبعد مسيرة أربع وعشرين ساعة توقفت الجياد من تلقاء نفسها عند باب كنيسة ستابي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

كانت ستابي قرية صغيرة تتكون من نحو ثلاثين كوخًا، مبنية وسط الحمم البركانية تمامًا تحت أشعة الشمس التي يعكسها البركان. وكانت تمتد في القلب من خليج صغير محاطة بجدار غريب الشكل.

نعرف بالطبع أن البازلت هو صخرة بنية اللون من أصل ناري، تأخذ أشكالًا منتظمة بشكل يثير الدهشة. كانت الطبيعة هنا تنتظم بصورة هندسية، وتعمل بطريقة البشر نفسها، وكأنها تملك برجلًا ومقياسًا للزاوية وخيطًا صلبًا. وإن كانت في غير هذا الموضع تصنع تشكيلات فنية عن طريق الكتل الضخمة الملقاة من دون ترتيب أو نظام، والمخاريط المرسومة بالكاد، والأهرامات غير الكاملة بخطوطها المتتابعة بغرابة، إلا أنها هنا كانت وكأنها تريد أن ترينا مثالًا للانتظام تسبق فيه معماريو العصور الأولى، بأن خلقت نظامًا صارمًا تَفوَّق على روائع بابل وعجائب اليونان.

كنت قد سمعت بالطبع عن جسر العمالقة في أيرلندا وعن كهف فينغال في هيبريدس الداخلية، ولكني لم أرَ من قبل مشهد الطبقات البازلتية التأسيسية.

والآن في ستابي، تبدت لي هذه الظاهرة بكل بهائها.

كان جدار الخليج يتكون من سلسلة من الأعمدة الرأسية التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدمًا، كما كان الحال بطول ساحل شبه الجزيرة. وكانت هذه التشكيلات الأسطوانية المستقيمة، ذات النسب السليمة، تعمل كدعامات تحمل نصف قوس مصنوع من أعمدة أخرى أفقية، تمتد لتصنع نصف قبة فوق البحر. وبين الفينة والأخرى، كان بصري يقع على فتحات غائرة ذات تصاميم تثير الإعجاب، تمر من خلالها أمواج المحيط مندفعة يعلوها الزبد. وأحيانًا أخرى كنت أجد بعض شظايا من البازلت وقد تفتتت بفعل الموج الشديد، منثورة فوق الرمال كبقايا معبد قديم. أطلال تبقى إلى الأبد شابة، تمر عليها القرون متعاقبة من دون أن تنال منها. هكذا كانت المرحلة الأخيرة في رحلتنا الأرضية والتي قادنا فيها هانز بذكاء محمود. وكنت أطمئن نفسي قليلًا بأن أُذكرها بأنه سوف يبقى معنا إلى النهاية.

وعندما وصلنا إلى منزل الكاهن والذي كان عبارة عن كوخ بسيط ليس أكثر جمالًا ولا أكثر راحة من الأكواخ التي تحيط به، رأيت رجلًا يصنع حدوات للجياد، يحمل مطرقة في يده ويربط مئزرة جلدية حول وسطه. بادره الصياد قائلًا:

- Saelvertu.

وأجابه المارشال، صاحب الجواد قائلًا بلغة دنماركية سليمة:

- God dag.

أي صباح الخير.

واستدار هانز إلى عمي وخاطبه قائلًا:

- Kyrkoherde!

وردد عمي وراءه قائلًا:

- الكاهن! يبدو يا آكسل أن هذا الرجل الطيب هو الكاهن.

وفي هذه الأثناء كان دليلنا الصياد يحيط الـ«Kyrkoherde» علمًا بما نحن بصدده. وتوقف هذا الأخير عما كان يفعل وأطلق صيحة يبدو بلا شك أنها لغة التفاهم بين تجار الجياد وجيادهم، وسرعان ما خرجت من الكوخ امرأة ضخمة طولها ستة أقدام على أقل تقدير. ولشدة ما خشيت أن تقدم على تقبيل المسافرين تبعًا لعادات الأيسلنديين. ولكن هذا لم يحدث حتى إنها دعتنا إلى الدخول إلى منزلها بترحيب فاتر.

بدا لي أن الحجرة المخصصة للضيوف في بيت الكاهن هذا، هي أسوأ حجراته. كانت حجرة ضيقة، قذرة تسكنها الحشرات. ولم يبدُ على الكاهن أنه يمارس الطقس المعتاد في الترحيب بالغرباء، بل كان على النقيض من ذلك. وقبل نهاية اليوم كنت قد توصلت إلى استنتاج أن الشخص الذي نحن بصدده هو حداد وصياد سمك وصياد حيوانات ونجار، وليس على الإطلاق كاهنًا في كنيسة الرب. نحن وصلنا إلى منزله في وسط الأسبوع، هذه حقيقة، ولربما تغير الأمر يوم الأحد.

لا أريد أن أتقول بالسوء عن هؤلاء الكهنة المساكين الذين هم في الحقيقة بائسون للغاية، إذ كانوا يتلقون من الحكومة الدنماركية رواتب متدنية للغاية، ولا يأخذون من العشور الذي يقدمه المؤمنون في أبراشياتهم سوى ربعه، والذي لا يتعدى مبلغًا مقداره ستين ماركًا ألمانيًّا. ومن هنا، كان يجب على هؤلاء أن يعملوا لكي يحصلوا على ما يلزم لمعيشتهم. وعندما يعمل المرء في صيد الأسماك وصيد الحيوانات وحداء الجياد، ينتهي به الأمر أن يكتسب عادات الصيادين والحدادين وأسلوبهم الجاف في الحديث وفي التعامل مع الآخرين. وفي المساء اكتشفت أيضًا أن مضيفنا لا يعد الرصانة والاعتدال في شرب الخمر من ضمن فضائله. وفهم عمي سريعًا أي نوع من الرجال كان عليه أن يتعامل معه. فبدلًا من العالم الشجاع الوقور، وجد فلاحًا وقحًا. وقرر حينها أن يبدأ رحلته الاستكشافية في أقرب وقت ممكن، وأن يترك هذا البيت الذي لا مكان فيه لحسن الضيافة. لم يُقِم اعتبارًا للإرهاق الذي كان يشعر به وقرر أن يذهب لقضاء بضعة أيام في الجبل.

وبالتالي تمت استعدادات الرحيل في صباح اليوم التالي لوصولنا إلى ستابي. وأجَّر هانز ثلاثة أيسلنديين ليحلوا محل الجياد في حمل أمتعتنا، ولكن ما إن نصل إلى قاعدة البركان، يجب على هؤلاء الرجال المحليين أن يعودوا أدراجهم وأن يتركونا بمفردنا. كانت هذه نقطة واضحة تمامًا في الاتفاق. وبهذه المناسبة كشف عمي لدليله الصياد عن نيته في الوصول إلى النهاية في استكشاف البركان.

واكتفى هانز بأن أطرق برأسه. الذهاب إلى هنا أو هناك، النزول إلى باطن الأرض في جزيرته الصغيرة أو قطع مسافات على سطحها، لم يكن أمرًا ذا أهمية بالنسبة له. أما بالنسبة لي أنا، فقد كانت أحداث الرحلة قد شغلتني قليلًا وأنستني التفكير في المستقبل. ولكن الآن بدأت الأحاسيس المضطربة تسيطر عليَّ من جديد. لكن ما العمل؟ لو كنت قادرًا على مجرد إبداء المقاومة لخطط البروفيسور ليدنبروك، لوجب عليَّ أن أفعل ذلك ونحن ما زلنا في هامبورج وليس ونحن على أعتاب السنيفيليس. ولكن فكرة بعينها بدأت تزعجني كثيرًا، فكرة مخيفة، كفيلة بأن تثير رعب من هو أقوى أعصابًا مني. وقلت في نفسي: «لنرَ، نحن سوف نتسلق السنيفيليس. حسن. وسوف نزور فوهته. آخرون من قبلنا

فعلوا ذلك ولم يلقوا حتفهم. ولكن هذا ليس كل شيء. فلو وجدنا طريقًا يقودنا إلى باطن الأرض، لو كان ما قاله هذا التعس ساكنوسسيمم حقيقيًّا، فسوف نتوه ونضيع وسط الأنفاق الجوفية تحت تربة هذا البركان. بالإضافة إلى أنه ليس هناك ما يؤكد أن هذا السنيفيليس هو بركان خامد. ما الذي يضمن لنا أن ثورة من ثورات حممه ليست في طور الإعداد الآن؟ هل كون هذا الوحش نائمًا منذ عام 1229، يعني أنه لا يمكن أن يستيقظ؟ ولو أنه حدث واستيقظ من نومه الطويل، ما الذي سيحدث لنا؟».

هذا أمر يستدعي التفكير، وكنت لا أمل من التفكير فيه. لم يكن بوسعي أن أنام من دون أن أحلم بثورات بركانية. وكان من الصعب عليَّ جدًّا أن أمثل دور الخبيث غير المبالي ولا المهتم.

وفي النهاية لم أتمالك نفسي، وقررت أن أضع الأمر كله أمام عمي بأكبر قدر من المهارة، وفي صورة أن ما نحن بصدده هو مجرد نظرية غير قابلة للتحقيق على الإطلاق.

ذهبت أبحث عنه وأفصحت له عن مخاوفي، وتراجعت خطوات إلى الوراء لأفسح الطريق لانفجار رد فعله الغاضب. ولكنه أجابني ببساطة قائلًا:

- لقد فكرت في هذه الاحتمالات.

ماذا يعني هذا؟ هل سيستمع أخيرًا إلى صوت العقل؟ هل يفكر في تعليق خططه والعودة؟ هذا أمر يصعب تصديقه.

مرت لحظات من الصمت لم أجرؤ خلالها على إزعاجه بتساؤلاتي، استطرد البروفيسور بعدها قائلًا:

- لقد فكرت في ذلك. ومنذ أن وصلنا إلى ستابي لم أتوقف عن التفكير في المشكلة الجدية التي طرحتها أمامي الآن، إذ إنه لا يجب علينا أن نندفع إلى العمل من دون حذر.

- بالطبع لا.

أجبته قائلًا بكل قوتي.

- السنيفيليس خامد صامت لمدة ستمائة عام الآن، وإن كان ما زال بمقدوره أن يتكلم. لكن ثورات البراكين دائمًا ما تسبقها ظواهر معروفة تمامًا. ولذلك فقد سألت السكان هنا ودرست التربة، وأستطيع أن أقول لك يا آكسل إنه لن تكون هناك ثورة قريبة للبركان هذا.

وقفت مشدوهًا أمام هذا التأكيد ولم أُعقب بكلمة فسألني عمي:

- أتشك في كلامي؟ حسن، اتبعني.

تبعته من دون تفكير. وعندما غادرنا منزل الكاهن، اتخذ البروفيسور طريقًا مباشرًا ابتعد بنا عن البحر عبر فتحة في الجدار البازلتي، وسرعان ما أصبحنا نسير وسط الحقول لو أمكننا أن نطلق هذا الوصف على هذه الكومة الهائلة من بقايا الحمم البركانية. بدا الأمر كما لو أن هذه البلاد قد هطلت عليها أمطار غزيرة من الأحجار الهائلة، من البازلت والجرانيت وكل أنواع الصخور البيروكسينية.

كنت ألمح هنا وهناك نافثات بركان تتصاعد في الهواء، هذه الأبخرة البيضاء التي تسمى «reykir» باللغة الأيسلندية، تأتي من مصادر حرارية وتشير، قياسًا على عنفوانها، إلى النشاط البركاني للتربة. وأكد لي هذا الأمر أن مخاوفي لها ما يبررها. ولكني أفقت من أفكاري الشاردة على صوت عمي الذي خاطبني قائلًا:

- هل ترى كل هذه الأبخرة يا آكسل؟ حسن، إنها تثبت لنا أنه ليس لدينا ما نخشاه من ثورة بركانية محتملة.

- ماذا؟

صحت متسائلًا.

- تذكر ما أقوله جيدًا.

أجابني البروفيسور.

- عند اقتراب ثورة البركان يتضاعف نشاط هذه الأبخرة لتختفي تمامًا خلال مدة الظاهرة نفسها. إذ إن هذه السوائل المطاطة، والتي لأنها تملك الضغط الكافي، تأخذ طريقها إلى الخارج عبر فوهات البركان بدلًا من أن تتسرب وتهرب عبر شقوق الكرة الأرضية. هذا يعني أنه ما دامت هذه الأبخرة موجودة في حالتها المعتادة، وما دامت الطاقة التي تدفعها لا تتزايد، ولو أضفت إلى هذه الملاحظات حقيقة أن الهواء والأمطار لم يحل محلهما هواء ثقيلًا وهادئًا، فكل هذا يؤكد لك أن ثورة قريبة للبركان لن تحدث.

- ولكن...

- كفى. عندما يقول العلم كلمته، يجب أن نصمت.

وعدت إلى المنزل وأنا مطأطئ الرأس، فقد هزمني عمي بجداله وأدلته العلمية.

وبالرغم من ذلك كان لا يزال بداخلي أمل أنه حينما نصل إلى قلب فوهة البركان، ولأننا لن نجد أنفاقًا، فلن نتمكن من النزول إلى الأعماق، وذلك بالرغم من كل ما قاله ساكنوسسيمم.

قضيت الليلة التالية في كابوس متواصل، أرى نفسي فيه وأنا داخل بركان وفي أعماق الأرض، ورأيت نفسي وكأني منطلق في الفضاء الكوني على هيئة صخور بركانية.

وفي صباح اليوم التالي، 23 يونيو، كان هانز ينتظرنا بصحبة رفاقه المحملين بالمؤن والأدوات والآلات، أما عمي وأنا فقد حمل كل منا اثنتين من العصي الحديدية الحادة، وبندقيتين، وحزامَي خرطوش.

وكان هانز بصفته رجلًا يحتاط لكل الأمور، قد أضاف إلى الأمتعة زِقًّا مليئًا بالماء يوفر لنا بالإضافة إلى زمزمية الماء التي يحملها كل منا، ماء يكفينا لمدة ثمانية أيام.

كانت الساعة التاسعة صباحًا وكان الكاهن وزوجته ينتظران أمام باب منزلهما. بلا شك كانا يهدفان إلى وداعنا الوداع اللائق من قبل المضيف إلى ضيوفه. ولكن هذا الوداع أتى في صورة غير متوقعة، إذ قدما لنا فاتورة هائلة قاما فيها بحساب كل شيء، حتى الهواء في منزل الكاهن هذا. هواء ملوث لو جاز لي أن أقول الحقيقة. هذان الزوجان فرضا علينا إتاوة تجاوزت قيمتها فاتورة فندق في سويسرا، بالغا فيها تقدير حسن ضيافتهما المزعومة. ودفع عمي ما طلباه من دون جدال. إن رجلًا ينوي الذهاب إلى باطن الأرض لم يكن ليتوقف أمام مثل هذه الأمور.

ولما انتهينا من هذا الأمر أعطى هانز إشارة الرحيل وبعد لحظات كنا قد غادرنا ستابي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

كان السنيفيليس يرتفع إلى نحو خمسة آلاف قدم، تنتهي بقمة تشبه مخروطًا مزدوجًا، وحزام من الصخور النارية يمتد من تكوين تضاريس الجزيرة. ولكن من النقطة التي انطلقنا منها لم يكن ممكنًا رؤية قمته المزدوجة وهي تلوح في أفق السماء الرمادية، بل كان ما رأيت هو هذه الكتلة الهائلة من السحب وكأنها تهبط لتكلل جبهة هذا المارد المنتصب.

كنا نسير في طابور يتقدمه دليلنا الصياد الذي كان يسير صاعدًا في طرق ضيقة لا تسمح بسير شخصين متجاورين، وبالتالي أصبح أي حوار بيننا أمرًا شبه مستحيل.

وبعد الجدار البازلتي المحيط بخليج ستابي، امتدت في البداية تربة معشبة ومتليفة من الخث وبقايا نباتات المستنقعات المنتشرة في شبه الجزيرة. كانت هذه الكتلة الهائلة من الوقود غير المستغَل حتى الآن تكفي لتدفئة كل سكان أيسلندا لمدة قرن من الزمان. هذه المستنقعات الشاسعة التي تمتد في سهول بعينها، كان ارتفاعها يصل في كثير من الأحيان إلى سبعين قدمًا، وكانت تتكون من طبقات متتالية من المخلفات المتفحمة تفصل بينها شرائح من الطف الرملي.

ولأني كنت ابن أخ حقيقي للبروفيسور ليدنبروك، جديرًا بهذه الصفة، فقد كنت بالرغم من مخاوفي، أرقب باهتمام كل هذه العجائب الجيولوجية الممتدة في هذا المتحف الواسع للتاريخ الطبيعي. وكان عقلي في الوقت نفسه يعيد ترتيب كل التاريخ الجيولوجي لأيسلندا.

هذه الجزيرة، بكل أسرارها، قد بزغت بكل تأكيد من أعماق المياه في فترة حديثة نسبيًّا. وربما ما زالت ترتفع فوق المياه بحركة غير محسوسة لا تُلاحَظ. ولو كان الأمر هكذا لربما استطعنا أن ننسب أصلها إلى نتاج عمل حرائق حدثت تحت الأرض. وبالتالي وفي هذه الحالة تكون نظرية همفري ديفي ومخطوط ساكنوسسيمم وادعاءات عمي كلها هباءً منثورًا لا قيمة له. ودفعتني هذه الفرضية إلى أن أفحص جيدًا طبيعة التربة، وسرعان ما أدركت تتابع الظواهر التي أشرفت على تشكيل هذه التربة.

أيسلندا التي تفتقر تمامًا إلى الأرض الرسوبية، تتكون فقط من الطف البركاني، بمعنى تكتل من الأحجار والصخور ذات النسيج المسامي. وقبل وجود البراكين، كانت عبارة عن تكوين هائل من الصخور المتراكبة، علت ببطء فوق سطح الماء مدفوعة بفعل قوى مركزية في الأعماق. ولم تكن الحرائق الملتهبة تحت سطح الأرض قد وجدت طريقها إلى الخارج بعد. ولكن في فترة لاحقة، انفتح شق عريض قطري، امتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي للجزيرة، تدفقت من خلاله تدريجيًّا كل هذه العجينة من الصخور النارية. وهكذا اكتملت الظاهرة من دون عنف. وكان ناتجها هائلًا، وامتدت المواد المنصهرة التي ألقت بها الأرض من أحشائها إلى الخارج، بهدوء تام، في صورة مسطحات واسعة أو كتل جبلية. وظهرت في هذه الفترة معادن الفلسبار والسيانيت والبورفير.

ولكن، وبسبب هذا الانصباب، زاد سمك الجزيرة بصورة كبيرة وبالتالي قوة مقاومتها.

ويمكننا أن نتخيل كمية السوائل المرنة التي تخزنت في جوفها ولم تجد لها مخرجًا بعد أن بردت القشرة المصنوعة من الصخور النارية. ثم جاءت لحظة تضاعفت فيها القوة الميكانيكية لهذه الغازات بحيث رفعت القشرة الثقيلة لتحفر مداخن عالية تمر من خلالها إلى الخارج. ومن هنا كان البركان يرفع القشرة الأرضية ثم تظهر الفوهة كخرق مفاجئ لهذه القشرة على قمته. ثم تلت ذلك الظواهر الانفجارية، ظواهر بركانية، وعن طريق الفتحات التي تكونت حديثًا، انسكبت الفضلات البازلتية، والذي أتاح لنا السهل الذي نعبره حاليًّا رؤية عينات رائعة منها. كنا نسير فوق هذه الصخور الثقيلة ذات اللون الرمادي الداكن، والتي تشكلت بفعل التبريد على هيئة منشور ذي قاعدة سداسية الأضلاع. وفي البعد تناثرت أعداد كبيرة من المخاريط المسطحة، والتي كانت يومًا ما أفواهًا نارية هي الأخرى.

ثم عندما فرغت تمامًا الانفجارات البازلتية، قام البركان، والذي تضاعفت قوته بفعل فوهاته المنطفئة، بفتح سبيل أمام الحمم وكتل الرماد هذه التي كنت ألمح انسكاباتها الطويلة متناثرةً فوق جوانب البركان وكأنها خصلات شعر غزيرة وغنية.

كان هذا هو تتابع الظواهر التي كونت أيسلندا، كلها كان مصدرها نشاط الحرائق التي تستعر تحت سطح الأرض. والادعاء بأن الكتلة الداخلية لم تستمر في حالة سيولة مستعرة هو نوع من الجنون. بل إن الجنون الحقيقي هو ادعاء القدرة على الوصول إلى باطن الأرض.

هكذا كنت مطمئنًّا على نتيجة رحلتنا ونحن في طريقنا لاقتحام السنيفيليس.

كان الطريق يزداد صعوبة، والأرض تتجه إلى أعلى، والأحجار تهتز وتتساقط تحت أقدامنا، وكان علينا أن نبقى منتبهين تمامًا حتى نتفادى السقوط الخطير.

هانز كان يتقدم بهدوء وسلاسة كما لو كان يسير فوق أرض سليمة منبسطة، يختفي أحيانًا خلف كتلة ضخمة من الصخور ويغيب عن ناظرينا مؤقتًا، ثم نسمع صفيرًا حادًّا يصدره لينبهنا إلى الاتجاه الذي علينا أن نتبعه. وكثيرًا أيضًا ما كان يتوقف ويجمع بضع بقايا من الصخور ويضعها بطريقة معينة ليصنع تشكيلًا معروفًا يتركه كعلامة نستدل بها في طريق عودتنا. كان هذا إجراءً احتياطيًّا جيدًا في حد ذاته، ولكن الأحداث المستقبلية جعلته غير مجدٍ.

وبعد ثلاث ساعات من السير المضني وصلنا إلى قاعدة الجبل. وهنا أعطى هانز إشارة بالتوقف ووزع علينا غداءً سريعًا. وكان عمي يتناول قطعتين معًا ليسرع ويقلل الوقت المستقطع لتناول الطعام. ولكن بما أن وقت الغداء هذا كان مخصصًا للراحة أيضًا فقد اضطر عمي لانتظار الدليل الذي أعطى إشارة التحرك بعدها بساعة. الأيسلنديون الثلاثة الذين كانوا صموتين تمامًا مثل رفيقهم الصياد، لم ينطقوا بكلمة واحدة خلال هذه الاستراحة، وتناولوا طعامهم في صمت ورزانة.

ثم بدأنا في تسلق مرتفعات السنيفيليس. وبدت لي قمته الثلجية قريبة جدًّا بفعل خداع بصري شائع في الجبال، ومع ذلك فلم نكن لنصل إليها في الحقيقة قبل ساعات طوال. كانت الأحجار التي لم يكن يربط بينها أي قطعة من تربة ولا عشب تتهاوى تحت أقدامنا وتسقط بسرعة في الوادي السحيق كما لو كانت انهيارًا جليديًّا.

وفي بعض المواضع كانت جوانب الجبل تصنع مع الأفق زاوية قدرها ست وثلاثون درجة على الأقل، كان من المستحيل أن نتسلقها، وكان علينا أن نغلب هذه المنحدرات الصخرية، ولم يكن ذلك من السهولة بمكان. كنا حينها يساعد كل منا الآخر مستعينين بالعصي التي نحملها.

ويجب أن أقول إن عمي كان يقف على مقربة مني بقدر ما يستطيع ولم يتركني أبعد عن ناظريه. وفي مرات عديدة كانت ذراعه الممدودة لي سندًا استندت عليه. أما هو فقد كان يملك شعورًا فطريًّا بالتوازن، ولم يكن يتمايل وهو يتقدم والأيسلنديون الثلاثة، فبالرغم من أحمالهم الثقيلة، كانوا يتسلقون المرتفعات بمهارة سكان الجبال.

بالنظر إلى ارتفاع قمة السنيفيليس، بدا لي أنه من المستحيل علينا الوصول إليها من هذه الجهة لو لم تقل زاوية الانحدار. ولكن لحسن الحظ وبعد ساعة من السير المرهق وسط غطاء واسع من الثلوج المتراكمة على حافة البركان، وجدنا ما يشبه السلم الذي سهَّل لنا عملية الصعود إلى أعلى. كان هذا السلم قد تشكل من سيل من الأحجار التي ألقت بها الانفجارات البركانية، والتي يطلق عليها باللغة الأيسلندية «stinâ».

لو لم يكن هذا السيل قد ارتطم في أثناء سقوطه بجوانب الجبل لواصل السقوط حتى البحر ليصنع بذلك جزرًا جديدة.

وسهَّل هذا الوضع مهمتنا كثيرًا، إذ إن المنحدرات كانت تزداد حدة انحدارها كلما تقدمنا، ولكن هذه السلالم الحجرية مكَّنتنا من تسلقها بسهولة وبسرعة، حتى إنني عندما تخلفت قليلًا عن رفاقي الذين استمروا في رحلة الصعود، انتبهت سريعًا فإذا هم بالكاد نقاطًا صغيرة لا تكاد تُرى بالعين المجردة.

وفي السابعة مساءً، كنا قد صعدنا ألفي درجة من درجات هذا السلم ووصلنا إلى موضع نطل منه على امتداد للجبل، أي ما يشبه القاعدة التي يرتكن إليها المخروط الذي تتكون منه فوهة البركان.

كانت مياه المحيط إلى أسفل يصل عمقها إلى ثلاثة آلاف ومائتي قدم. كنا قد تعدينا في هذا الموضع الثلوج اللا نهائية والمرتفعة نوعًا ما في أيسلندا نتيجة للرطوبة الدائمة، وكان الجو شديد البرودة والرياح شديدة. كنت مجهدًا. ورأى البروفيسور أن قدماي تحملاني بالكاد، وبالرغم من صبره النافد، قرر أن نتوقف قليلًا للراحة، وأعطى إشارة بذلك إلى دليلنا الصياد، الذي هز رأسه وقال:

- Ofvanför.

أي فوق.

وقال عمي:

- يبدو أننا يجب أن نصعد إلى مستوى أعلى.

ثم سأل هانز عن السبب في جوابه السابق. فأجاب الدليل قائلًا:

- Mistour.

وردد أحد الأيسلنديين الكلمة وهو مرتعب:

- نعم، Mistour.

ورد عمي قائلًا:

- انظر.

وأشار باتجاه السهل وانتابني القلق وتساءلت:

- ماذا تعني هذه الكلمة؟

ونظرت إلى حيث أشار فرأيت عمودًا هائلًا من مسحوق حجر الخف والرمل والتراب يعلو ويرتفع وهو يدور ويدور مثل الإعصار، والريح تدفعه ليرتمي على جوانب السنيفيليس حيث نحن عالقون. هذا الستار المعتم الممتد أمام الشمس ألقى بظله الكبير على الجبل.

هذا الإعصار الهائل لو أنه اتجه إلى أسفل لابتلعتنا دوامته من دون جدال. هذه الظاهرة تحدث كثيرًا عندما تشتد الرياح فوق الجليد، ويطلق عليها باللغة الأيسلندية «Mistour».

وصاح الدليل:

- Hastigt, hastigt.

وبالرغم من أني لا أعرف الأيسلندية فإني فهمت أننا يجب أن نتبع هانز بأسرعٍ ما يمكن. وبدأ هانز يسير حول قاعدة المخروط الذي على قمة الفوهة، ولكنه كان يتبع مسارًا منحرفًا بعض الشيء حتى يُسهل علينا السير. ثم هبط الإعصار على الجبل الذي اهتز بفعل الارتطام وتطايرت الأحجار التي أحاطت بها دوامات الرياح العاتية فيما يشبه ثورة بركان.

كنا لحسن الحظ على الناحية الأخرى وبمنأى عن الخطر. لو لم يكن دليلنا حذرًا ومحتاطًا لكل شيء لتطايرت أشلاؤنا وسقطت بعيدًا مثل شظايا نيزك مجهول.

ومع ذلك رأى هانز أنه ليس من الحيطة أن نقضي الليل على جوانب المخروط، فاستمررنا في الصعود متخذين مسارًا متعرجًا، واستغرقت الألف وخمسمائة قدم الباقية نحو خمس ساعات، إذ زاد على المسافة نحو ثلاثة فراسخ على الأقل بسبب الالتفاف على الطريق والانحراف في المسار والعودة إلى الخلف في بعض الأحيان. لم أعد قادرًا على الاستمرار. هزمني البرد والجوع. ولم يعد الهواء الذي أصبح صافيًا إلى حدٍّ ما كافيًا لإراحة رئتي المتعبتين.

وأخيرًا وصلنا إلى قمة السنيفيليس في الحادية عشرة ليلًا وسط الظلمة الحالكة. وذهبت لأستريح داخل فوهة البركان. ولمحت أخيرًا «شمس منتصف الليل» وهي في نهاية رحلتها، تلقي أشعتها الباهتة فوق الجزيرة النائمة تحت قدميَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

التهمنا طعام العشاء سريعًا واستقرت قبيلتنا الصغيرة قدر ما أتاحت لنا الظروف. كان الفراش قاسيًا والمأوى غير آمن، والموقف مؤلم جدًّا. خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر. وبالرغم من ذلك كان نومي هادئًا جدًّا هذه الليلة، وهي إحدى أفضل الليالي التي مرت عليَّ منذ زمن. كان نومي عميقًا بلا أحلام.

وفي اليوم التالي استيقظنا ونحن على وشك التجمُّد، إذ كان الهواء باردا جدًّا بالرغم من أشعة الشمس الساطعة. وتركت فراشي المصنوع من الجرانيت وذهبت لأستمتع بالمنظر الرائع الذي امتد أمام ناظري.

كنت أقف على قمة من قمتي السنيفيليس، تلك التي في الجنوب. ومنها امتد بي البصر ليشمل الجانب الأكبر من الجزيرة. الرؤية التي هي قاسم مشترك في كل المرتفعات العالية، شملت الشواطئ بينما الأجزاء الداخلية بدت بعيدة جدًّا. كان المنظر جميلًا كما لو كانت خريطة من خرائط هيلبيسمر تمتد مجسمة تحت قدميَّ. كنت أرى السهول العميقة تتقاطع في كل اتجاه، والمنحدرات تبدو وكأنها آبار محفورة، والبحيرات تتحول إلى مستنقعات، والأنهار وكأنها قنوات ضيقة. على يميني توالت هضاب شاسعة بلا عدد من الجليد، تتضاعف قممها هنا وهناك وتكلل بعضها طبقات خفيفة من الدخان. كانت تموجات هذه الجبال اللا نهائية، والتي جعلتها طبقات الجليد تبدو وكأنها موج يعلوه الزبد، تُذكرني بالبحر الهائج. وناحية الغرب كان المحيط يملأ الأفق بصفحته المهيبة كما لو كان امتدادًا لهذه القمم الجبلية. أين تنتهي اليابسة وأين يبدأ الماء؟ هذا ما كانت عيني تكاد لا تميزه.

وهكذا غرقت في نشوة جليلة أثارتها في نفسي هذه القمم العالية ولكن من دون دوار هذه المرة، حيث إني كنت قد تعودت أخيرًا على هذه التأملات السامية. غرقت نظراتي المنبهرة في أشعة الشمس الشفافة، فنسيت من أنا وأين أنا. كنت منطلقًا في حياة الجان والعمالقة التي تذخر بها الأساطير الإسكندنافية. أسكرني إغراء المرتفعات فأنستني الهاوية التي كان قدري يقودني إليها بعد حين. ولكني عدت إلى الواقع عندما رأيت البروفيسور وهانز قادمَين لينضما إليَّ على قمة الجبل.

أدار عمي وجهه إلى جهة الغرب وأشار لي بيده إلى دخان خفيف، شيء ما يشبه الضباب، أو ما يشبه اليابسة في الأفق هناك بعيدًا وقال:

- جرونلاند.

- جرونلاند؟

- نعم، نحن على بُعد نحو خمسة وثلاثين فرسخًا من جرونلاند، ومع ذوبان الثلوج تأتي الدببة البيضاء وتصل إلى أيسلندا، تحملها إليها الكتل الجليدية الآتية من الشمال. ولكن هذا لا يهم. نحن الآن على قمة السنيفيليس وها هما القمتان، واحدة في الجنوب والأخرى في الشمال، وسوف يقول لنا هانز ما هو الاسم الذي يطلقه الأيسلنديون على تلك التي نقف عليها الآن.

ووجه سؤاله إلى الصياد، فأجابه قائلًا:

- سكارتاريس.

ورمقني عمي بنظرة المنتصر قائلًا:

- والآن، إلى الفوهة.

كانت فوهة السنيفيليس تمثل مخروطًا مقلوبًا، فتحته يبلغ محيطها نصف فرسخ تقريبًا. وقدرت أنا عمقها بنحو ألفَي قدم. يا إلهي، كيف يكون الوضع عندما يمتلئ هذا الإناء بالرعد والنيران المشتعلة؟! قاع هذا المخروط لم يكن ليبلغ أكثر من خمسمائة قدم بحيث إن منحنياته البسيطة تسمح بالوصول إلى الجزء الأسفل بسهولة. وتلقائيًّا شبهت هذه الفوهة بماسورة بندقية هائلة تندلع منها النيران. وأرعبني هذا التشبيه.

وقلت لنفسي: «الهبوط إلى أسفل ماسورة بندقية ربما تكون معبأة فتنطلق عند أي صدمة بسيطة، هذا عمل لا يقوم به سوى مجانين».

ولكن لم يكن بإمكاني التراجع. هانز الذي لم يكن يبدو عليه أي اهتمام بالأمر، استأنف المسيرة على رأس المجموعة وتبعته من دون أن أنطق بكلمة.

كان هانز يقوم برسم أشكال بيضاوية ممدودة جدًّا داخل المخروط حتى يُسهل عملية النزول إلى أسفل. كان علينا أن نسير وسط الصخور البركانية، والتي كان بعضها يسقط متهاويًا إلى القاع بفعل الاهتزاز عند مرورنا. وكان سقوط هذه الصخور يحدد انعكاسات الصدى بنقاء صوت غريب.

وكانت بعض أجزاء هذا المخروط مُشكَّلة على هيئة أنهار جليدية. والتزم هانز بالحرص البالغ وهو يتقدم المسيرة، يتحسس التربة بعصاه الحديدية ليكتشف مواضع الشقوق. وفي بعض المواضع المشكوك فيها كنا نتقدم ونحن مربوطون جميعنا بحبل واحد، بحيث يجد من تخونه قدمه رغمًا عنه نفسه مسنودًا على رفقائه. كان هذا الترابط أمرًا حكيمًا ولكنه لم يكن يستبعد الخطر الداهم.

ومع ذلك وبالرغم من كل صعوبات الهبوط على منحدرات يجهلها الدليل، فإن الرحلة تمت من دون حادثة تُذكَر فيما عدا سقوط ربطة من الحبال، سقطت من يد واحد من الأيسلنديين لتستقر في قاع الهاوية.

وعند الظهيرة كنا قد وصلنا ورفعت رأسي ورأيت فتحة المخروط العليا وكأنها إطار يحيط بقطعة من السماء، منقوصة ربما، ولكنها كانت تشبه لوحة مثالية، برزت في جزء منها قمة السكارتاريس وكأنها نقطة في لوحة لا نهائية.

داخل الفوهة كان هناك ثلاث مداخن مفتوحة يطلق من خلالها الموقد المركزي حممه وأبخرته في أوقات ثورة السنيفيليس. كل واحدة من هذه المداخن كان قطرها يبلغ نحو مائة قدم. وكانت المداخن الثلاث أمامنا، مفتوحة الفوهة تحت أقدامنا. ولم أجد في نفسي القدرة ولا الشجاعة على النظر إلى أعماقها. أما البروفيسور ليدنبروك فقد قام بفحص سريع لوضعية هذه المداخن. كان يلهث وهو يجري من مدخنة إلى الأخرى، يتمتم بكلمات غير مفهومة. أما هانز ورفاقه فكانوا جالسين فوق قطع من الحمم، ينظرون إليه وهو يفعل ما يفعل ويظنونه مجنونًا بكل تأكيد.

وفجأة أطلق عمي صيحة واعتقدت أنه فقد الاتزان وسقط في إحدى المداخن، ولكني كنت مخطئًا، فقد لمحته فاردًا ذراعيه ومباعدًا ما بين ساقيه، يقف أمام صخرة من الجرانيت موضوعة في مركز فوهة البركان وكأنها قاعدة ضخمة لتمثال لأفلاطون. كان يبدو كأنه رجل واقع تحت تأثير انبهار شديد ولكن انبهاره سرعان ما ترك المجال لسعادة غامرة.

- آكسل، آكسل، تعالَ، أسرع.

وركضت إليه ولكن هانز ورفاقه ظلوا ساكنين ولم يتحرك منهم أحد.

وصاح البروفيسور قائلًا:

- انظر.

وشاركته الانبهار بل سعادته إذ قرأت على الجهة الغربية لهذه الكتلة الصخرية، بحروف رونية شبه متآكلة بفعل الزمن، هذا الاسم الملعون ألف مرة:

«آرنه ساكنوسسيمم».

صاح عمي قائلًا:

- هل ما زلت على شك في مهمتنا؟!

لم أُجبه وعدت مستاءً إلى مكاني حيث جلست فوق دكة من الحمم. كانت الدلائل واضحة وضاغطة.

كم من الوقت بقيت مستغرقًا في أفكاري، لا أعلم. كل ما أعلمه هو أني عندما رفعت رأسي رأيت عمي وهانز بمفردهما في قاع الفوهة. كانوا قد أرسلوا الأيسلنديين خارجًا، وكان الثلاثة الآن يهبطون مرة أخرى المنحدرات الخارجية للسنيفيليس عائدين إلى ستابي.

كان هانز نائمًا في هدوء عند صخرة فوق سيل من الحمم جعل منه مرقدًا له، وكان عمي يلف ويدور في قاع الفوهة كما لو كان حيوانًا مفترسًا وقع في شبكة صياد. ولم أجد في نفسي الرغبة ولا القوة للنهوض، واتبعت مثال الدليل وتركت نفسي مستسلمًا لغفوة مؤلمة، كنت أظن في أثنائها أني أسمع ضجيجًا أو أشعر باهتزاز في جنبات الجبل. هكذا مرت ليلتي الأولى في قاع فوهة البركان.

وفي صباح اليوم التالي كانت قمة المخروط تشي بسماء رمادية، غائمة وثقيلة، شعرت بها في الثورة العارمة التي انتابت عمي أكثر مما عبر عنها الظلام المطبق في القاع.

وفهمت السبب وراء هذه الثورة، وعاد الأمل يداعبني. وهذا هو السبب:

من بين ثلاثة طرق تفتحت تحت أقدامنا، كان طريقًا واحدًا هو الذي اتبعه ساكنوسسيمم. وطبقًا للعالم الأيسلندي، كان يجب أن نتعرف على هذا الطريق من خلال هذه العلامة التي حددها الكريبتوجرام، أي أن هذا الطريق هو الذي يأتي ظل السكارتاريس ليداعب حافته في الأيام الأخيرة لشهر يونيو. في الواقع يمكن للمرء أن يعتبر هذه القمة الحادة وكأنها إطار لساعة شمسية هائلة، يأتي ظلها في يوم محدد ليشير إلى الطريق المؤدي إلى باطن الأرض.

وبالتالي لو حدث وغابت الشمس، فلن يكون هناك ظل لها. إذنْ لن تكون هناك إشارة تدل على الطريق. كنا في اليوم الخامس والعشرين من يونيو. ولو ظلت السماء غائمة لستة أيام مقبلة، لكان علينا أن نؤجل مهمتنا للعام المقبل.

لا أريد أن أقص على القارئ هنا كيف كان البروفيسور ليدنبروك في أثناء ثورته العارمة العاجزة. ومر اليوم ولم يأتِ ظل وحيد لينعكس على قاع فوهة البركان. ولم يتحرك هانز عن موضعه وإن كان بالتأكيد يتساءل عما نحن في انتظاره، لو كان يتساءل عن أي شيء على الإطلاق.

لم يوجه عمي إليَّ كلمة واحدة، ولكنه كان لا يحيد ببصره عن السماء التي ظلت على حالها، رمادية غائمة.

وفي اليوم السادس والعشرين لم يطرأ أي جديد، بل تساقطت خلال النهار أمطار ممزوجة ببعض الثلوج. وقام هانز ببناء كوخ مستخدِمًا قطعًا من الحمم البركانية. وأمضيت أنا الوقت في مراقبة ملايين الشلالات من الصخور التي تدافعت على جوانب المخروط، وكل حجر منها يُحدِث سقوطه ضجيجًا يصم الآذان.

ولم يعد بوسع عمي أن يظل متماسكًا، إذ كان الوضع يثير أكثر الرجال صبرًا. كنا كمن فشل في اختبار قبل أن يبدأه.

ولكن السماء دائمًا ما تمزج الآلام الشديدة بالأفراح الكبيرة، وكانت تحتفظ للبروفيسور ليدنبروك بسعادة توازي متاعبه ويأسه.

ظلت السماء غائمة ليوم آخر، ولكن يوم الأحد الثامن والعشرين، اليوم قبل الأخير من شهر يونيو، ومع تغير وجه القمر، تغير المناخ وسكبت الشمس أشعتها داخل فوهة البركان. وأخذت كل تلة وكل صخرة وكل حجر وكل حبة رمل خشنة نصيبها من انسكاب الأشعة المُحيِية فعكست ظلها على الأرض. وبينها جميعًا، رسمت قمة السكارتاريس ظلها، كمثل حربة حادة، وظلت تدور من دون توقف في اتجاه الكوكب الساطع. ودار عمي معها.

وفي تمام الظهيرة، وفي أقصر فتراتها، أتت لتلعق بلطف حافة المدخنة الوسطى. وصاح عمي:

- إنه هنا، هنا، باطن الأرض هنا.

وقال كلمته الأخيرة باللغة الدنماركية متوجهًا بالحديث إلى هانز.

ورد عليه الدليل بهدوء:

- Forüt!

وأجابه عمي قائلًا:

- إلى الأمام!

وكان الوقت حينها تمام الواحدة وثلاث عشرة دقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

وهنا بدأت الرحلة الحقيقية. قبل ذلك كان الشعور بالتعب متغلبًا على الشعور بالمصاعب. ولكن الآن بدأت المصاعب تتوالى تحت أقدامنا. حتى ذلك الحين لم أكن أتجاسر على النظر إلى أسفل في هذه البئر التي لا قرار لها، والتي كنت على وشك أن ألقي بنفسي إلى قاعها. ولكن ها قد حانت اللحظة. كان بوسعي حتى الآن إما أن أشارك في العملية المقبلة، أو أن أنسحب وأرفض المشاركة في التجربة. ولكني كنت أخجل من أن أبدي تراجعًا أمام دليلنا الصياد. هانز عن نفسه كان موافقًا على الاشتراك في المغامرة بكل اطمئنان، بل بلا مبالاة وتغافل تام عن الخطر المحدق لدرجة جعلتني أخجل من مجرد التفكير في أن أكون أقل شجاعة منه. لو كنت بمفردي لكنت اندفعت في سلسلة من المجادلات الكبيرة، لكني صمت في وجود الدليل، وانطلق خيالي يستعيد ذكريات حبيبتي الفيرلاندية، ثم دنوت من المدخنة الوسطى التي ذكرت أن قطرها يبلغ مائة قدم، أو أن محيطها يبلغ ثلاثمائة قدم. وملت قليلًا فوق صخرة كانت تشرف على هذه المدخنة ونظرت إلى أسفل. ارتعبت وسيطر عليَّ شعور بالفراغ. شعرت كما لو أن مركز الجاذبية يتحرك في داخلي، وصعد إلى رأسي إحساس شديد بالدوار، كما لو كنت سكران. ليس هناك ما يسكر أكثر من هذا الانجذاب نحو الهاوية. كنت على وشك السقوط. وامتدت يد لتسندني، كانت هذه يد هانز. بكل تأكيد لم تكن «دروس الهوة» التي تعلمتها في كنيسة «فريلسيرز كيركه» في كوبنهاجن كافية.

ومع ذلك وبالرغم من قصر الفترة التي تجاسرت فيها على النظر إلى قاع هذه البئر، فإن تشكيلها انطبع في ذهني. كانت جدرانها شديدة الانحدار، ولكنها كانت ذاخرة بنتوءات عديدة تُسهِّل عملية الهبوط. ولكن حتى في وجود النتوءات التي قد تمثل السلم الذي يُسهِّل الهبوط، إلا إنه كان سلمًا بلا درابزين يستند المرء عليه. حبل مربوط عند فتحة البئر كان يكفي لنستند إليه، ولكن كيف نفصله عندما نصل إلى طرفه الأسفل؟ عمي استخدم طريقة بسيطة للغاية للتحايل على هذه المشكلة، قام بفك حبل في سمك الإبهام، يبلغ طوله أربعمائة قدم، وترك في البداية نصفه فقط يتدلى إلى أسفل، ثم قام بلفه حول كتلة من الحمم كانت بارزة وألقى بالنصف الآخر داخل المدخنة. وهكذا كان بوسع كل منا أن يهبط وهو يمسك في يده بنصفَي الحبل الذي لم يكن لينفلت. وبعد أن نهبط لمسافة مائتي قدم، لم يكن هناك ما هو أسهل من إعادة الحبل بترك طرف والاحتفاظ بالطرف الآخر، ثم نعيد الكرة حتى النهاية.

وبعد أن أكمل استعداداته، قال عمي:

- والآن فلنتولَّ أمر الأمتعة. سنقسمها إلى ثلاثة أحمال، وسيربط كلٌّ منا على ظهره حملًا من الأحمال الثلاثة. أنا أعني فقط الأشياء القابلة للكسر.

ولم يكن البروفيسور الشجاع بالتأكيد يحسبنا من ضمن هذه الفئة.

واستطرد قائلًا:

- هانز سيتولى أمر الأدوات والمؤن. وأنت يا آكسل ستتولى أمر الثلث الثاني من المؤن والأسلحة، وسأتولى أنا أمر ما تبقى من المؤن والأدوات الدقيقة.

- ولكن ماذا عن الملابس وكل هذه الكمية من الأحبال والسلالم، من سيحملها ويهبط بها إلى أسفل؟

- هذه الأشياء ستهبط بمفردها.

هكذا أجاب البروفيسور على سؤالي.

- وكيف ذلك؟

- سترى بنفسك.

كان عمي يلجأ لاستخدام الطرق والوسائل الكبيرة ومن دون تردد. وبناء على أوامره قام هانز بجمع كل ما هو غير معرض للكسر، ووضعه في صندوق واحد وربطه جيدًا بحبل متين، ثم ألقى به ببساطة إلى أسفل الهوة.

وسمعت الصوت المدوي الذي أحدثه تخلخل طبقات الهواء في الهوة السحيقة التي انحنى عمي على فوهتها ليتابع بنظرة راضية هبوط الأمتعة، وبعد اختفائها عن ناظريه، وقف وقال:

- حسنًا، الآن جاء دورنا.

وهل كان لعاقل أن يسمع هذا الكلام من دون أن يقشعر بدنه خوفًا!

ربط البروفيسور فوق ظهره الحمل الذي يحوي الأجهزة الدقيقة، وأخذ هانز ذلك الذي يحتوي على الأدوات، وحملت أنا الأسلحة. وبدأ الهبوط هكذا: هانز في المقدمة، ثم عمي، ثم أنا في المؤخرة. كان الصمت العميق يحيط بنا، لا يقطعه سوى دوي سقوط شذرات الصخور في اندفاعها نحو القاع.

تركت نفسي أنزلق، إذا جاز التعبير، متشبثًا بشدة بالحبل المزدوج بيد، ومستندًا على عصاي الحديدية باليد الأخرى. كانت فكرة وحيدة تتسلط عليَّ، كنت أخشى أن تخذلنا في لحظة نقطة الارتكاز، إذ بدا لي الحبل الذي نمسك به ضعيفًا لا يتحمل وزن ثلاثة أشخاص. ولذلك خففت اعتمادي عليه بقدر المستطاع، محاولًا تحقيق معجزة الحفاظ على توازني فوق نتوءات الحمم التي كانت قدماي تبحثان عنها وكأنها يد أسعى محمومًا للإمساك بها والاستناد عليها.

وكلما كانت إحدى هذه الدرجات المنزلقة تتداعى تحت قدمَي هانز، كان يقول بصوته الهادئ:

- Gif akt!

ليصيح عمي مرددًا وراءه:

- انتبه.

وبعد نصف ساعة وصلنا إلى سطح صخرة ملتحمة بقوة بجدار المدخنة. وشد هانز الحبل من أحد طرفيه، فارتفع الطرف الآخر في الهواء. وبعد أن تعدى الصخرة العليا، سقط مرتطمًا بقطع من

الأحجار والحمم التي سقطت فيما يشبه المطر أو الثلوج الخطيرة.

وعندما نظرت إلى أسفل، منحنيًا فوق السطح الضيق الذي نقف فوقه، لاحظت أن القاع ما زال مختفيًا لا يصل إليه بصري.

وتكررت حيلة الحبل مرات، ثم بعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى عمق جديد قدره مائتا قدم.

ولست أدري لو كان عمي، العالم الجيولوجي المتحمس، قد اهتم في أثناء رحلة الهبوط تلك بدراسة طبيعة التربة التي تحيط بنا. أنا عن نفسي لم أكن مهتمًّا بالتربة، وهل تعود إلى العصر الجليدي أم الميوسيني أم الأيوسيني، الطباشيري أم الجوراسي أم العصر الترياسي، البرمي أم الكربوني، الديفوني أم السلوري أم العصر البدائي. لم أشغل بالي بهذا الأمر. أما البروفيسور فمن دون أدنى شك قد لاحظ وراقب كل ما أحاط بنا في أثناء هبوطنا وسجَّله، إذ إنه قال لي في أثناء توقفنا للراحة:

- كلما تقدمنا ازدادت ثقتي فيما نحن فاعلون. إن وضعية هذه الحقول البركانية تدعم بلا أي مجال للشك نظرية ديفي. نحن في قلب تربة بدائية تمامًا، التربة التي تمت فيها العملية الكيميائية للمعادن الملتهبة عند ملامستها للهواء أو الماء. أنا أستبعد تمامًا فكرة الحرارة المركزية. عمومًا، سنرى.

كل مرة الاستنتاج نفسه والنتيجة نفسها. ولذلك فلم أعد مهتمًّا بالجدال ولا المناقشة. وفسر البروفيسور صمتي على أنه موافقة على ما يقول. واستأنفنا الهبوط إلى أسفل.

وبعد ثلاث ساعات أخرى لم يكن بصري يصل إلى القاع الذي لم يكن قد لاح بعد. ولما كنت أرفع رأسي إلى أعلى كنت ألمح فتحة المدخنة وقد تضاءلت إلى حدٍّ كبير، وكانت جدران الهوة، بفعل الميل الطفيف، تضيق وكأنها تطبق علينا. وبدأت الظلمة تزحف شيئًا فشيئًا.

ومع ذلك واصلنا الهبوط، وبدا لي أن الأحجار التي تنفصل عن جدران الهوة أصبح دوي ارتطامها بالقاع مصمتًا بأكثر من ذي قبل، وكأن المسافة التي تقطعها إلى قاع الهاوية أصبحت أقصر.

وكما اهتممت بالتسجيل الدقيق لمناوراتنا في استخدام الحبل، استطعت أن أحسب بدقة العمق الذي وصلنا إليه، والمدة الزمنية التي استغرقها ذلك.

كنا قد كررنا مناورة الأحبال أربع عشرة مرة، وأمضينا نصف ساعة في كل مرة، وبالتالي استغرق الأمر سبع ساعات بالإضافة إلى ربع ساعة للراحة في كل مرة، إذَنْ ثلاث ساعات ونصف الساعة، ليكون الوقت الإجمالي عشر ساعات ونصف الساعة. ولما كانت رحلتنا قد بدأت في الساعة الواحدة، نكون الآن في الحادية عشرة تقريبًا. أما عن العمق الذي وصلنا إليه، فلو حسبنا أننا نقطع مسافة مائتي قدم في كل مرة نناور فيها بالحبل، نكون قد وصلنا إلى عمق ألفين وثمانمائة قدم في الأربع عشرة مناورة.

وفي هذه اللحظة، علا صوت هانز قائلًا:

- Halt!

وتوقفت على الفور في اللحظة التي كادت قدمي فيها ترتطم برأس عمي، الذي قال:

- لقد وصلنا.

وسألته مندهشًا وأنا أترك نفسي لأنزلق بالقرب منه:

- وصلنا إلى أين؟

وأجابني:

- إلى قاع المدخنة العمودية.

- ألا يوجد مخرج آخر إذَنْ؟

- بلى. إني المح ما يشبه الممر الذي ينحرف في اتجاه اليمين. هذا ما سوف نستطلعه في الغد. فلنتناول الطعام الآن ثم نخلد إلى النوم.

لم يكن الظلام تامًّا بعد. فتحنا حقيبة المؤن وأكلنا ثم نام كل منا فيما يشبه السرير المصنوع من الحجارة وبقايا الحمم.

كنت مستلقيًا على ظهري، وعندما فتحت عينيَّ لمحت نقطة ضوء في طرف هذا الأنبوب الذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف قدم، والذي تحوَّل إلى منظار عملاق.

كان هذا الضوء نجمة لا تتلألأ. هذه النجمة، طبقًا لحساباتي، هي β أي (سيجما) لمجموعة الدب الأصغر.

ثم غبت في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

في الثامنة صباحًا أتى شعاع ضوء ليوقظنا. وفي طريقه إلينا انعكس على آلاف الوجوه للحمم التي تبطن الجدار، فلمع وتلألأ كما لو كان مطرًا من الشرر المنهمر.

كان الضوء مبهرًا لدرجة منعتني من تمييز الأشياء المحيطة بنا.

- ما قولك الآن يا آكسل؟

صاح بي عمي وهو يفرك يديه مسرورًا.

- ألم تكن ليلتنا هذه أكثر هدوءًا من تلك التي أمضيناها في كونينج شتراسه؟ ليلة لم نسمع فيها ضوضاء العربات ولا صيحات الباعة ولا شتائم البحارة.

- بلا شك، نحن أكثر هدوءًا في قاع هذه البئر، ولكن هذا السكون ينطوي على شيء ما، شيء مخيف.

- ما هذا الذي تقول؟!

أجابني البروفيسور صائحًا.

- لو تملكك الخوف الآن، ماذا ستفعل فيما هو قادم؟ نحن لم ندخل بعد مسافة بوصة واحدة في أحشاء الأرض.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول إننا وصلنا فقط إلى أرض الجزيرة، هذا الأنبوب الرأسي الطويل الذي يصل بنا إلى فوهة بركان السنيفيليس، يتوقف تقريبًا عند مستوى البحر.

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- بكل تأكيد، استخدم البارومیتر لتتأكد بنفسك.

بالفعل كان عمود الزئبق الذي ارتفع رويدًا رويدًا كلما هبطنا إلى أسفل قد توقف عند تسع وعشرين بوصة.

واستطرد البروفيسور:

- كما ترى بنفسك، لم نسجل سوى ضغط الغلاف الجوي، وأمامنا فترة طويلة ليحل المانوميتر محل هذا البارومیتر.

بالفعل، البارومیتر كان سيصبح غير ذي جدوى في الوقت الذي يتعدى فيه وزن الهواء الضغط الذي يحدثه قياسًا عند مستوى المحيط.

- ولكن، أليس هناك خوف من أن يصبح هذا الضغط المتصاعد مؤلمًا؟

- كلا، سوف نهبط ببطء، وستعتاد رئتانا على تنفس هواء أكثر انضغاطا. الطيارون ربما ينقصهم الهواء كلما وصلوا إلى الطبقات العليا، أما نحن سيتوفر لنا الهواء ربما بقدر أكثر مما نحتاج. ولكني أفضل هذا. دعنا لا نهدر لحظة واحدة. أين هو الحمل الذي سبقنا إلى باطن الجبل؟

وتذكرت أننا بحثنا عن هذا الطرد في الليلة السابقة من دون أن نعثر له على أثر. وسأل عمي هانز، الذي أجاب بعد أن نظر متفحصًا المكان بعينَي الصياد:

- Der huppe! (أي: إلى أعلى).

وبالفعل، كان الطرد معلقًا على نتوء صخري على ارتفاع نحو مائة قدم إلى أعلى. وسرعان ما قام الأيسلندي الماهر بتسلق الجدار كالقطط، وعاد بعد دقائق ومعه الطرد المذكور.

ولما اطمأن البروفيسور إلى وصوله قال:

- والآن، فلنتناول الطعام. ولكن فلنأكل كما يجب على رجال أمامهم طريق طويل يجب أن يقطعوه.

وتناولنا قطع البسكويت الجاف واللحم المقدد وشربنا من الماء الممزوج بالعرعر. ولما انتهينا أخرج عمي من جيب سترته كتيبًا يحمله دومًا ليدون فيه ملاحظاته. واستخدم أدواته، الواحدة بعد الأخرى وكتب ما يلي:

يوم الاثنين 29 يونيو:

الكرونوميتر: الساعة 8 و17 دقيقة.

البارومیتر: 29 l 7 .p.

الثرمومیتر: 6°

الاتجاه: E.-S.-E. أي شرق-جنوب-شرق.

كانت هذه الملاحظة الأخيرة تنطبق على السرداب المظلم، وحددتها البوصلة التي حملها البروفيسور، الذي التفت إليَّ بعد أن انتهى من تدوين ملاحظاته، وقال بصوت يملأه الحماس:

- والآن يا آكسل، سوف نغوص فعليًّا في أحشاء الكرة الأرضية. في هذه اللحظة تحديدًا تبدأ رحلتنا الحقيقية.

ثم أمسك بجهاز روهمكورف الذي كان معلقًا حول رقبته بيد، وباليد الأخرى قام بتوصيل التيار الكهربائي إلى سلك المصباح فانبعث ضوء شديد بدد ظلام السرداب المحيط بنا.

كان هانز يحمل الجهاز الثاني الذي سرعان ما بدأ العمل هو الآخر. الكهرباء، هذا الاختراع العبقري سمح لنا بأن نخلق نهارًا صناعيًّا حتى في وسط أكثر الغازات قدرة على الاشتعال.

- هيا بنا.

قال البروفيسور معطيًا الأمر بالمسير.

حمل كل منا الحمل الموكل إليه. وتولى هانز أمر دفع حزمة الأحبال والملابس وسار في المقدمة، وتبعه عمي ثم أنا وهكذا دخلنا إلى السرداب.

في اللحظة التي دخلت فيها إلى هذا الممر المظلم، رفعت رأسي ولمحت للمرة الأخيرة سماء أيسلندا «التي لم يكن مقدرًا لي أن أراها مرة أخرى» عبر الحقل البصري لهذا الأنبوب الهائل.

كانت الحمم في آخر ثورة للبركان عام 1229 قد حفرت لها طريقًا عبر هذا النفق، وبطنت جدرانه بطلاء سميك ولامع، انعكست عليه الإنارة الكهربية فتضاعفت شدتها.

صعوبة الرحلة التي بدأناها للتوِّ كانت في الحفاظ على التوازن، وعدم الانزلاق بسرعة أكثر من اللازم على منحدر تبلغ زاوية انحداره نحو خمس وأربعين درجة. ولحسن الحظ كان هناك بعض الصخور المتآكلة وبعض النتوءات في هذا المنحدر شكَّلت ما يشبه السلم. ولم يكن علينا سوى أن ننزل إلى أسفل، تاركين أمتعتنا تنزلق على الحبل الطويل الذي يربطها.

ولكن الصخور المتآكلة والنتوءات التي شكلت سلمًا تحت أقدامنا، تشكلت في صورة كتل مجمدة على الجدران الأخرى. كانت الحمم المسامية في بعض المواضع تشبه لمبات صغيرة مستديرة، بلورات من الكوارتز المصمت تزينها قطرات زجاجية شفافة، معلقة في القبو مثل الثريات، بدت وكأنها تضيء كلما مررنا بها. كان الأمر وكأن جنيات الهاوية تضيء أنوار قصرها لتستقبل ضيوفها الآتين من سطح الأرض. أبهرني المنظر وصحت رغمًا عني:

- ما هذا الجمال الرائع؟! أي مشهد خلاب هذا يا عمي؟! هل ترى مثلي ظلال الحمم التي تتراوح ألوانها من البني المحمر إلى الأصفر الزاهي بتدرج مثالي يكاد يكون غير ملحوظ؟ وهذه البلورات التي تبدو وكأنها كواكب مضيئة؟

وأجابني عمي سعيدًا بما قلت:

- آه! ها أنت الآن تشاركني الحلم يا آكسل، آه يا ولدي، هل تجد هذا المشهد رائعًا؟ دعني أقول لك إنك سترى ما هو أروع بكثير، أو على الأقل هذا ما أرجوه، هيا بنا، هيا بنا نسير.

كان الأحرى أن يقول انزلقوا، إذ إننا تركنا أنفسنا للنزول على المنحدرات المائلة من دون تعب يذكر. كانت رحلتنا هي رحلة «الهبوط السهل إلى الجحيم» التي كان يعنيها الشاعر فيرجيل في «الإنيادة». وكانت البوصلة التي كنت أفحصها كلما تقدمنا تشير بقوة وثبات إلى اتجاه الجنوب الشرقي. فقد كانت هذه الحمم المنسكبة لا تحيد إلى هذا الجانب أو إلى الآخر، بل كان اتجاهها ثابتًا كما الخط المستقيم.

ومع ذلك لم يحدث ارتفاع ملموس في الحرارة، مما يدعم نظريات ديفي، وكم من مرة فحصت الثرموميتر ولم أجد سوى هذه النتيجة المدهشة. وبعد ساعتين من بدء الرحيل لم تكن الحرارة قد تعدت 10° أي أن الحرارة ارتفعت بمقدار 4 درجات مئوية فقط. مما جعلني أستنتج أن مسار هبوطنا هو مسار أفقي أكثر منه رأسيًّا. ولم يكن أسهل من قياس العمق الذي وصلنا إليه، فقد كان البروفيسور يقيس بدقة زوايا انحراف الطريق وزوايا انحداره، وإن احتفظ لنفسه بنتائج قياساته.

وفي المساء نحو الساعة الثامنة، أعطانا عمي إشارة التوقف. وللتوِّ جلس هانز بعد أن علق المصابيح في نتوء إحدى الحمم. كنا فيما يشبه الكهف الذي لا ينقص فيه الهواء بل على العكس، فقد لامست وجوهنا بضع نسمات منعشة. ما الذي تسبب في هذه النسمات؟ وإلى أي خلخلة في الغلاف الجوي يمكن أن يعود مصدرها؟ لم أكن في هذه اللحظة معنيًّا بحل هذا اللغز. الجوع والإرهاق تمكنا مني وجعلاني عاجزًا عن التفكير السليم. رحلة هبوط تستغرق سبع ساعات متواصلة لا تتم من دون بذل مجهود رهيب. كنت منهكًا وأطربني سماع الأمر بالتوقف للراحة. وضع هانز الأطعمة فوق سطح كتلة من الحمم والتهم كل منا الطعام بشهية واضحة. كنا قد استهلكنا نصف مخزوننا من المياه. وكان عمي يعتمد على إعادة الملء من مصادر المياه الجوفية، ولكن حتى الحين لم يكن مصدر واحد للمياه قد صادفنا على الإطلاق. ولم يسعني سوى أن ألفت انتباهه إلى هذا الأمر. ولكنه أجابني قائلًا:

- هل ندرة الموارد هذه تثير دهشتك؟

- بلا شك، بل إنها تقلقني. لم يبقَ لدينا ماء يكفي أكثر من خمسة أيام.

- اطمئن يا آكسل، أنا أؤكد لك أننا سنجد ماءً وبكمية أكثر مما نحتاج بكثير.

- ومتى ذلك؟

- عندما نكون قد تعدينا هذا الجدار من الحمم. كيف تريد للمياه أن تتدفق عبر هذه الجدران؟

- ولكن ربما طال جدار الحمم المنسكبة هذا إلى أعماق أكبر، يبدو لي أننا لم نقطع مسارًا رأسيًّا بعد.

- وما الذي يدعوك إلى هذا الاستنتاج؟

- لأننا لو كنا قد تقدمنا كثيرًا إلى قلب القشرة الأرضية، لكانت درجة الحرارة أعلى من ذلك بكثير.

- وطبقًا لما تقول، ما الذي يشير إليه الترموميتر؟

- يشير إلى خمس عشرة درجة بالكاد، وهو ارتفاع لا يتعدى تسع درجات منذ نقطة البداية.

- إذَنْ ما الذي تستنتجه من ذلك؟

- هذا هو استنتاجي: طبقًا للملاحظات الأكثر دقة، فإن درجة الحرارة داخل الأرض ترتفع بمقدار درجة لكل مائة قدم. ولكن بعض أحكام الموقع يمكن أن تُغير هذا الرقم. فمثلًا في ياكوست في سيبريا، لوحظ أن الحرارة ترتفع بمقدار درجة لكل ستة وثلاثين قدمًا. هذا الفارق يعتمد بالطبع على درجة موصلية الصخور. وأود أن أضيف أيضًا أنه في المناطق المجاورة لبركان خامد، ومن خلال حجر الصوان، لوحظ أن الحرارة ترتفع بمقدار درجة واحدة فقط لكل مائة وخمسة وعشرين قدمًا. فلننظر إذَنْ إلى هذه النظرية الأخيرة وهي الأكثر دقة ولنجرِ حساباتنا.

- احسب يا ولدي.

- ليس هناك ما هو أسهل من ذلك.

بادرته قائلًا وأنا أسجل الأرقام في دفتري.

- تسع مرات، مائة وخمسة وعشرون قدمًا تعطينا عمقًا قدره ألف ومائة وخمسة وعشرون قدمًا.

- هذا حساب دقيق تمامًا.

- وإذَنْ؟

- إذَنْ، طبقًا لملاحظاتي، نكون قد وصلنا إلى عمق قدره عشرة آلاف قدم تحت مستوى سطح البحر.

- وهل هذا ممكن؟

- نعم، فالأرقام لا تكذب.

كانت حسابات البروفيسور سليمة. فقد كنا بالفعل تعدينا بستة آلاف قدم، أكبر عمق وصل إليه إنسان من قبل، الذي هو عمق مناجم كيتز-باهل في مقاطعة التيرول، وعمق مناجم ووتمبيرج في مقاطعة بوهيميا.

والحرارة التي كان يجب أن تصل إلى خمس وعشرين درجة في هذا الموضع لم تسجل سوى خمس عشرة درجة بالكاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

في الغد، يوم الثلاثاء 30 يونيو، استأنفنا رحلة الهبوط.

كنا ما زلنا نسير في سرداب الحمم التي شكلت في الحقيقة درجًا من صنع الطبيعة. درج أملس تمامًا مثل المنحنى الذي ما زال يحل محل السلالم في البيوت القديمة. وظل الأمر على هذا النحو حتى الساعة الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة، وهو الوقت المحدد الذي لحقنا فيه بهانز الذي كان قد توقف للتوِّ. وصاح عمي:

- آه! ها نحن قد وصلنا إلى نهاية المدخنة.

نظرت حولي. كنا فيما يشبه مفترق طرق يتقاطع عنده طريقان، كلاهما ضيق ومظلم. أيهما يجب أن نتبع؟ هنا القرار الصعب. ولكن عمي لم يكن يريد أن يبدو مترددًا أمام الدليل وأمامي، فأشار إلى السرداب المتجه شرقًا، وسرعان ما دلفنا إليه نحن الثلاثة.

في الواقع إن التردد في اختيار أي من السردابين كان يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، إذ إنه لم يكن هناك أي مؤشر يمكن أن يحدد لنا اختيار هذا الطريق أو ذاك. كان يجب أن يكون اختيارنا معتمدًا على الصدفة البحتة.

هذا السرداب الجديد كان انحداره غير ممهد، وقطاعاته غير متساوية إلى درجة كبيرة. ففي بعض الأحيان كانت تبدو أمامنا سلسلة من الأقبية المضلعة، مثل تلك التي تجلل ممرات كاتدرائية قوطية. فنانو العصر الوسيط كانوا سيجدون هنا مجالًا لدراسة كل أشكال هذه العمارة الدينية. وبعد مسافة ميل كنا نتقدم ورؤوسنا محنية تحت سلسلة من الأقواس البارزة المنخفضة، مثل تلك التي تميز الطراز المعماري الرومانسكي، وكانت قواعد الأعمدة الضخمة تبرز من الكتلة الصخرية لتنثني تحت القباب العالية. وفي مواضع أخرى، اختفت هذه الصورة لتحل محلها هياكل تراكمية ذات ارتفاع منخفض تشبه عمل القنادس، وكنا نمر عبرها زاحفين وكأننا ننزلق عبر أحشاء ضيقة.

ظلت درجة الحرارة محتملة، ومن دون أن أشعر فكرت في الحرارة وكيف كانت شدتها في الوقت الذي كانت فيه الحمم التي ينفثها بركان السنيفيليس تجد طريقها إلى السطح، عبر هذا الطريق الذي يبدو هادئًا اليوم. تخيلت شلالات من النيران تتكسر على زوايا السرداب، وأبخرة ساخنة تتراكم داخل هذا الممر الضيق، وقلت في نفسي: «شريطة أن البركان العجوز لا تأخذه الرغبة في التعافي من سباته العميق الآن».

احتفظت بهذه الأفكار في داخلي ولم أفصح عنها إلى عمي البروفيسور ليدنبروك الذي لم يكن ليفهمها على أي حال. كان تفكيره كله منصبًّا على التقدم إلى الأمام. كان يمشي وينزلق ويتعثر أحيانًا بإيمان واقتناع، يستحق أن نرفع له القبعة إعجابًا في نهاية الأمر.

وفي السادسة مساء، وبعد رحلة قليلة المشقة، كنا قد قطعنا مسافة فرسخين في اتجاه الجنوب، ولكننا لم نزداد هبوطًا إلى أسفل سوى مسافة ربع ميل بالكاد.

وأعطى عمي إشارة بالتوقف للراحة. تناولنا الطعام من دون حديث يذكر وخلدنا إلى النوم من دون تفكير كثير.

كانت استعداداتنا للمبيت بسيطة للغاية: غطاء من تلك الأغطية التي تستخدم في الرحلات، نلتف به ونستخدمه كفراش أيضًا. لم يكن لدينا خشية من برد الليل ولا من زائر غير منتظر. لم نكن مثل الرحالة في وسط الصحاري الأفريقية، أو في قلب غابات العالم الجديد، الذي كان لزامًا على أحدهم أن يسهر لحراسة الآخرين وهم نيام. ولكن هنا، في موضعنا هذا، كانت الوحدة مطلقة والأمان تام. في هذا المكان لم يكن هناك خوف من إنسان الغاب، أو الحيوانات المتوحشة، أو أي من هذه الكائنات المؤذية.

استيقظنا في الصباح التالي ونحن في منتهى الراحة والنشاط. واستأنفنا المسير متبعين طريق الحمم مثلما فعلنا بالأمس. كان من المستحيل التعرف على طبيعة التربة في الأرض التي نعبرها، والنفق، بدلًا من أن يغوص في أحشاء الأرض، اتخذ مسارًا أفقيًّا، بل تراءى لي وكأنه يتجه بنا إلى أعلى نحو سطح الأرض. وفي نحو الساعة العاشرة صباحًا، كان هذا الأمر قد أصبح جليًّا تمامًا، وبالتالي مرهقًا للغاية إلى درجة اضطرتني إلى الإبطاء في السير. وعندما لاحظ عمي ذلك، صاح بي قائلًا بنفاد صبر واضح:

- ماذا بك يا آكسل؟

- ما بي؟ لم أعد أستطيع، تعبت.

- ماذا؟! تعبت بعد ثلاث ساعات فقط من السير في رحلة عبر طريق سهل وممهد مثل هذا؟!

- سهل نعم، لا أنكر ذلك، ولكنه طريق متعب لا شك في ذلك.

- كيف؟ كيف يكون الطريق متعبًا ونحن لا نفعل سوى الهبوط إلى أسفل؟

- بل الصعود، اسمح لي أن أنبهك إلى هذا.

- الصعود!

ردد عمي الكلمة وهو يهز كتفيه غير مبالٍ.

- بلا شك، منذ نصف الساعة تغير اتجاه المنحدرات، ولو اتبعنا هذا المسار سنعود حتمًا إلى أرض أيسلندا.

هز البروفيسور رأسه كمن لا يريد أن يصدق ما يسمع أو يقتنع به. وحاولت أن أستأنف المناقشة ولكنه لم يجبني وأعطى الإشارة بالتحرك. ولكني لاحظت أن صمته هذا لم يكن سوى تعبير عن مزاج سيِّئ. ومع ذلك، وضعت حملي على ظهري بكل شجاعة وتبعت هانز بخطوة سريعة. كنت لا أريد أن أدع مسافة كبيرة تفصلني عنه، وكان جل انشغالي منصبًّا على ألا يغيب رفيقَا الرحلة عن بصري. كنت أرتعد خوفًا من مجرد التفكير في أن أضل الطريق في أعماق هذه المتاهة.

عمومًا، لما كان الطريق الصاعد يزيدني إرهاقًا، كنت أسري نفسي بفكرة أن الصعود يقربني من سطح الأرض. كان هذا مجرد أمل تؤكده كل خطوة نخطوها. وكنت مبتهجًا أن هذا الأمل يعني قرب لقائي بمحبوبتي الصغيرة جروبن.

وفي نحو الثانية عشرة ظهرًا طرأ تغير في شكل جدران السرداب الذي نسير فيه. لاحظت هذا التغيير عندما خبا نور المصباح الكهربائي المنعكس على الجدران. فبعد أن كانت مبطنة بالحمم، أصبحت الآن مبطنة بالصخور الحية. وكانت الكتلة الصخرية مكونة من طبقات مائلة، وفي كثير من الأحيان، كانت هذه الطبقات تميل رأسيًّا. كنا في وسط مرحلة انتقالية تمامًا. نحن في قلب الحقبة السيلورية (التي سُمِّيت بهذا الاسم لأن أراضي هذه الحقبة، بكل ما يميزها، تغطي مساحات شاسعة في إنجلترا، في المقاطعات التي كانت تسكنها شعوب السيلور الكلتية) وقلت لرفيقَي:

- الأمر واضح وجلي، إن رواسب الماء قد شكلت في الحقبة الثانية من عمر الأرض، هذه الصخور وهذه الأحجار الجيرية والرملية، نحن الآن ندير ظهرنا للكتلة الصخرية الجرانيتية، نحن كمن يعيش في هامبورج ويأخذ طريق هانوفر للذهاب إلى لوبك.

كان يجب أن أحتفظ بملاحظاتي لنفسي، ولكن حماس الباحث الجيولوجي بداخلي تغلب على الحرص، وبلغت ملاحظاتي الحماسية مسامع البروفيسور فقال:

- والآن، ماذا بك يا آكسل؟

- انظر.

وأشرت إلى المتتاليات المتنوعة من الأحجار الرملية والجيرية، وإلى بشائر التربة الصخرية الأردوازية.

- إذَنْ؟

- إذَنْ نحن وصلنا إلى الحقبة التي ظهرت فيها أول نباتات وأول حيوانات الأرض.

- أتظن ذلك؟

- بالطبع، انظر وافحص وتأكد بنفسك.

ودفعت البروفيسور دفعًا إلى أن يتجول بنور مصباحه على جدران السرداب حولنا، وانتظرت صيحة مندهشة وسعيدة من جانبه. ولكن، على العكس تمامًا، لم ينطق بكلمة واحدة واستمر في طريقه.

هل فهم ما قلته أم لم يفهم؟ هل تمنعه كبرياء العالم والعم المربي أن يعترف أنه أخطأ باختيار السرداب الشرقي، أم أنه يتمسك بالسير فيه حتى نهايته؟ كان واضحًا أننا تركنا طريق الحمم البركانية، وأن الطريق الذي نسير فيه لا يمكن أن يقودنا إلى قلب السنيفيليس.

ومع ذلك انتابني الشك وسألت نفسي: «هل أبالغ في أهمية ما رأيته من تغير في شكل الأراضي المحيطة؟ هل أخطأت في تفسير ما أرى؟ هل نحن بالفعل نمر عبر هذه الطبقات من الصخور

المتراكبة فوق الكتلة الجرانيتية؟ ولو كان تفكيري صحيحًا، ألا يجب أن أعثر على بقايا لنباتات بدائية، يجب أن أستند إلى دليل، فلأبحث عن هذه البقايا إذَنْ».

ولم أكد أقطع مائة خطوة إلا وتبدت أمام ناظري الأدلة الدامغة التي أبحث عنها. بالتأكيد نظريتي صحيحة، إذ إنه في الحقبة السيلورية كانت البحار تعج بأكثر من ألف وخمسمائة نوع من الكائنات النباتية والحيوانية. وفجأة اصطدمت قدماي التي اعتادتا السير فوق سطح الحمم البركانية الصلبة، بأتربة مكونة من بقايا نباتات وأصداف. كانت بصمات طحالب الصخور ونطاف أرجل الذئب واضحة جلية على الجدران. بروفيسور ليدنبروك لا يخطئ، ولكنه على الأغلب يغمض عينيه عما يراه الآن، هذا ما قلته لنفسي وأنا أراه يسير في طريقه بالخطى السريعة المنتظمة نفسها.

لم يكن هذا سوى عنادٍ تعدَّى كل الحدود. لم أعد أحتمل المزيد. التقطت صدفة محفوظة في حالة رائعة، كانت في الأغلب تنتمي إلى حيوان يشبه ربما قمل الخشب في زماننا الحالي. ثم لحقت بعمي وقلت له:

- انظر.

وأجابني هو بكل هدوء قائلًا:

- حسنًا، هذه صدفة أحد القشريات من فصيلة التريلوبيت المنقرض (حيوان ثلاثي الفصوص)، لا أكثر ولا أقل.

- ولكن ألا يدفعك هذا إلى الاستنتاج...؟

- ما تستنتجه أنت؟ بلى. حسن جدًّا، نحن بالفعل تركنا طبقة الجرانيت وطريق الحمم البركانية. ربما أكون قد أخطأت، ولكني لن أتيقن من خطئي قبل أن أصل إلى نهاية هذا السرداب.

- أنت محق في هذا التصرف يا عمي، وكنت سأوافقك عليه بشدة لو لم نكن نواجه خطرًا يزداد تهديده أكثر فأكثر.

- ما هو؟

- نقص المياه.

- لا تقلق، سنقتصد في استهلاكنا يا آكسل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

بالفعل أصبح لزامًا علينا أن نقتصد، فطعامنا لم يعد يكفي سوى ثلاثة أيام. هذا ما تيقنت منه في المساء ونحن نتناول العشاء. والمؤسف أنه لم يكن من المرجح أن نعثر على أي مصدر حي في أراضي هذه الحقبة الانتقالية.

وفي اليوم التالي تتابعت أمامنا الأقواس التي جللت السرداب إلى ما لا نهاية. كنا نسير في صمت مطبق كما لو كان خرس هانز قد انتقل إلينا.

لم يتجه الطريق إلى الصعود بصورة ملموسة، بل على العكس اتجه إلى الانحدار في بعض الأحيان. ولكن هذا الاتجاه إلى الانحدار، ولأنه لم يكن انحدارًا ملحوظًا على أي حال، لم يكن ليطمئن البروفيسور، وذلك لأن طبيعة الطبقات ظلت كما هي ولم تشهد تغيرًا. كانت الحقبة الانتقالية للأرض تتأكد أمامنا أكثر فأكثر.

وكان ضوء المصابيح ينعكس على الصخور الزيتية والأحجار الجيرية والأحجار الرملية القديمة التي تبطن الجدران فتبدو براقة لامعة، كما لو كنا نسير في خندق مفتوح في ديفونشاير، التي أطلق اسمها على هذا النوع من الأراضي. عينات رائعة من الرخام كانت تبطن جدران السرداب، بعضها ذو لون يشبه لون العقيق الرمادي تتخلله عروق بيضاء متناثرة، والبعض الآخر قرمزي اللون أو أصفر اللون مع بقع حمراء، وإلى أبعد قليلًا كانت توجد عينات أخرى لونها مثل الكرز الداكن، يتخللها الحجر الجيري بألوانه الزاهية.

كانت مقاطع الرخام هذه يحمل معظمها آثارًا لحيوانات بدائية، وإن كانت الخليقة قد أحرزت عند هذا الحد تقدمًا واضحًا دلت عليه المشاهد التي مررنا بها منذ مساء الأمس. فبدلًا من ثلاثية الفصوص البدائية، لاحظت وجود بقايا لكائنات من رتب أكثر تطورًا، منها الأسماك الحرشفية وهذه الـ Sauropteris، التي اكتشفت فيها العين الخبيرة لعلماء الحفريات الأنماط الأولى للزواحف.

كانت البحار في الحقبة الديفونية تحوي أعدادًا كبيرة من الحيوانات التي تنتمي لهذه الفصيلة، ترسبت بالآلاف على الصخور حديثة التكوين. وكان واضحًا أننا نصعد إلى أعلى في سلم الحياة الحيوانية الذي يأتي الإنسان على قمته. ولكن البروفيسور ليدنبروك لم يبدُ عليه أنه يُعير الأمر اهتمامًا. كان ينتظر أمرين: إما أن تظهر بئر رأسية تفتح الطريق تحت قدميه لاستئناف رحلة الهبوط، وإما أن يظهر عائق يحول دون المضي في الطريق الذي نسلكه، ولكن الليل أتى من دون أن يحدث أي من الأمرين.

وفي صباح الجمعة وبعد ليلة بدأت خلالها أشعر بآلام الظمأ، انطلقت مجموعتنا الصغيرة من جديد في دهاليز السرداب ومنحنياته.

وبعد عشر ساعات من السير بدأت ألاحظ أن انعكاسات مصابيحنا على الجدران تخبو بصورة ملحوظة. اختفى الرخام والحجر الجيري والحجر الرملي المبطن للجدران، لتكتسي بدلًا من ذلك بطلاء داكن وباهت. وفي لحظة ازداد السرداب ضيقًا، استندت على جداره الأيسر، وعندما سحبت

يدي عن الجدار كانت سوداء تمامًا. تمعنت أكثر وفحصت الجدران المحيطة عن قرب، فوجدت أننا في قلب منجم للفحم فصحت قائلًا:

- هذا منجم فحم.

ورد عمي قائلًا:

- منجم بلا عمال مناجم.

- ماذا؟ من يعلم...؟

وقاطعني البروفيسور بنبرة قاطعة:

- أنا أعلم. أنا متأكد أن هذا السرداب الذي انشق وسط هذه الطبقات من الفحم لم يصنعه إنسان. ولو كان انشق بفعل الطبيعة أم لا فهذا أمر لا يهمني كثيرًا. حان الآن وقت العشاء، فلنجلس لتناول الطعام.

جهز هانز بعض الأطعمة. تناولت قليلًا من الطعام على مضض وشربت بضع قطرات من حصتي من الماء. كانت قربة الدليل ما زالت ممتلئة حتى المنتصف، وكان هذا هو كل ما تبقى من ماء ليطفئ ظمأ ثلاثة رجال.

بعد العشاء استلقى رفيقي الرحلة كل على فرشته، ووجدا في النوم علاجًا لتعبهم. أما أنا فلم أستطع النوم وبقيت أعد الساعات حتى مطلع النهار.

وفي السادسة من صباح السبت استأنفنا المسير. وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى حفرة واسعة النطاق، وأيقنت حينها أن يد الإنسان لم تكن لتقدر على حفر منجم الفحم هذا. لو كان هذا فعل إنسان لكانت الأقبية قد استندت إلى ركائز، ولكن الأقبية في الحقيقة كانت متوازنة في مكانها بإعجاز مبهر.

هذا التجويف الذي يشبه المغارة كان عرضه نحو مائة قدم، وارتفاعه مائة وخمسون قدمًا. لا بد وأن الأرض انشقت بعنف نتيجة لارتجاج حدث تحت سطحها. الكتلة الأرضية انصاعت لضغط شديد فتخلخلت تاركة هذا الفراغ الكبير الذي يخترقه الآن ولأول مرة سكان من هذا الكوكب.

كان تاريخ الحقبة الفحمية (الكربونية) كله مكتوبًا على هذه الجدران الداكنة، وكان بوسع أي جيولوجي أن يقرأ ويفسر بسهولة جمله المتنوعة. كتل الفحم كانت تفصل بينها طبقات مصمتة من الحجر الرملي أو الطيني، وبدت وكأنها مسحوقة تحت الطبقات العليا.

في هذه الحقبة من عمر الأرض والتي سبقت العصر الثانوي، غمرت الأرض مساحات هائلة من النباتات التي نتجت عن التأثير المزدوج لحرارة استوائية ورطوبة دائمة مستمرة. كان غلاف من الأبخرة يحيط بالكرة الأرضية من كافة الجوانب ويحجب عنها أشعة الشمس.

ومن هنا نستنتج أن درجات الحرارة المرتفعة لم يكن مصدرها هذا الموقد الجديد، بل ربما كوكب النهار لم يكن مستعدًّا ليقوم بدوره المبهر بعد. «المناخ» بتنوعه لم يكن موجودًا في هذه الحقبة، وحرارة شديدة انتشرت وغطت سطح الكوكب بأكمله، مساوية لخط الاستواء والقطبين معًا. من أين أتت هذه الحرارة؟ من باطن الأرض.

بالرغم من نظريات البروفيسور ليدنبروك، فإن نارًا مستعرة كانت ترقد في أحشاء الكوكب المستدير، وفعلها كان محسوسًا حتى الطبقات الخارجية للقشرة الأرضية. النباتات التي كانت محرومة من نعمة الأشعة الشمسية لم تكن تعطي زهورًا ولا روائح، ولكن جذورها امتدت لتستمد حياة قوية من الأراضي الحارقة في الأيام الأولى من عمر الكوكب.

لم تكن هناك أشجار، بل نباتات عشبية فقط، ومساحات شاسعة من الحشائش، ونبات السرخس، والنباتات الذئبية، والنباتات الختمية (السيجالاريا)، ونباتات الاستيروفيليت، وهي عائلات نادرة كانت أنواعها بالآلاف في هذا العصر.

إذَنْ فأصل الفحم يعود إلى هذا الغطاء النباتي الغزير. قشرة الكرة الأرضية المطاطة كانت تستجيب لتحركات الكتلة السائلة التي تغطيها. ومن هنا ظهرت تشققات وهبوط أرضي في أماكن عديدة. وشكّلت النباتات التي حملتها التيارات المائية تحت صفحتها أكوامًا ضخمة شيئًا فشيئًا.

ثم تداخل فعل الكيمياء الطبيعية، فتحولت كتل النبات في البداية إلى خث، ثم بفعل تأثير الغازات والسخونة الناتجة عن التخمير، خضعت هذه الكتل لعملية تمعدن كاملة، وهكذا تشكلت هذه الطبقات اللا نهائية من الفحم، والتي ستفنى بلا ريب في غضون ثلاثة قرون بسبب الاستهلاك المتنامي، لو لم تلتفت الدول الصناعية لهذا الأمر.

تتابعت هذه الأفكار في داخلي وأنا مستغرق في تأمل الثروة الفحمية الهائلة التي تراكمت في هذا الجزء من الكتلة الأرضية. بكل تأكيد لن يتم اكتشاف هذا المخزون الهائل من الفحم الذي أراه الآن، إذ إن عملية استكشاف مثل هذه المناجم العميقة تستلزم تضحيات لا قبل لأحد بها. ولم التفكير في استكشاف مثل هذا بينما الفحم موجود ومنتشر بكثرة على سطح الأرض في عدد كبير من البلدان؟ هذه الطبقات السليمة التي أراها ستبقى كما هي حتى نهاية العالم.

وفي هذه الأثناء، كنا نسير ونسير ووحدي من بين رفاق الرحلة لم ألتفت لطول المسيرة، إذ كنت مستغرقًا تمامًا في تأملاتي الجيولوجية. ظلت درجة الحرارة كما كانت في أثناء عبورنا وسط الحمم البركانية والصخور الزيتية. ولكن حاسة الشم عندي تأثرت برائحة نفَّاذة لبروتوكربون الهيدروجين. وللتوِّ تيقنت من وجود كمية كبيرة في السرداب من هذا السائل الخطير، الذي أطلق عمال المناجم عليه اسم غاز المناجم، والذي كثيرًا ما تسبب انفجاره في كوارث مخيفة.

لحسن الحظ كان مصدر الإضاءة الذي نستخدمه هو أجهزة روهمكورف العبقرية. لأننا لو كنا لجأنا في استكشافنا لهذا السرداب إلى إضاءته باستخدام الشعلات المحمولة يدويًّا لانتهى الأمر سريعًا بانفجار مروع يضع نهاية للرحلة بقتل المسافرين.

استمرت رحلتنا في سرداب الفحم حتى المساء. كان عمي يعاني في السيطرة على نفاد صبره الناتج عن أفقية الطريق. كانت الظلمة العميقة الممتدة تمنعنا من تقدير طول السرداب، وبدأت أظن أنه سرداب بلا نهاية. وفجأة في الساعة السادسة، ظهر أمامنا حائط قطع الطريق، لا يوجد مسار إلى أعلى ولا إلى أسفل، إلى اليمين أو إلى اليسار. كنا في قاع طريق مسدود.

وصاح عمي قائلًا:

- حسنًا، هذا أفضل كثيرًا. على الأقل أنا تيقنت الآن مما يواجهنا. نحن لسنا على طريق ساكنوسسيمم وليس أمامنا سوى العودة. فلنسترح هذه الليلة وقبل مضي ثلاثة أيام نكون قد عدنا إلى النقطة التي تفرقت عندها السراديب.

- نعم، لو كنا نملك ما يكفي من القوة لنفعل ذلك.

- ولم لا؟

- لأنه في الغد يكون مخزون المياه قد فرغ.

- ومخزوننا من الشجاعة، أيكون قد فرغ هو الآخر؟

أجابني البروفيسور وهو يرمقني بنظرة حادة. ولم أجرؤ على الإجابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

في الغد بدأنا المسيرة في وضح النهار. وكان يجب أن نتعجل إذ كانت مسيرة خمسة أيام تفصلنا عن نقطة التقاطع.

ولن أسهب في وصف معاناتنا في رحلة العودة، والتي تحملها عمي بثورة رجل يشعر بأنه الأقوى، وتحملها هانز باستسلام طبيعته الهادئة، وتحملتها أنا، أعترف بذلك، شكّاء بكّاء. لم أكن أقوى على مواجهة هذا الحظ السيِّئ.

وكما توقعت تمامًا، نفد الماء في نهاية اليوم الأول في مسيرة العودة، ولم يبقَ معنا من السوائل سوى شراب توت العرعر، ولكن هذا الشراب المقيت كان يحرق جوفي ولم أعد أحتمل حتى مجرد رؤيته. كنت أجد الحرارة خانقة والتعب كاد يشلني وكدت أتعثر وأقع أكثر من مرة فتوقفنا للراحة. وحاول عمي والدليل الأيسلندي أن يهونا عليَّ بقدر استطاعتهما، وإن كنت أرى عمي وهو يئن تحت وطأة التعب الشديد والعطش.

وأخيرًا في يوم 8 يوليو وصلنا شبه أموات إلى نقطة التقاء السردابين، ونحن نزحف على ركبنا وعلى أيدينا. وهناك سقطت ككتلة خاملة مستلقيًا على تربة من الحمم البركانية. كان الوقت يشير إلى العاشرة صباحًا. عمي وهانز ارتكنا إلى الجدار معًا يحاولان التهام بضع قطع من البسكويت.

أفلت أنين متواصل من شفتيَّ المتورمتين وسقطت في سبات عميق.

وبعد برهة من الوقت اقترب مني عمي ورفعني بين ذراعيه وقال بنبرة شفقة حقيقية:

- يا للصبي المسكين.

مسَّتني كلماته إذ إنني لم أعتَد حنانًا من البروفيسور الغضوب. أخذت يديه المرتجفتين بين يدي وتركني أفعل وهو يطيل النظر إليَّ. كانت عيناه تلمعان بالدموع.

ثم رأيته يأخذ قربة الماء المعلقة في جنبه، ولدهشتي الشديدة وجدته يدنيها من شفتي قائلًا:

- اشرب.

هل سمعت جيدًا؟ هل أصاب عمي جنون طارئ؟ نظرت إليه وأنا مبهوت تمامًا. لم أكن أريد أن أفهم. فقال لي ثانية:

- اشرب.

ورفع القربة وأفرغ كل ما فيها بين شفتي.

آه! أي سعادة غامرة! شربة ماء أتت لتبلل فمي الملتهب، شربة واحدة ولكنها كافية لتعيد لي الحياة التي كادت تهرب مني. شكرت عمي وأنا أضم يديه بين يدي فقال لي:

- نعم، شربة ماء، آخر شربة ماء، أتسمعني؟ الأخيرة، كنت أحتفظ بها في قاع قربتي. عشرون مرة، بل مائة مرة قاومت رغبتي المرعبة في تناولها، ولكن لا يا عزيزي آكسل، أنا كنت أحتفظ بها لك أنت.

- عمي!

همست وأنا أترك الدموع الغزيرة تبلل وجهي.

- نعم يا صغيري المسكين، كنت أعرف أننا عندما نصل إلى هذا التقاطع ستسقط شبه ميت واحتفظت بآخر قطرة ماء معي لإنعاشك.

- شكرًا، شكرًا.

حتى ولو لم ترو شربة الماء ظمئي بالكامل إلا أنها أعادت لي بعضًا من قوة. عضلات جوفي المنقبضة استرخت وخف قليلًا التهاب شفتيَّ وأصبحت أقوى على الكلام.

- استمعوا لي، الآن ليس أمامنا سوى رأي واحد ننحاز له. نحن ينقصنا الماء ويجب أن نعود أدراجنا.

بينما كنت أتكلم هكذا كان عمي يتفادى النظر إليَّ. أطرق برأسه وأشاح ببصره عني. صحت قائلًا:

- يجب أن نعود، يجب أن نعود ونتبع الطريق إلى سنيفيليس وليساعدنا الله ويمنحنا القوة لكي نتمكن من الصعود إلى قمة فوهة البركان.

ورد عمي قائلًا:

- العودة!

وكأنه يرد على تساؤل بداخله هو.

- نعم، العودة، الآن ومن دون أن نضيع لحظة أخرى.

وأجابني البروفيسور بنبرة غريبة وبعد لحظة صمت طويلة:

- أهكذا إذَنْ يا آكسل؟ ألم ترد لك قطرات الماء شجاعتك وقوتك؟

- شجاعتي!

- نعم. إني أراك محبطًا كما كنت في البداية بل إنك تردد علينا حديث اليأس والقنوط.

أي رجل هذا الذي كُتب عليَّ أن أتعامل معه، وأي خطط جريئة كان عقله ما زال يدبرها؟!

- ماذا؟! أنت لا تريد أن...؟

- التخلي عن هذه الرحلة الاستكشافية؟ في اللحظة التي كل المؤشرات تشير فيها إلى إمكانية نجاحها؟ أبدًا لن أفعل.

- هل معنى هذا أن نقبل بالهلاك؟

- كلا يا آكسل، كلا. اذهب. أنا لا أريدك أن تهلك، فليصحبك هانز ولتتركاني بمفردي.

- تريدني أن أتخلى عنك!

- اتركني، أقول لك اتركني. لقد بدأت هذه الرحلة وسأكملها حتى النهاية أو أهلك دونها. اذهب يا آكسل، اذهب.

كان عمي يتكلم بحدة زائدة. صوته الذي بدا حنونًا للحظة عاد من جديد قاسيًا ومهددًا. كان يحارب المستحيل بعزم قاتم ومظلم. لم أكن أريد أن أتخلى عنه وأتركه في قاع هذه الهاوية، ومن ناحية أخرى كانت غريزة البقاء تدفعني دفعًا للهروب.

كان الدليل يتابع المشهد بلا مبالاته المعهودة، وإن كان يفهم تمامًا ما يدور بين رفيقي رحلته. كانت حركات وإيماءات كل منا تشير إلى الطريق المختلف الذي يحاول أن يقود الآخر إليه. ولكن هانز بدا وكأنه لا يكترث بالأمر الذي يضع حياته ووجوده في مهب الريح. كان مستعدًّا للانطلاق لو أشرنا بالرحيل ومستعدًّا للبقاء استجابة لرغبة سيده.

ما الذي بوسعي أن أفعله في هذه اللحظة لكي أجعله يستمع لي؟! كلامي وأنيني ولهجتي اليائسة، كل هذا لم يكن ليمس طبيعته الباردة. هذا الدليل لم يكن لديه أدنى فكرة عن المخاطر التي نحن بصددها، وكنت على استعداد أن أبينها وأشرحها له، بل أجعله يتحقق منها بنفسه، لربما استطعنا معًا أن نقنع البروفيسور العنيد، بل وأن نحمله حملًا على الصعود إلى أعلى الفوهة لو اقتضى الأمر ذلك.

دنوت من هانز ووضعت يدي فوق يده. لم يحرك ساكنًا. أشرت إلى الطريق المؤدي إلى فوهة البركان ولكنه ظل ساكنًا. وجهي الملتاع كان يفصح عن معاناتي وهلعي. هز الأيسلندي رأسه ببطء وأشار بهدوء إلى عمي وقال:

- السيد.

- السيد!

صحت قائلًا.

- هذا جنون، كلا، إنه ليس سيدًا على حياتك، يجب أن نهرب، ويجب أن ندفعه للهرب معنا، أتسمعني، هل تفهمني؟

كنت قد أمسكت بذراع هانز لأدفعه دفعًا إلى القيام. كدت أشتبك معه وتدخل عمي قائلًا:

- الهدوء يا آكسل. لن تحصل على شيء من هذا الخادم الأمين. اهدأ واسمع هذا الذي أعرضه عليك.

عقدت ذراعي واستدرت لأواجه عمي الذي استطرد قائلًا:

- نقص المياه هو العائق الوحيد الذي يحول دون استكمال خططي. في هذا السرداب الشرقي المصنوع من الحمم والصخور الزيتية والفحم، لم نعثر على نقطة مياه واحدة. ولكن من الممكن أن نصادف حظًّا أفضل لو اتبعنا النفق الغربي.

هززت رأسي غير مصدق ما سمعت، واستمر البروفيسور يتكلم بصوت محشرج:

- اسمعني حتى النهاية. بينما أنت ملقي هنا بلا حراك، ذهبت أنا لأستطلع تراكيب هذا السرداب. هذا السرداب يتجه مباشرة إلى مركز الأرض، وفي خلال ساعات قليلة سيقودنا السرداب إلى الكتلة الجرانيتية، وهناك سنجد مصادر مياه وفيرة. طبيعة الصخر تبين هذا، والغريزة تتفق مع المنطق في مساندة اعتقادي هذا وتدعيم ما أقول. هذا هو العرض الذي أقدمه لك. حين طلب كولمبوس من فريقه ثلاثة أيام من أجل الوصول إلى الأرض الجديدة، استجاب فريقه المريض والخائف لأوامره، وبالفعل اكتشف وهم معه العالم الجديد. أنا كريستوف كولمبوس هذه المناطق الجوفية، لا أطلب منك سوى يوم واحد آخر. ولو في خلال هذا اليوم لم نعثر على الماء الذي ينقصنا، أقسم لك إننا سنعود إلى سطح الأرض.

بالرغم من كل ثورتي، مستني كلماته وتأثرت بمجاهدة عمي لطباعه حتى يخاطبني بهذا الأسلوب المخالف لطبيعته. أجبته قائلًا:

- حسنًا، فلنفعل كما تريد وليكافئك الله على حماسك ومجهودك الذي يفوق طاقة البشر. ليس أمامك سوى ساعات تجرب فيها حظك وتكتشف المصير. إلى الأمام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

بدأنا الهبوط من جديد في السرداب الآخر هذه المرة. هانز كان يسير في المقدمة كالمعتاد. ولم نكد نقطع مائة خطوة حتى صاح البروفيسور وهو يجول بضوء مصباحه على الجدران:

- ها هي الأراضي البدائية، نحن في الطريق الصحيح، هيا، هيا بنا نجد السير.

عندما بدأت الأرض تبرد شيئًا فشيئًا في الأيام الأولى، انكمش حجمها ونتج عن ذلك انفصال أجزاء من القشرة الأرضية، وتمزقات وانسحابات وتشققات في أجزاء أخرى. كان هذا الممر الذي نسير فيه عبارة عن شرخ من هذا النوع الذي كان ينسكب منه الجرانيت البركاني في الماضي. آلاف المنعطفات في هذا الممر شكلت متاهة معقدة ومتشابكة عبر التربة البدائية.

كلما نزلنا إلى أسفل تبدى لنا تتابع الطبقات التي شكلت التربة البدائية في صورة أكثر وضوحًا. علم الجيولوجيا ينظر إلى هذه التربة البدائية على أنها أساس القشرة المعدنية، وسجل أنها تتكون من ثلاث طبقات مختلفة: طبقة الشست، وطبقة صخور النايس، وطبقة الميكاشست. ترتكز كلها على هذه الصخرة التي لا تتزعزع، والتي نسميها الجرانيت.

في الواقع كانت هذه هي المرة الأولى التي يتاح فيها لباحث جيولوجي أن يتواجد في مثل هذا الظرف الرائع، وأن يدرس الطبيعة في موقعها الأصلي. كل ما لا يستطيع المسبار، هذه الآلة الغاشمة الغبية، أن ينقل ملمس نسيجه وتركيبه الداخلي إلى سطح الكرة الأرضية، كان متاحًا أمامنا، نراه بعيوننا ونلمسه بأيدينا.

طبقة الشست التي لونتها ظلال خضراء جميلة، تخللتها خيوط معدنية من النحاس والمنجنيز وبعض آثار من البلاتين والذهب. سرحت بذهني في هذه الثروة المدفونة في جوف الأرض، والتي لن يتاح للجشع البشري أن يتنعم بها. هذه الكنوز دفنتها تقلبات الأيام الأولى في هذه الأعماق السحيقة، بحيث لا يستطيع فأس أو معول أن ينتزعها من مرقدها.

وبعد طبقة الشست تتابعت طبقات النايس بتشكيل طبقي تميز بانتظامه وبتوازي وريقاته، ثم أتت طبقة الميكاشست مرتبة في صورة شرائح كبيرة تلفت النظر ببريق صخر الميكا الأبيض.

ضوء المصابيح الذي عكسته الجوانب الصغيرة للكتلة الصخرية تقاطعت أشعته في كل الاتجاهات، وتهيأ لي أني أسافر عبر حجر من الماس تتكسر في جوفه أشعة الضوء لتُحدث ألف وهج ووهج.

وفي نحو الساعة السادسة مساء، تناقصت إلى حدٍّ كبير بل شبه توقفت احتفالية الضوء، وأخذت الجدران صبغة بلورية ولكنها داكنة، إذ اختلط الميكا بصورة أعمق بالفلسبار والكوارتز ليشكل بامتياز تلك الصخرة التي هي الحجر الأكثر صلابة، تلك التي تتحمل من دون أن تتكسر الأدوار الأربعة التي تتكون منها تربة الأرض. كنا نسير داخل أسوار سجن هائل من صخور الجرانيت.

كانت الساعة الثامنة مساء وما زال الماء ناضبًا وكنت أعاني بشدة. عمي كان يسير في المقدمة لا يريد التوقف، يصيخ السمع، يترقب همسة يحدثها أي خرير للمياه ولكن لا شيء على الإطلاق.

كانت قدماي تؤلماني وساقاي تحملاني بالكاد. وبالرغم من ذلك قاومت الألم لكي لا أجبر عمي على التوقف للراحة. التوقف الآن كان بمثابة ضربة يأس قاتلة بالنسبة له إذ كاد اليوم ينتهي، وهو يومه الأخير.

وفي النهاية خانتني قوتي، صحت وأنا أسقط:

- أغيثوني، أنا أموت.

استدار عمي عائدًا. وقف أمامي عاقد الذراعين. أطال النظر إليَّ ثم ندت عنه هذه الكلمات الصماء:

- انتهى كل شيء.

وأطاح بيده في إشارة غاضبة مخيفة كانت آخر ما لمحته قبل أن أغمض عينيَّ. وعندما فتحتهما من جديد، لمحت رفيقا رحلتي راقدين بلا حراك وكل منهما ملفوف في غطائه. هل هما نائمان؟ أما أنا فلم أتمكن من النوم ولو للحظة واحدة. كنت أتألم بشدة وزاد ألمي يقين لا يقبل الشك أنه ألم بلا علاج ولا دواء. ظلت كلمات عمي الأخيرة تتردد في أذني «انتهى كل شيء»، لأنه في حالة الضعف التي نحن عليها كان الصعود إلى سطح الأرض حلمًا بعيد المنال، إذ كان يفصلنا عن السطح فرسخ ونصف من القشرة الأرضية.

بدا لي وكأن هذه الكتلة تطبق بكل وزنها على صدري. شعرت وكأن الصخور قد سحقتني، وبذلت جهدًا كبيرًا لأعتدل على فراشي الجرانيتي.

مضت ساعات قليلة كان فيها الصمت يطبق علينا جميعًا، صمت مثل صمت القبور. لا شيء يحدث عبر هذه الجدران السميكة.

وبالرغم من ذلك تهيأ لي في غفوتي أني أسمع صوتًا. كانت الظلمة داخل النفق قد ازدادت وطأتها، فنظرت بعناية أكثر وخيل إليَّ أني أرى الأيسلندي يغيب حاملًا مصباحه.

لم هذا الرحيل؟ هل يتخلى عنا هانز؟ كان عمي نائمًا. أردت أن أصيح ولكن صوتي لم يطاوعني. أصبح الظلام حولي دامسًا وخفتت كل الأصوات. وأخيرًا صحت قائلًا:

- هانز يتخلى عنا ويتركنا. هانز، هانز.

لكن صوتي كان في داخلي ولم يتعدَّ حدود الشفاه فلم يسمعني أحد. ولكن بعد أن مضت لحظة الرعب الأولى، خجلت من سوء ظني بالرجل الذي كان سلوكه مثاليًّا ولم يفعل ما يثير الشك منذ أن عرفناه. رحيله ليس هروبًا بكل تأكيد. لو كان يخطط للهروب لاتجه إلى أعلى وليس إلى أسفل. طمأنني هذا الخاطر قليلًا وبدأت أفكر في اتجاه آخر. هانز رجل هادئ، بالتأكيد هاجس خطير هو الذي استطاع أن ينتزعه من رقاده. هل انطلق مستكشفًا؟ هل سمع في الليل الصامت همسًا لم يبلغ أذنيَّ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

بقيت ساعة أتخيل في هذياني كل الأسباب التي يمكن أن تجعل الصياد الهادئ يفعل ما فعل، وتشابكت في رأسي أكثر الأفكار عبثية وخُيِّل إليَّ أني أصبت بالجنون.

ولكن في النهاية ترامي إلى مسامعي صوت خطوات آتية من أعماق الهاوية. هانز يصعد عائدًا إلينا. وبدا ضوء متردد ينزلق على الجدران ثم بزغ ساطعًا في فتحة الممر وظهر هانز.

اقترب من عمي ووضع يده على كتفه ليوقظه بهدوء. واعتدل عمي قائمًا من رقدته وتساءل قائلًا:

- ماذا حدث؟

وأجابه الصياد:

- Vatten.

ربما جعل الألم الشديد كل منا عالمًا بلغات متعددة، إذ إنني أنا الذي لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الدنماركية، أدركت بالغريزة معنى الكلمة التي نطق بها دليلنا لتوِّه فصحت قائلًا وأنا أرفع ذراعي ابتهاجًا:

- الماء، الماء.

والتفت عمي إلى الدليل الأيسلندي متسائلًا:

- الماء؟ أين؟

قالها باللغة الدنماركية. وأجابه هانز:

- Nedat.

أين؟ إلى أسفل! كنت أفهم كل كلمة. أمسكت بيدَي الصياد أشد عليهما بينما هو ينظر إليَّ بكل هدوء.

ولم نُضِع وقتًا طويلًا في الاستعداد للتحرك، وسرعان ما هبطنا في ممر بلغ انحداره قدمين لكل توايز (مقياس طول ثواني البندول). وبعد ساعة كنا قد قطعنا نحو ألف توايز ونزلنا ألفي قدم إلى أسفل.

وفي هذه اللحظة سمعنا بوضوح صوتًا غير معتاد يجري في جوانب الجدار الجرانيتي، نوع من الهدير الأصم كما لو كان صوت رعد بعيد. في النصف ساعة الأولى من السير سيطر عليَّ القلق من جديد إذ إننا لم نعثر على مصدر الماء المنشود. شعرت بالخوف يتصاعد في داخلي، ولكن عمي شرح لي مصدر الصوت الذي نسمعه:

- هانز لم يخطئ. ما تسمعه الآن هو هدير سيل.

- سيل من المياه؟

- بلا أدنى شك. نهر تحت الأرض يجري من حولنا.

أسرعنا الخطى يدفعنا الأمل والرجاء. لم أعد أشعر بالتعب. كان صوت الماء الرقراق ينعشني قبل أن أراه. السيل المنهمر، بعد أن ظل طويلًا محبوسًا فوق رؤوسنا، كان الآن يجري في الجدار الأيسر، يهدر ويخور صاخبًا. مررت بيدي فوق صخر الجدار مرات ومرات بأمل أن أتلمس آثار تسرب أو رطوبة بلا طائل.

ومضت نصف ساعة أخرى قطعنا فيها نصف فرسخ. وبدا من الواضح أن الصياد لم يتعدَّ هذه المرحلة من البحث في الفترة التي غاب عنا فيها. مدفوعًا بالحاسة التي تميز سكان الجبال، هذا المجهر الذي بداخلهم، «شعر» هانز بهذا السيل يجري داخل الصخر، ولكنه بكل تأكيد لم يرَ قَطُّ السائل الثمين بعينه ولم يشرب منه قطرة واحدة.

وسرعان ما أصبح جليًّا أننا لو استمررنا في السير سنزداد بعدًا عن السيل المنهمر الذي كان هديره قد بدأ يخفت شيئًا فشيئًا.

عدنا أدراجنا وتوقف هانز في الموقع المحدد الذي بدا فيه صوت الهدير أكثر قربًا.

جلست بالقرب من الجدار بينما الماء يجري بل يندفع على بعد قدمين مني، لكن ما زال جدار من الجرانيت يحول بيننا وبينه.

من دون تفكير ومن دون أن أسأل نفسي لو كانت هناك وسيلة يمكن أن تتيح لي الحصول على هذا الماء، تركتني أنزلق إلى اليأس من جديد.

نظر إليَّ هانز وخيل لي أني أرى على شفتيه شبح ابتسامة.

وقف وأمسك بمصباحه وتبعته. سار هانز متوجهًا نحو الجدار. رأيته يلصق أذنه بالصخر الجاف ويجول بها على الجدار ببطء وبانتباه بالغ. فهمت أنه يبحث عن النقطة المحددة التي يأتي صوت السيل فيها أكثر صخبًا. هذه النقطة وجدها في الجدار الجانبي الأيسر على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض. تأثرت تأثرًا شديدًا. لم أجرؤ على تخمين ما الذي كان الصياد يريد أن يفعله، ولكني فهمت وشجعته وربتُّ على ظهره شاكرًا عندما رأيته يمسك بمعوله لينهال به على الجدار الصخري، وصحت قائلًا:

- لقد نجونا.

وردد عمي قولي بشكل محموم:

- نعم، نجونا. هانز كان محقًّا. آه! الصياد الطيب الشجاع كان على حق، لم نكن لنعثر على الماء لولاه.

كان محقًّا تمامًا. هذه الوسيلة على بساطتها لم تكن لتخطر لنا على بال. لم يكن هناك أخطر من ضربة معول توجه إلى بنيان هو أساس الكرة الأرضية. ماذا لو حدث انهيار أرضي وسحقنا تحته؟! وماذا لو اندفع السيل من بين الصخور فأغرقنا؟! هذه مخاطر حقيقية وليست محض خيال، ولكن الخوف من الانهيارات الأرضية وفيضان السيل لم يكن ليوقفنا. كان ظمأنا شديدًا لدرجة تجعلنا نحفر في قاع المحيط ذاته لنطفئه.

وبدأ هانز العمل الذي لم نكن أنا وعمي لنقدر على إتيانه معًا. كنا نافدَي الصبر للدرجة التي قد تجعل الصخر يطير في كل اتجاه تحت ضربات معاولنا المتعجلة، بينما الدليل كان على العكس، هادئًا ومتوازنًا، كسر الصخر شيئًا فشيئًا بضربات معول صغيرة متكررة، حفرت فتحة بلغت نصف قدم. وسمعت صوت خرير السيل يتعالى، وخيل إليَّ أني أشعر بالماء المحيي يبلل شفتيَّ.

وسرعان ما وصل المعول إلى عمق قدمين داخل الجدار الجرانيتي، واستغرق هانز في عمله المضني لأكثر من ساعة كاملة. كنت نافد الصبر، عمي كان يريد اللجوء إلى الوسائل الكبيرة للإسراع بالعمل، ووجدت صعوبة في إيقافه. كان قد أمسك بمعوله بالفعل عندما ترامى إلى مسامعنا صوت صفير مفاجئ، وأتى الماء مندفعًا من الجدار حتى ارتد من الجدار المقابل.

وأما هانز الذي كاد اندفاع الماء أن يوقعه، فقد ندت عنه صيحة ألم لم يستطع أن يكتمها، فهمت سببها عندما وضعت يدي تحت الشلال السائل وأطلقت أنا الآخر صيحة تعجُّب عنيفة. كان الماء يغلي. وصحت قائلًا:

- الماء درجة حرارته مائة درجة مئوية.

- حسن، سوف يبرد سريعًا.

هكذا أجاب البروفيسور.

امتلأ الممر بالأبخرة بينما تكون أخدود جرى فيه الماء في طريقه للاختفاء في التعريجات الجوفية. وسرعان ما نهلنا منه شربتنا الأولى.

آه! أي سعادة! وأي متعة لا تضاهيها متعة! ما هذا الماء؟ ومن أين يأتي؟ لا يهم. يكفي أنه ماء، وحتى وإن كان ما زال ساخنًا بعض الشيء، إلا أنه أعاد إلى القلب حياة كادت تهرب منه. كنت أنهل من الماء من دون توقف ومن دون أن أنتبه لمذاق ما أشربه.

وبعد دقيقة واحدة من الفرح صحت قائلًا:

- هذه مياه حديدية.

وأتى رد عمي سريعًا:

- مياه ممتازة للمعدة، بها مكون معدني عالي التركيز، رحلتنا هذه أفضل من رحلة إلى منتجع صحي.

- آه، كم هو حسن المذاق هذا الماء!

- بالتأكيد، فهو ماء مصدره فرسخان تحت سطح الأرض، ماء له مذاق يشبه مذاق الحبر ولكنه مذاق مقبول جدًّا. مصدر للماء رائع وفَّره لنا هانز. وأنا أقترح أن نطلق اسمه على هذا الأخدود الذي أعاد لنا الحياة.

وصحت موافقًا:

- حسن جدًّا.

وهكذا اعتمدنا اسم «هانز-باخ» اسمًا للأخدود.

وامتلأ هانز فخرًا وبعد أن أنعش بدنه بالماء عاد يجلس في هدوئه المعتاد في أحد الأركان.

- والآن، يجب ألا ندع هذا الماء يضيع.

- وما الداعي؟!

قال البروفيسور.

- أنا أتخيل أن مصدر هذا الماء هو مصدر لا ينضب.

- لا يهم، فلنملأ القرب كلها ثم نغلق الفتحة التي يأتي منها الماء.

وبالفعل نفذنا النصيحة التي فكرت فيها. حاول هانز أن يسد الفتحة التي أحدثها في الجدار مستخدمًا شظايا من الجرانيت وقطعًا من الحبال. ولكن الأمر لم يكن سهلًا وكادت أيدينا تحترق من الماء الساخن من دون أن ننجح في مهمتنا، فضغطُ الماء كان شديدًا وظلت جهودنا بلا طائل.

واستنتجت قائلًا:

- من الواضح أن الطبقات العليا من هذا الشلال تقع على ارتفاع كبير، والدليل قوة اندفاع المياه من الفتحة التي أحدثها هانز.

- هذا ما لا شك فيه.

واستطرد عمي قائلًا:

- لدينا هنا ألف وحدة ضغط لو كان هذا العمود من الماء يأتي من ارتفاع قدره اثنان وثلاثون قدمًا. ولكن واتتني فكرة.

- وما هي؟

- لماذا نصمم على سد هذه الفتحة؟

- ولكن، يجب أن نسدها بسبب...

ولم أجد سببًا مقنعًا أقوله له.

- هل نحن واثقون من وجود مصدر آخر للماء نملأ منه القرب التي نحملها عندما تفرغ؟

- كلا.

- حسن، فلنترك هذا الماء يجري. سينساب شلال المياه بطبيعته ليكون دليلًا لهؤلاء الذين سيرتوون منه في رحلتهم.

صحت موافقًا:

- هذا تفكير سليم جدًا، وعندما يكون هذا الجدول رفيق رحلتنا، لن يكون هناك سبب يمنعنا من النجاح في مهمتنا.

- أرأيت يا بني؟

ضحك عمي سعيدًا بما قلت.

- نعم، نعم. أنا معك تمامًا.

- ولكن انتظر، دعونا نأخذ بضع ساعات من الراحة.

نسيت أن الليل قد أتى ولكن الكرونوميتر نبهني لقدومه. وسرعان ما غط كل منا في نوم عميق بعد أن شبع وارتوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

في صباح اليوم التالي كنا قد نسينا متاعب وأوجاع الفترة الماضية. وتعجبت عندما وجدت أني لا أشعر بالظمأ وتساءلت عن السبب وتولى الإجابة الجدول الرقراق الذي يجري تحت قدميَّ.

تناولنا الطعام وشربنا من هذا الماء الحديدي الرائع. شعرت بأني سعيد ومتحمس للذهاب إلى أبعد مدى في هذه الرحلة. لم لا ينجح رجل مثل عمي مقتنع بما يفعل ومعه دليل ممتاز مثل هانز وابن أخ «مصمم على النجاح» مثلي أنا؟ هذه هي الأفكار النورانية التي تواترت في خاطري في هذا اليوم، ولو عرض عليَّ حينها أن أصعد إلى قمة فوهة السنيفيليس لرفضت بكل استياء وغضب. ولكن لحسن الحظ لم تكن هذه الفرضية واردة، فخيارنا الوحيد كان مواصلة الهبوط إلى أسفل.

«هيا بنا» ترددت صيحتي الحماسية لتوقظ أصداء قديمة في جنبات الأرض.

في تمام الثامنة صباح الخميس استأنفنا المسير. كان سرداب الجرانيت يلتف بمسارات متعرجة ومنحنيات غير متوقعة شكلت متاهة متشابكة، ولكن في العموم كان اتجاهه الرئيسي إلى الجنوب الشرقي. لم يتوقف عمي طوال الوقت عن مراجعة بوصلته بعناية واهتمام فائق لكي يتأكد من الطريق الذي قطعناه.

كان السرداب يغوص في اتجاه شبه أفقي بمنحنى مقداره بوصتان لكل توايز تقريبًا، وكان الجدول ينساب من دون إسراع في همهمة محببة تحت أقدامنا، مما دفعني لأشبهه بجني أليف يرافقنا ليدلنا على الطريق عبر كوكب الأرض، وطفقت أداعب بيدي عروس النهر التي رافق شدوها خطانا في هذه الرحلة. وهكذا اتخذ مزاجي الطيب مسارًا أسطوريًّا عن طيب خاطر.

أما عن عمي، وهو رجل «الطرق الرأسية» فقد كان يرغي ويزبد لاعنًا أفقية الطريق الذي امتد إلى ما لا نهاية، وبدلًا من أن ينزلق بطول نصف قطر الأرض كان يسير تبعًا لوتر الكرة الأرضية، هذا ما قاله عمي. ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر. لا يجب أن نشكو ما دمنا نتقدم ولو قليلًا نحو باطن الأرض. علاوة على ذلك، كانت المنحنيات ما بين الحين والآخر تنخفض إلى أسفل، ومعها تتدحرج عروس النهر وهي تخور هادرة ونحن معها نهبط إلى أعمق.

في العموم قطعنا هذا اليوم واليوم التالي طريقًا أفقيًّا في أغلبه ورأسيًّا نسبيًّا فيما هو أقل.

وفي مساء الجمعة 10 يوليو، وطبقًا لتقديراتنا، كنا على بعد ثلاثين فرسخًا من ريكيافيك في اتجاه الجنوب الشرقي على عمق فرسخين ونصف الفرسخ.

وانفتحت تحت أقدامنا بئر مخيفة. ولم يتمالك عمي نفسه من التصفيق وهو يحسب زوايا انحداراته. وصاح قائلًا:

- هذا هو الطريق الذي سيقودنا إلى بعيد وبكل سهولة، حيث إن صخوره البارزة تشكل سلمًا حقيقيًّا.

وضع هانز الحبال بحيث تحول دون وقوع أي حادث. وبدأت رحلة الهبوط التي لا يسعني أن أصفها بالخطيرة، إذ إنني كنت الآن على دراية بهذا النوع من التمارين.

كانت هذه البئر عبارة عن شق ضيق في الكتلة الصخرية نسميه نحن «صدعًا»، نتج على الأغلب من تقلص القشرة الأرضية في حقبة التبريد. ربما كان هذا الصدع في الماضي هو الطريق الذي انفتح لتمر عبره الحمم البركانية التي يتقيأها السنيفيليس. ولكن لو كان الأمر هكذا، لماذا إذَنْ لم تترك هذه الحمم أي آثار على جدرانه؟! كنا نهبط فيما يشبه مفكًّا يخيل لمن يراه أنه من صنع البشر.

كان يجب علينا أن نتوقف كل ربع ساعة للراحة وإتاحة الفرصة لمفاصل أقدامنا لتسترد مرونتها. كنا نجلس على أي نتوء صخري نأكل ونتحدث معًا ونرتوي من ماء الجدول الذي يصاحبنا.

وغني عن القول أنه في هذا الصدع تحول الهانز-باخ إلى شلال وقل حجمه، ولكنه كان كافيًا ليروي ظمأنا. وعلى أي حال، سيكون بوسعه أن يستأنف سريانه الهادئ مع المنحدرات الأقل حدة. ذكرني هذا الجدول في هذه اللحظة بعمي المهيب بصبره النافد ونوبات ثورته، بينما كان في أثناء سريانه عبر المنحدرات الناعمة أكثر شبهًا بالصياد الأيسلندي في هدوئه وصمته.

وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر من يوليو، أكملنا المسير متبعين المسار الحلزوني لهذا الصدع، ونفذنا إلى عمق فرسخين آخرين في القشرة الأرضية، بما يعادل تقريبًا مسافة خمسة فراسخ تحت مستوى سطح البحر.

وفي الثالث عشر من يوليو عند الظهر، اتخذ الصدع في اتجاه الجنوب الشرقي انحدارًا أقل حدة بكثير بنحو خمس وأربعين درجة تقريبًا، وأصبح الطريق أكثر سهولة ورتابة أيضًا. كان من الصعب أن يكون الأمر غير ذلك. الرحلة كانت متغيرة بقدر تغير مناظر الطبيعة من حولنا.

وأخيرًا، في يوم الأربعاء الخامس عشر من يوليو، كنا قد وصلنا إلى عمق بلغ سبعة فراسخ تحت سطح الأرض وسبعين فرسخًا تقريبًا من قمة السنيفيليس. وبالرغم من شعورنا بإرهاق بسيط، فإن وضعنا الصحي كان مطمئنًا ولم نحتَج لاستخدام أي من الأدوية التي حملناها معنا.

كان عمي يستطلع كل ساعة مؤشرات البوصلة والكرونوميتر والمانوميتر والترموميتر، ويسجلها في السجل العلمي لرحلته. وبالتالي كان من السهل عليه أن يكون على معرفة دقيقة بموقعه. وعندما أخبرني أننا قطعنا مسافة خمسين فرسخًا أفقيًّا، لم أستطع أن أكتم صيحة تعجب جعلته يتساءل:

- ماذا بك؟

- لا شيء، فقط أفكر في أمر ما.

- وما هو هذا الأمر يا بني؟

- الأمر هو أنه لو كانت حساباتك دقيقة، لا يكون موقعنا الحالي أسفل أيسلندا.

- أتظن ذلك؟

- من السهل أن نتأكد من الأمر.

وأخذت قياساتي مع البوصلة على الخريطة وأردفت قائلًا:

- أنا لم أخطئ التقدير. نحن تعدينا رأس بورتلاند وهذه الفراسخ الخمسون في اتجاه الجنوب الشرقي تجعل موقعنا في المحيط.

- بل تحت المحيط.

عقَّب عمي مصححًا وهو يفرك يديه.

- هكذا الأمر إذَنْ، المحيط يمتد فوق رؤوسنا.

- وماذا في هذا يا آكسل؟! هذا أمر طبيعي تمامًا، ألا توجد في نيوكاسل مناجم للفحم تمتد تحت الأمواج؟

كان بوسع البروفيسور أن يجد الأمر بسيطًا وطبيعيًّا للغاية، ولكن فكرة أننا نتجول تحت كتلة من الماء لم تفتأ تشغل بالي وتخيفني.

ومع ذلك لم يكن الأمر يختلف كثيرًا لو أن ما فوق رؤوسنا كان جبال وسهول أيسلندا، أو أمواج المحيط الأطلنطي، ما دام الهيكل الجرانيتي صلبًا. وفي نهاية الأمر تقبلت الفكرة وألفتها سريعًا، إذ إن السرداب الذي كان يعتدل حينًا ويلتوى ويلتف حينًا آخر كان متقلبًا غير ثابت في منحدراته كما في منعطفاته، ولكنه في كل الأحوال كان يتجه بنا نحو الجنوب الشرقي، ويهبط بنا إلى أسفل أكثر وأكثر. كان السرداب في كل أحواله يقودنا إلى أعماق سحيقة بسرعة ملحوظة.

وبعد مرور أربعة أيام، وفي مساء السبت الثامن عشر من يوليو، وصلنا إلى ما يشبه مغارة واسعة. وقرر عمي أن الغد سيكون يومًا للراحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

استيقظت صباح الأحد غير منشغل بحتمية الرحيل الفوري كما في الأيام السابقة، وكان ذلك مدعاة لشعور عميق بالراحة بالرغم من وجودنا في أعماق هذه الهوة السحيقة. على أي حال، نحن جُبلنا على حياة الكهوف هذه، ولم أعد أفكر في الشمس ولا القمر ولا الأشجار ولا المنازل ولا المدن، ولا كل هذه الأشياء الدنيوية الزائدة عن الحاجة، والتي لا يفتأ الكائن المعتاد على الحياة تحت ضوء القمر، يشغل باله بها، ويعتبرها من أساسيات حياته. أما نحن، بوصفنا من الحفريات، فقد تأهلنا تمامًا لنسيان هذه العجائب التي لا طائل من ورائها.

كان الكهف على شكل بهو كبير، والجدول الأمين كان ينساب بهدوء على أرضيته الجرانيتية. في هذا المكان الذي يبعد كثيرًا عن مصدره فقدت مياه الجدول سخونتها، وأصبحت درجة حرارتها مناسبة تمامًا، وصرنا نشربها بسهولة ويسر.

وبعد الغداء أراد البروفيسور أن يخصص بضع ساعات يعيد فيها ترتيب ملاحظاته اليومية، فقال:

- في البداية، سوف أجري عمليات حسابية لأحدد موقعنا بدقة. أنا أريد عند عودتنا أن أتمكن من رسم خريطة لرحلتنا هذه. خريطة تشبه مقطعًا أفقيًّا لكوكب الأرض يكون بمثابة تعريف لبعثتنا الاستكشافية.

- سيكون هذا أمرًا مشوقًا ومثيرًا جدًّا يا عمي، ولكن هل ستتسم ملاحظاتك بالدرجة المطلوبة من الدقة؟

- نعم. لقد سجلت بعناية الزوايا والمنحدرات. وأنا واثق أني لم أخطئ. فلنرَ في البداية أين نحن الآن. أمسك بالبوصلة ولاحظ الاتجاه الذي تشير إليه.

نظرت إلى البوصلة وبعد أن تفحصتها بعناية أجبته قائلًا:

- شرق- ربع- جنوب- شرق.

- حسن.

أجاب البروفيسور وهو يدون الملحوظة ويجري بعض حسابات سريعة. واستنتجت أننا قطعنا خمسة وثمانين فرسخًا منذ نقطة البداية.

- إذَنْ فنحن نسافر تحت المحيط الأطلنطي؟

- تمامًا.

- وربما في هذه اللحظة تنطلق عاصفة وتهتز السفن فوق رؤوسنا بفعل الموج والإعصار؟

- هذا جائز.

- وتأتي الحيتان لتضرب بذيولها جدران سجننا هذا؟

- اطمئن يا آكسل، لن تستطيع الحيتان أن تهز هذه الجدران. فلنعد إلى حساباتنا. نحن في الجنوب الشرقي، على بعد خمسة وثمانين فرسخًا من قاعدة السنيفيليس، وطبقًا لملاحظاتي السابقة أتوقع أن نكون قد وصلنا إلى عمق ستة عشر فرسخًا.

- ستة عشر فرسخًا!

- بلا أدنى شك.

- ولكن هذا هو الحد الأقصى الذي حدده العلم لسمك القشرة الأرضية.

- بالضبط.

- وبالتالي، وطبقًا لقاعدة الحرارة المتصاعدة، كان يجب أن تكون درجة الحرارة هنا ألفًا وخمسمائة درجة.

- كان يجب، يا بني، كان يجب.

- وهذا الجرانيت كله، كان يجب ألا يكون محتفظًا بحالته الصلبة بل أن يكون في حالة انصهار كامل.

- وكما ترى الوضع ليس كذلك بل يأتي الواقع، كما هو الحال دائمًا، ليُكذب النظريات كلها.

- أنا مضطر للإقرار بصحة ما تقول ولكني مندهش.

- إلام يشير الترمومتر؟

- يشير إلى ست وعشرين، وست من عشر درجة.

- بما يقل بمقدار ألف وأربعمائة وأربع وسبعين وأربع من عشر درجات عما حدده العلماء. وبالتالي فإن تصاعد الحرارة طرديًّا هو نظرية خاطئة. إذَنْ همفري ديفي لم يكن مخطئًا وأنا كنت محقًّا في الاستماع إليه. ما ردك على هذا كله؟

- لا شيء.

في الحقيقة كان لديَّ الكثير لأقوله. لم أكن أقر نظرية ديفي على الإطلاق، وكنت متمسكًا تمامًا بحرارة المركز حتى لو كنت لا أشعر بأي تأثير لهذه الحرارة في هذه اللحظة.

في الحقيقة كنت أفضل الإقرار بأن مدخنة البركان الخامد هذه، والتي تبطنها الحمم البركانية بطلاء عاكس، لا تسمح للحرارة بالتسلل والانتشار عبر جدرانها.

ولكني اكتفيت بقبول الأمر كما هو من دون أن أتوقف عن البحث عن دفوع جديدة. واتجهت إلى عمي قائلًا:

- يا عمي، أنا أعتبر أن كل حساباتك سليمة، ولكن اسمح لي أن أستنبط منها نتيجة قوية.

- تفضل يا بني، هات ما عندك.

- في الموقع الذي نحن فيه الآن، تحت خط عرض أيسلندا، يكون نصف قطر الأرض ألفًا وخمسمائة وثلاثة وثمانين فرسخًا تقريبًا، أليس كذلك؟

- ألف وخمسمائة وثلاثة وثمانون فرسخًا وثلث الفرسخ.

- فلنفرض أنه ألف وستمائة فرسخ. نحن قطعنا ستة عشر فرسخًا فقط من رحلة طولها ألف وستمائة فرسخ؟

- صحيح ما تقول.

- وذلك على حساب خمسة وثمانين فرسخًا قطريًّا؟

- تمامًا.

- في عشرين يوم تقريبًا؟

- نعم في عشرين يوم.

- إذَنْ فستة عشر فرسخًا هي واحد في المائة من نصف قطر الأرض. لو استمررنا هكذا، يلزمنا ألفي يوم بما يعادل خمس سنوات ونصف السنة لنهبط إلى المركز.

ولم يجب البروفيسور.

- من دون أن نحسب أن رأسية طولها ستة عشر فرسخًا يلزمها أفقية طولها ثمانون فرسخًا، يعني ثمانية آلاف فرسخ في اتجاه الجنوب الشرقي، وبالتالي نكون قد خرجنا خارج محيط الأرض بزمان قبل أن نصل إلى مركزها.

- فلتذهب حساباتك إلى الجحيم.

ثار عمي قائلًا وهو يشيح بيده غاضبًا.

- فلتذهب هذه الفرضيات كلها إلى الجحيم، إلام تستند؟ ما الذي يجعلك تعتقد أن هذا السرداب لا يؤدي مباشرة إلى ما نريد الوصول إليه؟ أنا عندي دليل. ما أقوم به الآن قام به شخص آخر من قبل. وما نجح فيه سأنجح فيه أنا أيضًا.

- أتمنى ذلك. ولكن في النهاية أنا من حقي أن...

- من حقك أن تصمت يا آكسل. هذا هو ما يجب أن تفعله عندما تحيد عن التفكير السليم هكذا.

بدا جليًّا أن البروفيسور الرهيب على وشك أن يخرج من جلد العم الطيب. التزمت الصمت واستطرد هو قائلًا:

- والآن افحص المانوميتر. إلَام يشير؟

- يشير إلى ضغط ملحوظ.

- حسن. أنت ترى أننا عندما نهبط ببطء نتعود تدريجيًّا على كثافة الغلاف الجوي ولن نعاني من ضغطه مطلقًا.

- بالضبط، سوى آلام طفيفة في الأذن.

- هذه الآلام لا شيء. وسوف تجعل هذا الألم يختفي لو جعلت الهواء الخارجي يتواصل سريعًا مع الهواء المحبوس في رئتيك.

- بكل تأكيد.

كنت قد قررت أن أتوقف عن مجادلة عمي فاستطردت قائلًا:

- بل إن هناك لذة حقيقة في إحساس المرء بأنه يغوص داخل هذا الجو الأعلى كثافة. هل لاحظت يا عمي الشدة التي ينتشر بها الصوت هنا؟

- بلا شك. الأصم لو وُجد هنا لسمع كل ما حوله بجلاء تام.

- ولكن هذه الكثافة ستتزايد من دون شك؟

- نعم، طبقًا لقانون غير محدد تمامًا. صحيح أن شدة الجاذبية ستقل كلما هبطنا. أنت تعلم بالطبع أن تأثير الجاذبية تشعر به أكثر وأنت على سطح الأرض، وأنه في مركز الأرض لا يكون للأشياء وزن.

- نعم أعرف هذا ولكن قل لي، هذا الهواء هل سيكتسب نفس كثافة الماء في النهاية؟

- بلا أدنى شك، تحت ضغط قدره سبعمائة وعشر درجة

- وإلى أسفل من ذلك؟

- إلى أسفل، ستزداد هذه الكثافة أكثر فأكثر.

- وكيف سنهبط إذَنْ؟

- سنضع بعض الحصى في جيوبنا.

- يا عمي، أنت تملك إجابة لكل سؤال.

لم أكن أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك في البحث في الفرضيات، لأنني لو فعلت لاصطدمت بمستحيلات أخرى من شأنها أن تثير ثائرة البروفيسور.

ومع ذلك كان واضحًا أنه تحت ضغط يمكن أن يصل إلى آلف وحدة قياس ضغط ومضاعفاتها، سينتهي الأمر بأن يتحول الهواء إلى حالة الصلابة. وفي هذه الحالة ولو استطاعت أجسامنا المقاومة إلى حينها، سيتعين علينا أن نتوقف أيًّا كانت الدفوع التي يسوقها البروفيسور.

ولكني لم أفصح عن هذا الاستنتاج. لأني لو فعلت لرد عليَّ عمي مجادلًا ومستندًا إلى ساكنوسسيمم، دليله الأبدي ورحلته السابقة التي لا قيمة لها في رِأيي، لأننا لو اعتبرنا رحلة العالم الأيسلندي حقيقة

ثابتة، فإن الرد على هذه الحقيقة يكون بسيطا وسهلًا:

في القرن السادس عشر، لم يكن الباروميتر ولا المانوميتر قد تم اختراعهما بعد. كيف تسنى لساكنوسسيمم إذَنْ أن يحدد ما إذا كان قد وصل إلى مركز الأرض بالفعل؟

ولكني احتفظت بهذا الاعتراض لنفسي وانتظرت الأحداث.

أمضينا بقية اليوم في الحسابات والنقاشات التي التزمت فيها صف البروفيسور ليدنبروك وأنا أحسد هانز على عدم اكتراثه بالأمر كله، إذ كان لا يبحث عن الدوافع والأسباب بل كان يترك نفسه مغمض العينين للأقدار تقوده إلى حيث تريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

يجب أن أعترف أن الأمور سارت بصورة طيبة حتى الآن، ولم يكن لديَّ ما أشكو منه. لو استمرت الأمور بهذه الوتيرة ولم يتصاعد منحنى «الصعوبات»، فسيكون وصولنا إلى غايتنا محسومًا حتمًا. وأي مجدٍ حينئذٍ! ها أنا قد بدأت أفكر بطريقة ليدنبروك. ولكن هل هذا يرجع إلى المجال الغريب الذي أصبحت أعيش فيه؟ ربما.

قطعنا في بضعة أيام منحدرات سريعة، كان بعضها رأسيًّا لدرجة مخيفة، أخذتنا إلى أعماق الكتلة الداخلية. وفي بعض الأيام كنا نتقدم فرسخًا ونصف إلى فرسخين في اتجاه المركز. كان الهبوط خطيرًا ومخيفًا لكن مهارة هانز وثباته الانفعالي كان لهما أفضل الأثر وأفادانا كثيرًا. هذا الأيسلندي البارد كان يتفانى في عمله ببساطة عصية على الفهم، وبفضله تعدينا صعوبات كثيرة لم نكن لنقوى عليها بمفردنا.

كان صمت هانز يزداد يومًا بعد يوم. وأعتقد أن صمته أصابنا وانتقل إلينا نحن أيضًا، فالأشياء الخارجية لها تأثير حقيقي على العقل، فمن يحبس نفسه بين جدران أربعة ينتهي به الأمر إلى أن يفقد حاسة التواصل بين الأفكار والكلمات، وكم من سجين في زنزانة منفردة أصابه البله أو الجنون بفعل عدم ممارسة فضيلة التفكير والتواصل.

خلال الأسبوعين اللذين تليا آخر حديث دار بيننا لم يحدث ما يستحق أن يذكر. ولا أجد في ذاكرتي سوى حدث واحد جلل لم أكن لأنسى أصغر تفاصيله.

في السابع من أغسطس كان هبوطنا المتتابع قد أوصلنا إلى عمق ثلاثين فرسخًا، أي أن ثلاثين فرسخًا من الصخور والمحيطات والقارات والمدن، كانت تقبع فوق رؤوسنا. وهذا يعني أننا نبعد مائتي فرسخ عن أيسلندا.

في هذا اليوم كان السرداب يسير في مستوى مائل قليلًا. كنت أسير في المقدمة وكان عمي يحمل أحد جهازَي روهمكورف وأنا أحمل الآخر. كنت أفحص طبقات الجرانيت وفجأة استدرت لأجد نفسي وحيدًا.

حسن، ربما مشيت مسرعًا بأكثر مما ينبغي أو ربما توقف هانز وعمي في الطريق. يجب أن ألحق بهما. لحسن الحظ أن الطريق ميله طفيف.

وعدت أدراجي. مشيت لمدة ربع ساعة ونظرت حولي، لا أحد. ناديت ولم تأتني إجابة. ضاع صوتي وسط الأصداء الجوفاء التي أيقظتها صيحتي فجأة.

وبدأت أشعر بالقلق وسرت في بدني رجفة. وقلت لنفسي بصوت مسموع: «قليل من الهدوء يا آكسل. أنا واثق أني سأعثر على رفقائي. ليس هناك سوى طريق واحد، أنا في المقدمة فلأعُد إلى الخلف».

سرت صاعدًا لمدة نصف ساعة. وأصخت السمع مستطلعًا أي نداء يردد اسمي. في هذا الجو كثيف الضغط كان أي صوت كفيلًا بأن يصل إليَّ ولو من بعيد. ولكن صمتًا شديد الوطأة كان يخيم على

السرداب اللا نهائي.

توقفت غير مصدق عزلتي. وددت لو أنني ضللت الطريق ولم أَتُه عنه. فمن يضل الطريق يجده في النهاية. وقلت لنفسي مجددًا: «اهدأ، ما دام ليس هناك أكثر من طريق وما داما يتبعان هذا الطريق الوحيد فلابد أني لاحق بهما. فلأواصل الصعود من جديد. إلا إذا كانا قد قررا العودة إلى الخلف عندما لم يرياني ونسيا أنني كنت متقدمًا عنهما. حسن جدًّا. في هذه الحالة لو أسرعت الخطى سألحق بهما. هذا أكيد جدًّا».

رددت هذه الكلمات لنفسي كمن ليس مقتنعا تمامًا بما يقول. على أي حال فقد استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا لكي أربط هذه الأفكار البسيطة ببعضها البعض وأجمعها لتصبح منطقًا مقبولًا.

وفجأة ساورني الشك. هل كنت في المقدمة فعلًا؟ بالتأكيد. هانز كان يتبعني متقدمًا عمي. بل إنه توقف بضع ثوانٍ ليعيد ربط الأمتعة فوق كتفه. ذهني استعاد هذه التفصيلة. هي هذه اللحظة التي مضيت فيها في طريقي.

«على أي حال، لديَّ وسيلة أكيدة لكي لا أضل، خيط أستدل به في هذه المتاهة، خيط لن ينقطع. هذا الخيط هو جدول الماء الوفي. ليس عليَّ سوى أن أصعد مستدلًّا به وبالتأكيد سأجد آثارًا تركها رفيقاي».

أعاد لي هذا المنطق هدوئي وقررت أن أستأنف السير على الفور. وكم كنت ممتنًّا في هذه اللحظة لحسن بصيرة عمي حين منع الصياد من إغلاق الفتحة التي أحدثها في الجدار الجرانيتي. وهكذا أتى هذا الجدول الذي حمل ماء الحياة ليصبح دليلي عبر تعرجات القشرة الأرضية بعد أن روى ظمأنا عندما أوشكنا على الموت.

وقبل أن أستأنف الصعود، فكرت أن أبلل وجهي بالمياه. وانحنيت لأبلل جبيني بماء الهانز-باخ، ويا للهلع! ارتطمت جبهتي بشظايا جرانيت جافة وخشنة، الجدول لم يعد يجري عند قدميَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

أي يأس أصابني! لا توجد كلمة في أي لغة بشرية يمكن أن تصف ما شعرت به. كنت مدفونًا وأنا على قيد الحياة، كُتب عليَّ أن أعاني عذاب الجوع والعطش حتى أموت.

من دون تفكير طفقت أتحسس التربة بيدي المحترقة ولكم وجدت هذا الصخر جافًّا قاسيًا!

ولكن كيف ابتعدت عن مجرى الجدول؟ لا بد أني فعلت لأنه لم يعد موجودًا. وفهمت أخيرًا سبب هذا الصمت الغريب الذي شعرت به حينما أصخت السمع في المرة الأخيرة متسمعًا نداء قد يصل إليَّ من رفيقَي رحلتي. وهكذا في اللحظة التي خطوت فيها خطوتي الأولى في الطريق الخطأ لم ألحظ غياب جدول الماء. إذَنْ من الواضح أنه في هذه اللحظة نفسها انقسم السرداب إلى فرعين، سرت في أحدهما بينما جرت مياه الهانز-باخ تطيع مسار منحدر آخر، آخذة معها رفيقَي إلى أعماق مجهولة.

كيف أعود. لا توجد آثار لأتبعها. قدماي لم تكونا لتتركا أي أثر على هذا الجرانيت. أجهدت عقلي في البحث عن حل لهذه المعضلة المستعصية. كلمة واحدة كانت تلخص موقفي: هالك.

نعم، هالك على عمق بدا لي وكأنه بلا نهاية، هذه الفراسخ الثلاثون في عمق القشرة الأرضية شعرت بها تضغط بثقل مرعب على كتفي، كنت منسحقًا تحت وطأة هذا الثقل.

حاولت جاهدًا أن أعيد أفكاري المضطربة إلى أمور الأرض ولم يكن الأمر سهلًا. هامبورج، منزلنا في كونينج شتراسه، حبيبتي المسكينة جروبن، ذكريات هذا العالم كله الذي أرزح تائهًا تحته، مرت سريعًا في ذهني المرتعب، وبدأت الهلاوس تتسلط عليَّ وطفقت أستعيد أحداث الرحلة كلها: سفرنا على متن السفينة، أيسلندا، السيد فريدريكسون، السنيفيليس. وقلت لنفسي إني لو ما زلت أرى بارقة أمل في الوضع الذي أنا فيه، فهذا سيكون دليلًا على جنوني، وأنه من الأفضل أن أستسلم لليأس.

لأنه في الحقيقة لم يكن بوسع أي قوة أرضية أن تعود بي إلى سطح الأرض، وأن تُفكك هذه الأقبية الهائلة التي تتقاطع فوق رأسي. من ذا الذي يستطيع أن يضعني على طريق العودة ويجمعني برفيقَي؟ صحت في يأسي مناديًا: «يا عمي الحبيب، ماذا فعلت بي؟!».

وبعد أن خرجت هذه الكلمة من فمي تلومه، صمتُّ لأني أدركت أن العالِم التعس لا بد وأنه يعاني هو الآخر وهو يبحث عني الآن.

وعندما أدركت أني بعيد عن أي وسيلة إغاثة بشرية، وغير قادر على فعل أي شيء ينجيني، تذكرت السماء وعادت إليَّ ذكريات طفولتي وأمي التي لم أعرفها سوى عندما كانت تضمني إليها وتقبلني. لجأت إلى الصلاة، أنا غير المستحق أن يستجيب لي الله الذي لم أذكره سوى متأخر، أتوسل إليه بحرارة أن يمد يده إليَّ.

عودتي إلى الرعاية الإلهية ردت لي بعضًا من هدوء، واستطعت أن أركز التفكير وأوجه كل طاقتي العقلية إلى البحث عن كيفية النجاة من هذا الموقف المخيف.

كان معي طعام يكفي ثلاثة أيام وقربتي مملوءة بالماء. ومع ذلك لم أكن أستطيع البقاء بمفردي طويلًا. والآن هل أتجه إلى أعلى أم أواصل الهبوط إلى أسفل؟

يجب أن أتجه إلى أعلى بكل تأكيد. يجب أن أواصل الصعود بلا توقف، وهكذا أصل إلى النقطة التي ابتعدت فيها عن جدول الماء عند التقاطع الملعون. وهناك والجدول يسري عند قدميَّ سيكون بوسعي أن أعود أدراجي إلى قمة السنيفيليس.

كيف لم أفكر في هذا من قبل؟! هنا تكمن فرصتي الوحيدة في النجاة. الأمر الملح الآن إذَنْ هو العثور على مسار الهانز-باخ.

وقفت وبدأت في السير صعودًا إلى أعلى السرداب متكئًا على عصاي الحديدية. كانت المنحدرات حادة للغاية، ولكني كنت أسير بلا توقف ولا تعثر، كمثل رجل ليس أمامه سوى طريق وحيد يتبعه.

مشيت مدة نصف ساعة من دون أن يوقفني عائق. كنت أحاول أن أستدل على الطريق بالنظر إلى تكوين السرداب ونتوء صخور بعينها ووضعية الشقوق في الجدار. ولكن علامة مميزة واحدة لم تُتِر لي الطريق. وتبين لي سريعًا أن هذا السرداب لا يمكن أن يعود بي إلى نقطة التقاطع. هذا السرداب كان بلا مخرج. كنت أواجه حائطًا لا يمكن اختراقه وسقطت منهارًا فوق صخرة.

أي رعب هذا؟! وأي يأس أصابني لحظتها؟! شيء يصعب وصفه. كنت محطمًا. آخر أمل أمامي انكسر مرتطمًا بهذا الجدار الجرانيتي الهائل.

كنت ضائعًا في هذه المتاهة التي تتقاطع تعريجاتها في كل الاتجاهات، وليس أمامي سوى التوقف عن محاولة النجاح في هروب هو المستحيل بعينه. يجب أن أستسلم لموت هو الأكثر رعبًا.

والأمر العجيب أنه في هذه اللحظة الحرجة خطر لي أنه لو عثر يومًا على جثتي المتحجرة هنا، على عمق ثلاثين فرسخًا في جوف الأرض، لأثار هذا الأمر أسئلة علمية عويصة.

أردت أن أتكلم بصوت عالٍ، ولكن لم يخرج من شفتيَّ الجافتين سوى حشرجات غير مفهومة. كنت ألهث.

وفي وسط هذه الآلام أتى رعب جديد ليتسلط عليَّ. مصباحي سقط من يدي على الأرض وأصابه التلف. لم يكن عندي أي وسيلة لإصلاحه وبدأ نوره يخفت وكاد يختفي.

حدقت في تيار الضوء وهو يتلاشى في ملف المصباح. وتكشَّف موكب من الظلال المتحركة على الجدران المعتمة. لم أعد أجرؤ على إغماض جفني خشية أن تضيع مني أصغر ذرة من هذا النور الهارب. في كل لحظة كان يهيأ لي أنه على وشك الاختفاء وأن الظلمة الحالكة تغمرني.

ثم ارتعش آخر وهج داخل المصباح. تبعته وشربته بعيني. ركزت على هذا الوهج الأخير كل قدرتي على النظر محاولًا التمسك بإحساس أخير بالإبصار يمكن لعيني أن تجربه. وبقيت غارقًا في الظلمة الهائلة.

أطلقت صيحة خوف رغمًا عني. في عالم الأرض وفي الليل البهيم، لا يتخلى النور كلية عن حقه في الوجود، بل يبقى وتنتشر بقايا من ضوء خفية تدركها شبكية العين في النهاية على قلتها. أما هنا فلا شيء. جعلتني الظلمة المطبقة أعمى بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ثم تاه عقلي. قمت من مكاني ووقفت مادًّا ذراعيَّ إلى الأمام في محاولات مؤلمة لتحسس ما حولي. جربت أن أهرب مسرعًا الخطى بلا هدي في هذه المتاهة المعقدة، في اتجاه النزول دائمًا. كنت أجري وأعدو عبر القشرة الأرضية مثل سكان الشقوق السفلية، مناديًا، صائحًا وصارخًا. أرتطم بنتوءات الصخور فأسقط متألمًا، ثم أقوم من جديد أرشف الدم النازف الذي يغطي وجهي متوقعًا في كل لحظة أن يأتي جدار على غير توقع يرتطم به رأسي وينكسر.

إلى أين يقودني هذا السباق المحموم؟ هذا ما سأظل أجهله. فبعد ساعات عديدة خارت قواي بلا شك، فسقطت ككتلة خاملة بطول الجدار وفقدت كل شعور بالحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

لما استعدت وعيي كان وجهي مبللًا. كان مبلِّلًا بالدموع. كم من الوقت دامت حالة الإغماء هذه؟ لا أعلم. لم يعد عندي أي وسيلة لمعرفة الوقت. قَطُّ لم توجد عزلة مثل عزلتي، ولا اختفاء تام كامل مثلما كنت فيه.

كنت قد نزفت كثيرًا عندما سقطت. شعرت بالدم يغرقني. آه كم أسفت لكوني لم أمُت و«لأنه ما زال عليَّ أن أفعل شيئًا». لم أعد أرغب في التفكير. طردت كل فكرة، وتحت وطأة الألم استلقيت قريبًا من الجدار المقابل.

كنت بدأت أشعر بالإغماء يعاودني ومعه الفناء العظيم عندما سمعت ضجيجًا صاخبًا. كان الضجيج يشبه دوي رعد ممتد، ثم سمعت موجات الصوت تتلاشى شيئًا فشيئًا في أعماق الهوة السحيقة.

ما مصدر هذا الضجيج؟ مصدره بلا شك ظاهرة تحدث في جوف الكتلة الأرضية. انفجار غاز ما أو سقوط بعض الأسس القوية للكرة الأرضية. أصخت السمع مرة أخرى. كنت أريد أن أعرف هل يتجدد الضجيج. مرت ربع ساعة وما زال الصمت يسود داخل السرداب، حتى ضربات قلبي لم أعد أسمعها. ثم خيل إليَّ أن كلمات مبهمة وغير مفهومة تترامى من بعيد إلى أذني التي كانت ترتكن صدفة إلى الجدار. جفلت وقلت لنفسي: «هذه تهيؤات». ولكن لا. عندما أنصتُّ بعناية أكبر سمعت بالفعل همهمة أصوات. ولكني كنت ضعيفًا لدرجة لم أتمكن معها أن أفهم ما يقال. ومع ذلك كان هناك من يتكلم، هذا أمر مؤكد.

مرت بي لحظة خوف ظننت فيها أن تكون هذه الكلمات هي رجع الصدى لكلماتي أنا. ربما صرخت رغمًا عني. أطبقت شفتي بقوة ووضعت أذني على الجدار وأنصتُّ.

«نعم، بالتأكيد، هناك من يتكلم، هناك من يتكلم».

تحركت بضع خطوات إلى الأمام بطول الجدار، وأرهفت السمع. أصبح الصوت أكثر وضوحًا وتمكنت من تفسير كلمات مترددة، غريبة وغير مفهومة. أتتني هذه الكلمات كأقوال ينطق بها قائلها بصوت خفيض، هامس. كلمة «förlorad» ترددت عدة مرات بنبرة يشوبها الألم.

ما معنى هذه الكلمة ومن الذي يقولها؟ إنه هانز أو عمي بالتأكيد. ولكن بما أني أسمعهما فلا بد أنه يمكن أن يسمعوني هم أيضًا. فصحت بكل قواي أناديهم:

- إليَّ، أغيثوني.

وأصغيت أرقب في ظلمتي جوابًا، صيحة أو زفرة. ولكن شيئًا لم يأتِ. ومرت بضع دقائق تضاربت فيها كل الأفكار في ذهني وأيقنت أن صوتي ضعيف لن يقوى على الوصول إلى مسامع رفيقَي.

«لأنهما هما من سمعت كلماتهما، إذ أي بشر سواهما يتجولون هنا على عمق ثلاثين فرسخًا تحت الأرض؟».

أرهفت السمع من جديد وأنا أتجول بأذني فوق الجدار، ووصلت إلى نقطة حسابية بدت فيها الأصوات وقد وصلت إلى أعلى شدتها. وعادت كلمة «förlorad» إلى سمعي مرة أخرى، ثم هذا الصوت الذي يشبه دوي الرعد والذي أيقظني من سباتي سابقًا.

«كلا، كلا، هذه الأصوات لا تسمع عبر الكتلة الصخرية. الجدار مصنوع من الجرانيت ولم يكن ليسمح لأكثر الانفجارات قوة بأن تخترقه. هذا الضجيج يأتي من داخل السرداب نفسه، لا بد وأنه يوجد هنا مؤثر صوتي فريد».

قلت هذا في نفسي وأصغيت من جديد، وهذه المرة، نعم، هذه المرة سمعت اسمي يتردد بوضوح في الفراغ.

هل هو عمي يناديني؟ لابد وأنه يتحدث إلى الدليل وكلمة «förlorad» هي كلمة دنماركية، وأخيرًا فهمت كل شيء. لكي يسمعاني يجب أن أتكلم تحديدًا بطول هذا الجدار الذي سيسهم في إيصال صوتي إليهما مثلما يقوم السلك الحديدي بتوصيل التيار الكهربي.

لم يكن أمامي وقت أضيعه. يجب أن أسرع قبل أن يبتعد رفيقَاي بضع خطوات نفقد فيها هذه الظاهرة الصوتية الفريدة.

اقتربت من الجدار أكثر ونطقت بهذه الكلمات بقدر ما استطعت من وضوح: «عمي ليدنبروك».

وانتظرت وأنا في شدة القلق. الصوت لا يملك سرعة فائقة. وكثافة طبقات الهواء لا تسمح بزيادة سرعته. ثوانٍ مرت بل دهور وأخيرًا التقطت أذني هذه الكلمات:

- آكسل، آكسل، أهذا أنت؟

- نعم، نعم.

- يا بني، أين أنت؟

- تائه مفقود في الظلمة العميقة.

- ولكن مصباحك ماذا به؟

- انطفأ المصباح.

- وجدول الماء؟

- اختفى.

- آكسل، يا بني المسكين، كن شجاعًا.

- انتظر قليلًا، أنا منهك ولا أقوى على الكلام ولكن أرجوك استمر في الحديث.

- كن شجاعًا يا بني. لا تتكلم واسمعني. لقد بحثنا عنك صعودًا وهبوطًا في السرداب. ولم نعثر عليك. آه يا بني! لقد بكيتك بحرقة، وفي النهاية، ولأننا توقعنا أنك في موضع ما على مسار الهانز-باخ نزلنا

من جديد ونحن نطلق الأعيرة النارية. والآن لو كانت أصواتنا تتلاقى بفعل ظاهرة صوتية بحتة تظل أيدينا عاجزة عن التلاقي. ولكن لا تيأس يا آكسل، على الأقل نحن نتبادل الحديث.

في هذه الأثناء كنت أفكر. وبدأ أمل كان لا يزال مبهمًا، يعود إلى قلبي. في البداية هناك شيء يهمني أن أعرفه. ألصقت شفتي بالجدار وقلت:

- عمي.

- نعم يا ولدي.

سمعت رده بعد برهة.

- يجب في البداية أن نعرف مقدار المسافة التي تفصلنا.

- هذا أمر سهل.

- هل الكرونوميتر معك؟

- نعم.

- أمسكه في يدك إذَنْ وانطق اسمي بينما تسجل بدقة الثانية التي تتكلم فيها. وسوف أردد اسمي بعدك وسوف تسجل أيضًا اللحظة المحددة التي يصلك صوتي فيها.

- حسن، ونصف المدة التي تنقضي ما بين ندائي وردك ستحدد الوقت الذي يقطعه صوتي ليصل إليك.

- بالضبط يا عمي.

- هل أنت مستعد؟

- نعم.

- إذَنْ انتبه سأنطق باسمك.

ألصقت أذني بالجدار وما إن أنتتي كلمة «آكسل» حتى أجبت على الفور قائلًا «آكسل»، وانتظرت.

- أربعون ثانية.

قال عمي.

- أربعون ثانية مرت ما بين الكلمتين. إذَنْ فالصوت يستغرق عشرين ثانية ليصعد. وبحساب ألف وعشرين قدم في الثانية، تكون النتيجة عشرين ألفًا وأربعمائة قدم أو فرسخ ونصف وواحد على ثمانية من الفرسخ.

وهمهمت قائلًا:

- فرسخ ونصف.

- ولكن هذه مسافة تقطع يا آكسل.

- صعودًا أم هبوطًا؟

- هبوطًا. ودعني أقول لك لماذا. لقد وصلنا إلى مساحة مترامية يلتقي عندها عدد كبير من السراديب. السرداب الذي سرت أنت فيه لا بد وأن يقودك لتعود إليها، لأنه كما يبدو، فإن هذه الشقوق والكسور التي في جدار الأرض تدور جميعها حول هذا الكهف الهائل الذي نحن فيه. انهض من رقادك إذَنْ واستأنف السير. ازحف لو لزم الأمر وانزلق على المنحدرات السريعة وستجد أذرعنا تتلقاك في نهاية الطريق. هيا يا ولدي، ابدأ المسير.

أنعشتني هذه الكلمات. وأجبت عمي بصوت عالٍ قائلًا:

- إلى اللقاء يا عمي. أنا أنطلق الآن. أصواتنا لن يكون بوسعها التلاقي ما إن أترك هذا المكان.

- إلى اللقاء إذَنْ.

كانت هذه آخر كلمات سمعتها. كلمات الأمل اختتمت هذا الحوار المعجز الذي تم عبر الكتلة الأرضية، والذي تبادل الحديث فيه طرفان يفصلهما أكثر من فرسخ. صليت لله شكرًا لأنه قادني عبر هذه الظلمات الشاسعة، ووصل بي إلى النقطة الوحيدة ربما التي كان يمكن لصوت رفيقَي أن يصلني عندها. هذه الظاهرة الصوتية المدهشة كان يمكن تفسيرها ببساطة من خلال ثلاثة قوانين فيزيائية. ما حدث كان ممكنًا بسبب شكل السرداب وخاصية التوصيل في الصخر المبطن له. هناك أمثلة عديدة لمثل هذا الانتشار للأصوات غير الملحوظة في الفضاءات الوسيطة. أذكر أنه في أماكن عديدة لوحظت هذه الظاهرة، من بينها السرداب الداخلي في قبة القديس بولس في لندن، وتحديدًا وسط الكهوف الغامضة في سيشيل، وهذه الكهوف الواقعة قريبًا من سيراقوسة، والتي يُعرف أكثرها غرابة باسم «أذن ديونيسيوس».

عادت هذه الذكريات إلى ذهني ورأيت بوضوح أنه بما أن صوت عمي يصل إليَّ فليس هناك عائق يفصل ما بين مكانينا. ولو اتبعت مسار الصوت يكون منطقيًّا أن أصل إلى حيث هو موجود، بالطبع لو لم تخذلني قواي في الطريق.

نهضت وبدأت المسير. كنت أزحف بأكثر مما أمشي. المنحدر كان سريعًا وتركت نفسي أنزلق عليه. وسرعان ما تزايدت سرعة هبوطي بصورة مفزعة، مما جعل نزولي أشبه بالسقوط، ولكني لم أعد أملك القوة اللازمة لكي أتوقف.

وفجأة لم أجد أرضًا تحت قدميَّ، وشعرت بأني أتدحرج وأرتد بين نتوءات سرداب يتجه رأسيًّا، بل إنها بئر حقيقية وارتطم رأسي بحجر حاد وفقدت الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

عندما استعدت الوعي كانت تحوطني ظلمة خفيفة. كنت ممددًا فوق أغطية ثقيلة، وعمي ساهر ينظر إليَّ ويتطلع في وجهي باحثًا فيه عن أثر للحياة. وما إن أطلقت زفرة إلا ووجدته يمسك بيدي. وعندما فتحت عيني أطلق صيحة فرح وطفق يردد:

- إنه حي، آكسل حي.

وأجبت بصوت ضعيف قائلًا:

- نعم، نعم.

- يا ولدي، لقد نجوت.

قالها وهو يضمني إلى صدره.

تأثرت بشدة من نبرة صوته وهو ينطق بهذه الكلمات، وتأثرت أكثر بالرعاية والعناية اللتين أحاطني بهما وهو يقولها. ولكن هل كان لا بد لهذه التجارب القاسية أن تحدث حتى تثير لدى العالم الجاد مثل هذه العاطفة الجيَّاشة؟

وفي هذه اللحظة وصل هانز ورأى عمي يضم يدي في يديه، ويمكنني أن أؤكد أن عينيَّ الصياد الصامت كانتا تعبران عن سعادة غامرة وهو يتوجه لي قائلًا:

- God dag.

- صباح الخير يا هانز، صباح الخير. والآن يا عمي أخبرني أين نحن الآن؟

- غدًا يا آكسل، سأخبرك في الغد. اليوم أنت ما زلت ضعيفًا ولقد أحطت رأسك بضمادات فلا يجب أن تحركه. نَم يا بني وفي الغد تعرف كل شيء.

- ولكن على الأقل قل لي في أي ساعة نحن؟ وفي أي يوم؟

- الحادية عشرة ليلًا واليوم هو الأحد التاسع من أغسطس، ولن أسمح لك أن تستجوبني قبل اليوم العاشر من الشهر المقبل.

في الحقيقة كنت أشعر بضعف شديد، فاستجبت وأغمضت جفوني من دون أن أشعر. كان يلزمني ليلة كاملة من الراحة فتركت نفسي للنوم وفي ذهني حقيقة مخيفة، وهي أن عزلتي دامت أربعة أيام طوال.

وفي الغد عندما استيقظت نظرت حولي. كان فراشي مصنوعًا من كل أغطية السفر التي حملناها معنا، وكان مكانه داخل كهف جميل تزينه صواعد رائعة، وأرضيته كانت مغطاة برمل ناعم. الظلمة الخفيفة كانت ما زالت سائدة عندما استيقظت، ولم يكن هناك أي مصباح مضاء، ومع ذلك رأيت ضوءًا خافتًا لم أجد له تفسيرًا. كان النور آتيًا من الخارج يتسلل عبر فتحة ضيقة في الكهف. سمعت

أيضًا وشوشة مبهمة وغير محددة تشبه صوت الموج وهو ينكسر فوق أحجار شاطئ، أو ربما يشبه صفير نسمة ريح خفيفة. تساءلت في نفسي لو أني كنت متيقظًا أم أني ما زلت أحلم، أو ربما عقلي تأثر عندما سقطت فأصبح يتخيل أصواتًا وهمية. ومع ذلك لا يمكن لعيني أو أذني أن تنخدع إلى هذه الدرجة.

«هذا ضوء النهار يتسلل عبر هذا الشق الذي في الصخر! وهذه وشوشة الموج! هذا صفير الريح الحانية! هل أنا مخطئ أم أننا عدنا إلى سطح الأرض؟ هل تنازل عمي أخيرًا عن رحلته الاستكشافية أم أنه لحسن الحظ قرر أن ينهيها؟».

بقيت أردد في نفسي هذه الأسئلة التي لا أملك لها إجابة حتى رأيت البروفيسور آتيًا إليَّ يقول لي فرحًا:

- صباح الخير يا آكسل، الآن أرى أنك صرت أفضل.

- نعم بكل تأكيد.

أجبته وأنا أنهض تاركًا فراشي.

- يجب أن تكون قد تحسنت لأنك نمت نومًا هادئًا بينما أنا وهانز تناوبنا على حراستك والسهر بجانبك وتابعنا شفاءك. لقد أحرزت تقدمًا ملحوظًا.

- بالفعل أنا أشعر أني منتعش، والدليل على ذلك أني على استعداد لالتهام الغداء الذي قد تتكرمون بتقديمه لي.

- ستأكل يا ولدي، فقد غادرتك الحمى. هانز عالج جراحك بمراهم يعرف الأيسلنديون وحدهم سرها، والآن التأمت الجروح تمامًا. بالفعل هو رجل رائع دليلنا الصياد هذا.

أعد عمي بعض الأطعمة وهو يحدثني. التهمتها كلها سريعًا بالرغم من تعليماته لي بأن أتمهل. وبينما كنت أتناول الطعام انهلت عليه بأسئلة سارع في الإجابة عليها فورًا.

علمت بعد ذلك أن سقطتي القدرية أتت بي إلى نهاية سرداب شبه عمودي، وبما أني هبطت وسط شلال من الأحجار التي كان أصغرها كفيلًا بأن يسحقني، يمكن الاستنتاج إذَنْ أن جزءًا من الكتلة الصخرية قد سقط وانزلق معي، وهكذا قادتني هذه «العربة» المخيفة حتى ذراعَي عمي الذي تلقاني مضرجًا في دمائي فاقد الوعي.

- حقًّا إنه أمر مدهش للغاية أنك لم تقتل ألف مرة. ولكن شكرًا لك يا الله. لن نفترق بعد الآن لأننا لو فعلنا قد لا نلتقي بعد ذلك أبدًا.

- لن نفترق بعد الآن.

تعجبت وتساءلت في نفسي ألم تنتهِ الرحلة بعد؟ ونظرت إلى عمي مندهشًا فبادرني قائلًا:

- ماذا بك يا آكسل؟

- ما بي هو سؤال أوجهه لك. أنت تقول إني هنا الآن سليم معافى؟

- بكل تأكيد.

- كل أعضاء جسمي سليمة؟

- بلا شك.

- ورأسي؟

- رأسك، فيما عدا كدمات بسيطة، في مكانه تمامًا فوق كتفيك.

- حسن ولكني أخشى أن عقلي قد أصابه العطب.

- عطب؟

- نعم. ألم نعد إلى سطح الأرض؟ ألسنا هناك الآن؟

- كلا بالتأكيد.

- قد أصابني الجنون إذَنْ، أنا أرى ضوء النهار وأسمع صوت الريح التي تهب وأمواج البحر وهي تتكسر على الشاطئ.

- أهذا هو ما يشغلك؟

- وهل عندك تفسير لكل هذا؟

- لن أفسر لك شيئًا، لأنه لا يوجد تفسير ولكنك سترى وستفهم أن علم الجيولوجيا لم يقل كلمته الأخيرة بعد.

وهنا قمت مندفعًا وصحت قائلًا:

- فلنخرج من هنا.

- كلا يا آكسل، قد يضرك الهواء الطلق.

- الهواء الطلق؟

- نعم، فالريح شديدة وأنا لا أريد أن تعرض نفسك للأذى.

- ولكني أؤكد لك أني في تمام صحتي.

- الصبر قليلًا يا بني. أي انتكاسة لصحتك ستربكنا ونحن لا نريد أن نضيع مزيدًا من الوقت لأن العبور ربما يستغرق وقتًا طويلًا.

- العبور؟

- نعم، استرح اليوم أيضًا وسنصعد إلى السفينة غدًا.

- نصعد إلى السفينة؟

هذه العبارة الأخيرة جعلتني أقفز.

ماذا؟! نصعد إلى السفينة؟! إذَنْ نحن بصدد نهر أو بحيرة؟ ربما نحن في مبنى غارق في ميناء سفلي؟

ثار فضولي إلى أقصى درجة. وحاول عمي أن يعيدني إلى الهدوء بلا طائل. وعندما رأى أني لا أستطيع الصبر، وأن هذا يمكن أن يضرني، انصاع في النهاية. ارتديت ملابسي سريعًا، ولمزيد من الحرص وضعت عليَّ غطاء من الأغطية وخرجت من الكهف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون

لم أرَ شيئًا في البداية. وأغمضت عيني التي لم تتعود على الضوء بعد، وعندما استطعت أن أفتحهما مرة أخرى أصابني ذعر تغلب على ذهولي ودهشتي.

- البحر؟!

- نعم يا ولدي، بحر ليدنبروك، وأعتقد أنه لن ينازعني بحارٌ شرفَ اكتشافه، والحق في تسميته على اسمي.

مساحة شاسعة من المياه، بداية بحيرة أو ربما محيط، كانت تمتد أمامي إلى المدى. أما الشاطئ المفتوح الواسع الذي أتى الموج لينكسر على حافته، فقد كانت رماله ناعمة ذهبية اللون، تنتشر على امتدادها هذه القواقع الصغيرة التي عاشت فيها أول كائنات الخليقة. كانت الأمواج تنكسر على رمال الشاطئ محدثة هذه الهمهمة المدوية التي تميز البيئات الشاسعة المغلقة، وتطاير زبد خفيف حملته نسائم ريح معتدلة أتى بعضها يداعب وجهي. وكانت تلال الصخور الهائلة التي تعلو وتتسع لتصل إلى ارتفاعات لا يمكن قياسها تأتي لتنتحر هنا فوق هذا الشاطئ المائل قليلًا، على بعد نحو ثلاثمائة توايز من حافة الأمواج. وكان بعضها يقطع الشاطئ بحافته الحادة فيشكل ما يشبه الرؤوس والنتوءات المتآكلة بفعل الأمواج العاتية، وكانت هذه الكتل ترتسم واضحة جلية في غلاف من ضباب في الأفق البعيد.

هذا كان محيطًا حقيقيًّا، بالتعريجات غير المنتظمة نفسها التي تميز شواطئ اليابسة، ولكنه مهجور يعكس بيئة برية مخيفة.

كان بصري يتجول بعيدًا فوق صفحة المياه، وذلك لأنه كان هناك نور «مميز» أضاء أدق تفاصيلها. لم يكن هذا نور الشمس ولا حزمة الضوء البراق التي تصدرها أشعتها الرائعة، ولا كان اللمعة الشاحبة الغامضة التي تصدر عن كوكب الليل، والتي ليست سوى انعكاس لا حرارة فيه. كلا، فقد كانت القدرة المنيرة لهذا الضوء وانتشاره المرتعش وبياضه الناصع الجاف وحرارته المرتفعة قليلًا ووهجه الذي يزيد في الحقيقة على وهج القمر، تشير كلها إلى أن مصدر هذا النور هو مصدر كهربي خالص. كان يشبه الشفق القطبي. ظاهرة كونية مستمرة كانت تملأ هذا الكهف باتساعه القادر على احتواء محيط.

بدت القبة المعلقة فوق رأسي، السماء لو أمكن القول، وكأنها مكونة من سحب هائلة، بخار متحرك ومتغير، يمكنه بفعل التكثيف أن يتحول إلى أمطار غزيرة في أيام بعينها. كنت أظن أنه تحت ضغط جوي شديد مثل هذا لا يمكن للماء أن يتبخر، ومع ذلك، وبفعل عملية فيزيائية أجهلها، كانت هناك خطوط عريضة من السحب ممددة في الهواء. ولكن في النهاية كان الجو «بديعً». وكانت المصادر الكهربية تصدر تمويجات مبهرة من الأضواء فوق السحب المعلقة على ارتفاعات شاهقة، فترسم ظلالًا حية على صفحتها السفلية. وفي أحيان كثيرة كان شعاع من نور ينزلق ما بين طبقتين منفصلتين فيصل إلينا بكثافة ملحوظة.

ولكن لم يكن هذا نور الشمس، إذ لم تكن فيه حرارتها. كان نورًا تعيسًا يثير شجنًا في النفس. ولم يكن ما أراه فوق رأسي قبة سماوية تتلألأ بالنجوم، بل شعرت أن ما فوق هذه السحب هو قبة من الجرانيت تسحقني بكل ثقلها، وأن هذا الفضاء على اتساعه لم يكن كافيًا ليدور في مداراته أقل الأقمار طموحًا.

وتذكرت حينها نظرية جاء بها قبطان إنجليزي شبَّه فيها الأرض بدائرة هائلة مجوفة، يظل الهواء في داخلها مضيئًا بفعل الضغط الذي يحدثه، بينما كوكبان آخران هما بلوتو و بروسربينا يرسمان في داخلها مداراتهما الغامضة. أيكون ما قاله صحيحًا؟

واقعيًّا، نحن كنا مسجونين في حفرية هائلة نعجز عن قياس عرضها، بما أن الشاطئ كان يمتد إلى أبعد من مدى البصر، وعن قياس طولها، بما أن البصر كان يوقف مداه خط أفق متأرجح. أما ارتفاعها فكان بالتأكيد أكثر من فراسخ عديدة. أين كانت ترتكز هذه القبة على دعاماتها الجرانيتية؟ لم تكن العين قادرة على أن تلمح تلك المواضع الخفية، ولكن سحابة كانت معلقة في الجو، ربما كان ارتفاعها يقدر بألفَي توايز، وهو ارتفاع أعلى من ارتفاع الأبخرة الأرضية، يرجع بلا شك إلى كثافة الهواء العالية.

كلمة «كهف» لا تعبر في الحقيقة عما أريد أن أصف به هذا المكان المترامي. ولكن كلمات اللغة البشرية لا يمكن أن تكون كافية لمن يقرر بإرادته أن يتجول في أعماق الكرة الأرضية.

على أي حال لم أكن أملك أي تفسير جيولوجي لوجود حفرية مثل هذه. هل يمكن أن يكون تبريد الكرة الأرضية هو الذي أحدثها؟ كنت أعرف جيدًا عن طريق حكايات المسافرين أن كهوفًا شهيرة توجد في أماكن عدة، ولكن أيها لم تكن له مثل هذه الأبعاد الهائلة.

لو كان كهف جواتشارا في كولومبيا والذي زاره السيد هومبولدت، لم يفصح عن سر عمقه للعالم الذي قدره بألفَي وخمسمائة قدم، فإنه وبكل تأكيد لم يكن ليمتد إلى أبعد من ذلك بكثير. وكهف الماموث الهائل في كنتاكي كان ذي أبعاد عملاقة، إذ كانت قبته ترتفع بمسافة خمسمائة قدم فوق سطح بحيرة لا يُسبر غورها، وكان المسافرون يسيرون فيه لمسافة أكثر من عشرة فراسخ من دون أن يصلوا إلى نهايته. ولكن ما هذه التجويفات كلها مقارنةً بما كنت أتأمله الآن بسمائه التي تصنعها الأبخرة وأشعته الكهربية، وبالبحر الذي يمتد ويمتد ما بين جنبيه؟ وقف خيالي عاجزًا أمام هذه الضخامة اللا نهائية.

كنت أتأمل هذه العجائب صامتًا. وكانت الكلمات عاجزة عن التعبير عن مشاعري. تخيلت أني أقف في كوكب بعيد، أورانوس أو نبتون، أشهد ظواهر لا تعرفها طبيعتي «الأرضية». هذه الأحاسيس الجديدة تلزمها كلمات جديدة، وخيالي لم يكن لديه شيء منها. كنت أرى وأفكر وأنبهر بذهول مخلوط بنوع من الرهبة.

أعاد مرأى هذا المشهد غير المسبوق إلى وجهي ألوان الصحة والعافية. كنت أعالج نفسي بالدهشة وأسعى إلى التعافي عن طريق هذا الدواء الجديد. على أي حال، كانت حيوية هذا الهواء الكثيف تنعشني وتضخ في رئتيَّ قدرًا أكبر من الأكسجين.

لا شك أنه بعد سبعة وأربعين يومًا من السجن داخل سرداب ضيق، كان استنشاق هذه النسمات المحملة برطوبة البحر مصدر سعادة لا مثيل لها. وبالطبع لم أندم على تركي مغارتي المظلمة. أما عمي الذي جبل على مثل هذه العجائب، فلم يكن مندهشًا. وسألني:

- هل تقوى على التجول قليلًا؟

- نعم بالتأكيد، هذا يسعدني جدًّا.

- استند إلى ذراعي إذَنْ يا آكسل، ولنسِر بمحاذاة تعريجات الشاطئ.

قبلت متعجلًا وبدأنا في السير بمحاذاة شاطئ هذا المحيط الجديد. على الشمال كانت الصخور الحادة التي تتسلق كل منها الأخرى، تصنع تشكيلًا يشبه ركام السفينة تيتانيك، ويلقي في النفس أثرًا مهيبًا، وكانت شلالات بلا عدد تنساب على جوانبه في تتابع شفاف ومدوٍّ. أبخرة خفيفة كانت تقفز من صخرة لأخرى في إشارة إلى أماكن عيون الماء الساخنة، وينابيع كانت تنساب بهدوء نحو حوض مشترك باحثة في المنحدرات عن فرصة تهمس فيها بوشوشة فرحة.

وسط هذه الينابيع كلها، تعرفت على رفيق رحلتنا الوفي، الهانز-باخ الذي أتى إلى هنا ليرتمي في البحر بهدوء، كما لو أنه لم يفعل شيئًا غير ذلك منذ بدء الخليقة. تأملته وتنهدت قائلًا:

- سنفتقد هذا الرفيق الوفي.

- ماذا يهم، هو أو غيره لا فرق.

وجدت إجابة عمي جاحدة نوعًا ما.

ولكن مشهدًا غير منتظر استرعى انتباهي في اللحظة نفسها. تبدت لنا على بعد نحو مائة خطوة غابة عالية، كثيفة ومورقة، عند منحنى نتوء مرتفع. كانت غابة من الأشجار متوسطة الحجم، مشذبة في هيئة مظلات منتظمة، خطوطها هندسية محددة. لا يبدو أثر لتيارات الهواء على أوراقها، إذ بقيت وسط النسمات بلا حراك وكأنها كتلة من أشجار الأرز المتحجرة.

أسرعت الخطى ولا أجد كلمة أصف بها الرائحة الفريدة لهذه الأشجار. هل هي أشجار لا تنتمي إلى الألفي فصيلة نباتية المعروفة حتى الآن؟ وهل يجب أن نجد لها مكانًا خاصًّا وسط نباتات الغطاء النباتي الذي ينمو حول البحيرات؟ كلا. عندما وصلنا تحت ظلال هذه الأشجار، تبدلت دهشتي إلى إعجاب شديد.

في الواقع وجدت نفسي في حضرة نتاج الأرض، ولكنه نتاج شُذِّب تبعًا لنموذج عملاق. وعلى الفور خاطب عمي النباتات العملاقة بأسمائها وقال لي:

- هذه ليست سوى غابة من الفطر.

ولم يكن مخطئًا بالنظر إلى التطور الذي اكتسبته هذه النباتات التي تنمو بغزارة في بيئة حارة ورطبة. كنت أعرف أن فصيلة الـ«ليكوبيردون جيجانتيوم» يمكن أن يبلغ محيطها، طبقًا للعالم بوليارد، من ثمانية إلى تسعة أقدام. ولكننا هنا كنا بصدد فطر أبيض بلغ ارتفاعه ثلاثين إلى أربعين قدمًا، وحمل

رؤوسًا متساوية القطر. كانت أعدادها بالآلاف، لا تسمح للضوء أن يتسلل عبر ظلها الكثيف، فساد ظلام دامس تحت هذه القباب المتجاورة التي تشبه الأسقف المستديرة في مدينة أفريقية.

وبالرغم من ذلك قررت المضي قدمًا. كان البرد القارس ينسل من هذه الأقبية اللحمية. ولمدة نصف ساعة سرنا هائمين في هذه الظلمات الرطبة، وكان شعوري بالراحة عظيمًا عندما عدنا أدراجنا إلى شاطئ البحر.

ولكن الغطاء النباتي في هذه البلاد الجوفية لم يقتصر على الفطر الذي شاهدناه. ففي البعد كانت ترتفع مجموعات أخرى من أشجار كثيرة ذات أوراق باهتة اللون. كان من السهل التعرف على أنواع هذه الأشجار، إذ كانت هي نفس الأشجار الموجودة على الأرض ولكن بأحجام هائلة، ذئبيات بارتفاع مائة قدم، وسيجيللاريا عملاقة، وسراخس شجرية ضخمة مثل أشجار الصنوبر العالية ونباتات الليبيدودندرون ذات سيقان مخروطية منقسمة، تنتهي بأوراق طويلة بها شعيرات حادة منتصبة مثل نباتات دهنية وحشية. وصاح عمي قائلًا:

- مذهل، رائع ومبهر. هذا هو الغطاء النباتي الكامل للحقبة الثانية من عمر الأرض، الحقبة الانتقالية. هذه هي نباتات حدائقنا البسيطة بينما كانت تنمو كأشجار باسقة في القرون الأولى من عمر الأرض. انظر يا آكسل، تأمل هذه العجائب. لم يسبق أن حضر عالم نبات من قبل مثل هذا الكرنفال من النباتات.

- أنت على حق يا عمي. يبدو أن العناية الإلهية أرادت أن تحفظ في هذه الصوبة المترامية هذه النباتات التي من قبل الطوفان، والتي أعادت حكمة العلماء بناءها بكثير من السعادة.

- أنت تقول الحق يا بني، هذه صوبة، ولكن ربما يكون الأصوب أن تضيف أنها ربما كانت حديقة حيوان.

- حديقة حيوان؟!

- نعم بالتأكيد. انظر إلى هذا التراب الذي ندوسه بأقدامنا، انظر إلى هذه العظام المتفرقة في هذه التربة.

وصحت متعجبًا:

- عظام؟! نعم، عظام حيوانات ما قبل الطوفان.

واندفعت نحو هذه البقايا التي عمرها قرون طويلة، والمصنوعة من مادة غير عضوية، غير قابلة للتلف (فوسفات جيري). وبدأت أسمي من دون تردد كل من هذه العظام العملاقة التي تشبه جذوع أشجار جفت.

- هذا فك سفلي للماستودون (وهو حيوان ثديي منقرض)، وهذه أضراس الدينوتير الدينوثيريم (وهو جنس من الحيوانات يتبع فصيلة الدينوتيرية من رتبة الفيليات. وهي شديدة الشبه بالفيلة الراهنة، ولكن نابيها ينموان في الفك السفلي وليس العلوي. يعتقد العلماء أن هذا النوع قد عاش نحو 25 مليون عام، واختفى منذ مليون عام تقريبًا)، وهنا عظمة الفخذ التي لا بد أنها إحدى عظام أضخم هذه الحيوانات

وهو الميجاثيريوم (ديناصور كسل الأرض العملاق). نعم، إنها فعلًا حديقة حيوانات، إذ إن كارثة لا يمكن أن تكون قد حملت هذه العظام إلى هنا. هذه عظام حيوانات عاشت هنا على ضفاف هذا البحر الجوفي في ظل هذه النباتات المورقة. انظر، أنا أرى هنا هياكل عظمية كاملة. ومع ذلك...

- ومع ذلك ماذا؟

- أنا لا أفهم كيف تواجدت ذوات الأربع هذه في هذا الكهف الجرانيتي.

- ولم لا؟

- لأن الحياة الحيوانية لم توجد على الأرض إلا في الأزمنة اللاحقة، عندما تكونت التضاريس الرسوبية من الطمي وحلت محل الصخور النارية التي ميزت الأزمنة البدائية.

- حسن. هناك رد بسيط على اعتراضك يا آكسل، وهو أن هذه التربة هي أراضٍ رسوبية بالفعل.

- كيف؟! في مثل هذا العمق تحت سطح الأرض؟

- بلا شك، وهذا يمكن تفسيره جيولوجيًّا. في حقبة ما لم تكن الأرض مكونة إلا من قشرة مطاطة، واقعة تحت تأثير حركات تبادلية إلى أعلى وإلى أسفل، طبقًا لقانون الجاذبية. ومن الممكن أن يكون قد حدث هبوط في التربة، وأن بعضًا من الأراضي الرسوبية تكون قد حُملت إلى أعماق صدوع انشقت فجأة.

- هذا صحيح. ولكن لو كانت هذه الحيوانات التي تنتمي إلى ما قبل الطوفان قد عاشت في هذه المناطق الجوفية، ما الذي يمنع أن واحدًا من هذه الوحوش لا يحوم حتى الآن وسط هذه الغابات المظلمة أو خلف هذه الصخور المدببة؟

وعند هذا الاستنتاج بدأت أستطلع، مذعورًا، الجهات المختلفة في الأفق من حولنا، ولكني لم ألمح أي كائن حي في هذه الشواطئ المهجورة.

كنت متعبًا إلى حدٍّ ما. وذهبت لأجلس على حافة مرتفع صخري كانت الأمواج تتكسر عند قاعدته في دوي وصخب. ومن موقعي هذا كان بصري يعانق الخليج الذي صنعته هذه الفتحة الواسعة في ساحل البحر. رأيت في قلب الخليج ميناءً صغيرًا مرتبًا بين الصخور الهرمية. كانت مياهه الهادئة نائمة بعيدًا عن غضبة الرياح. كان ميناءً صغيرًا يتسع لسفينتين شراعيتين أو ثلاثة مراكب صغيرة. وكدت أتوقع أن أرى سفينة تخرج فاردة أشرعتها لتتجه إلى عرض البحر تحت نسمة الجنوب.

ولكن هذه الرؤية اختفت سريعًا.

كنا نحن المخلوقات الحية الوحيدة في هذا العالم السفلي. وفي فترات هدوء الرياح هبط صمت أعمق من صمت الصحاري، ليسود على الصخور الحادة ويطبق على صفحة المحيط. وطفقت أحاول أن أخترق الضباب البعيد، وأن أمزق هذا الستار الذي انسدل على الأفق الغامض. تسابقت التساؤلات تريد الخروج من بين شفتيَّ. أين ينتهي هذا المحيط؟ وهل نتمكن يومًا من معرفة الشواطئ المقابلة؟

بالنسبة لعمي لم يكن يخالجه شك في ذلك.

وأنا كنت أرغب بشدة في استكشاف الحقيقة، ولكني كنت خائفًا بشدة أيضًا.

وبعد ساعة أمضيناها في تأمل هذا المشهد البديع، أخذنا طريق العودة بمحاذاة الشاطئ عائدين إلى الكهف، حيث خلدت إلى نوم عميق غمرتني فيه أكثر الأفكار غرابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

استيقظت في اليوم التالي معافًى تمامًا. وقدرت أن حمامًا سريعًا قد يفيدني جدًّا، وذهبت ألقي بنفسي لبضع دقائق في مياه بحرنا المتوسط هذا، إذ كان هذا المحيط يستحق هذه التسمية من دون غيرها.

ثم ذهبت لتناول الفطور بشهية مفتوحة. هانز كان هو المنوط به إعداد قائمة الطعام البسيطة. وكان لديه ما يكفي من الماء والنار لكي ينوع قليلًا في القائمة المعتادة، فقدم لنا مع الحلوى قهوة لا أذكر أني تذوقت أفضل منها قبل ذلك. ثم قال عمي:

- والآن، حان وقت المد ولا يجب أن تفوتنا دراسة هذه الظاهرة.

- المد؟ كيف؟

- نعم المد ومن دون أدنى شك.

- وهل تأثير الشمس والقمر يصل حتى هنا؟

- ولم لا؟ أليست الأجسام في مجملها واقعة تحت تأثير الجاذبية الكونية؟ هذه الكتلة من المياه ليست بمنأى عن هذه القاعدة العامة. وبالإضافة إلى ذلك وبالرغم من الضغط الجوي الذي يقع على سطحها سترى مياهها تعلو كما تعلو مياه الأطلنطي تمامًا.

في هذه اللحظة كانت أقدامنا تغوص في رمال الشاطئ الذي كانت الأمواج تأتي فتلمس حافته رويدًا رويدًا.

- ها هو السيل يبدأ.

صحت قائلًا.

- نعم يا آكسل، وطبقًا لهذا القدر من الزبد، تستطيع أن ترى أن مياه البحر تعلو بمقدار عشرة أقدام تقريبًا.

- هذا مشهد رائع.

- كلا، إنه مجرد ظاهرة طبيعية.

- قل ما تريد يا عمي العزيز. ولكن كل ما أراه هنا يبدو لي غير معتاد، وأكاد لا أصدق ما تراه عيني من روعة وجمال. نعم، فأنا لم أتصور قَطُّ وجود محيط حقيقي في القشرة الأرضية بمده وجزره، بنسماته وعواصفه.

- ولم لا؟ هل هناك سبب فيزيائي يمنع ذلك؟

- لا أرى سببًا ما دمت اضطررت للتخلي عن نظرية الحرارة المركزية.

- إذَنْ، ألا ترى أن نظرية ديفي ما زالت مبررة حتى الآن؟

- بالطبع، ومن الآن لا يوجد ما يعارض وجود بحار أو بلاد في باطن الأرض.

- بلا شك، ولكنها غير مأهولة.

- حسن، ولكن لم لا تكون هذه البحار ملجأ لبعض الأسماك من فصيلة مجهولة؟

- على كل حال، نحن لم نلمح سمكة واحدة حتى الآن.

- بوسعنا أن نصنع سنانير ونرى لو كان الخطاف سيلاقي هنا في باطن الأرض النجاح الذي يلاقيه في البحار والمحيطات التي تجري على السطح تحت القمر.

- سنجرب يا آكسل، لأنه يجب علينا أن نكتشف كل أسرار هذه المناطق الجديدة.

- ولكن أين نحن الآن يا عمي؟ أنا حتى الآن لم أوجه لك هذا السؤال الذي سنجد إجابته حتمًا في قراءات معداتنا.

- أفقيًّا، نحن على مسافة ثلاثمائة وخمسين فرسخًا من أيسلندا.

- فعلًا؟

- أنا متأكد أني لم أخطئ ولو بمقدار خمسمائة توايز.

- وهل ما زالت البوصلة تشير إلى اتجاه الجنوب الشرقي؟

- نعم، وبانحراف غربي مقداره تسع عشرة درجة واثنان وأربعون دقيقة، تمامًا كما على سطح الأرض. أما عن ميلها فهناك شيء غريب يحدث وأتابعه بعناية شديدة.

- وما هو؟

- الإبرة بدلًا من أن تميل في اتجاه القطب كما تفعل في نصف الكرة الشمالي، ترتفع في اتجاه معاكس.

- يجب إذَنْ أن نستنتج أن نقطة الجذب المغناطيسي تقع بين سطح الأرض والموضع الذي وصلنا نحن إليه؟

- بالتحديد. ومن المرجح أننا لو وصلنا إلى نقطة أسفل المناطق القطبية، نحو الدرجة السبعين التي اكتشف جيمس روي عندها القطب المغناطيسي، لرأينا الإبرة تنتصب رأسيًّا. إذَنْ فمركز الجاذبية الغامض هذا لا يوجد على عمق كبير.

- هذا حقيقي، وهذه نقطة أخرى لم يشك فيها العلم.

- العلم يا ولدي تصنعه الأخطاء، ولكن الأخطاء التي نرتكبها لا بد أنها مفيدة، لأنها تقودنا في النهاية إلى الحقيقة شيئًا فشيئًا.

- وما هو العمق الذي نحن عليه الآن؟

- نحن على عمق خمس وثلاثون فرسخًا.

استطلعت الخريطة وأجبته قائلًا:

- وهكذا تكون المنطقة الجبلية في اسكتلندا فوقنا تمامًا، وهنا ترتفع إلى قمم شاهقة مرتفعات جرامبيان المكللة بالثلوج.

- نعم.

أجابني البروفيسور ضاحكًا.

- ربما كان هذا حملًا ثقيلًا ولكن القبة صلبة، ومهندس الكون الأكبر بناه بمواد جيدة، ولم يكن بوسع الإنسان قَطّ أن يفعل شيئًا مثل هذا، إذ ما هي أقواس الجسور وأقواس الكاتدرائيات القريبة من هذا الصحن بنصف قطر قدره ثلاثة فراسخ، والتي تسمح بوجود محيط وعواصف تحتها تتصرف بما تمليه عليها الطبيعة؟

- آه يا عمي، أن تنطبق السماء فوق رؤوسنا، ليس هذا ما أخشاه. والآن أخبرني ما هي خططك؟ ألا تنوي العودة إلى سطح الأرض؟

- العودة! ماذا تقول؟! بل على العكس سنستكمل رحلتنا طبعًا بما أن كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن.

- ومع ذلك أنا لا أرى كيف يمكن أن نهبط إلى أسفل تلك الكتلة المائية.

- أنا لا أدعي أننا يجب أن نسرع ونلقي بأنفسنا في الماء. ولكن لو أن المحيطات، كما هي في الحقيقة، ليست سوى بحيرات، بما أنها محاطة باليابسة، فلا بد أن هذا المحيط الجوفي تحيط به الكتلة الجرانيتية من كل الجهات.

- لا شك في ذلك.

- إذَنْ، أنا واثق أننا سنجد مخارج أخرى على الضفاف المقابلة.

- وما هو توقعك لعرض هذا المحيط؟

- ثلاثون أو أربعون فرسخًا.

- آه!

أجبته متعجبًا وقدرت أنه ربما لا يكون هذا التقدير دقيقًا تمامًا.

- وبالتالي ليس أمامنا وقت نضيعه ومن الغد سنركب البحر.

تلقائيًّا وجدت نفسي أبحث عن السفينة التي ستقللنا في رحلتنا.

- سنبحر إذَنْ، حسن، وأي باخرة تلك التي ستقللنا وتعبر بنا إلى الضفة الأخرى؟

- لن تكون هناك باخرة يا ولدي، بل سنعبر فوق طوافة جيدة وصلبة.

- طوافة!

صرخت مرتاعًا.

- إن بناء طوافة أمر مستحيل مثل بناء سفينة تمامًا وأنا لا أرى كيف...

- أنت لا ترى يا آكسل، ولكنك لو أصغيت لسمعت.

- سمعت؟

- نعم، لسمعت ضربات المطرقة التي ستخبرك أن هانز قد بدأ العمل بالفعل.

- هل يبني طوافة؟

- نعم.

- وكيف ذلك؟ هل قطع أشجارًا بمعوله؟

- أوه! الأشجار كانت مقطوعة بالفعل. تعالَ وسترى هانز وهو يعمل.

وبعد ربع ساعة من السير وفي الجانب الآخر من الخليج الذي شكَّل ميناء صغيرًا من فعل الطبيعة، لمحت هانز وهو يعمل. وبعد بضع خطوات أخرى أصبحت على مقربة منه. ولدهشتي الكبيرة، رأيت طوافة شبه مكتملة تقبع فوق الرمال. كانت مصنوعة من عوارض من خشب معين، وعدد كبير من الألواح والأقواس والقطع الخشبية من كل نوع متناثرة حرفيًّا على رمال الشاطئ. كان أمام هانز ما يكفي لبناء أسطول كامل.

- ما نوع هذه الأخشاب يا عمي؟

- هذا خشب أشجار الصنوبر والتنوب والبتولا، وكل أنواع الصنوبريات الشمالية التي تحجرت بفعل مياه البحر.

- وهل هذا ممكن؟

- هذا ما نطلق عليه «surtarbrandur» أو الخشب الأحفوري.

- ولكنه يكتسب إذَنْ صلابة الحجر، مثل الليجنيت، ولا يمكنه الطفو أليس كذلك؟

- يحدث هذا أحيانًا، بعض هذه الأخشاب تحولت إلى فحم صلب حقيقي، ولكن البعض الآخر، مثل تلك التي نراها أمامنا، لم تخضع بعد إلا لبداية عملية التحول الأحفوري. انظر لترى بنفسك.

قال عمي هذا وأمسك بقطعة من هذا الحطام الثمين وقذف بها إلى المياه.

وبعد أن اختفت قطعة الخشب عادت إلى سطح الماء ثانية وتمايلت مع تموجاته. وسألني عمي:

- هل اقتنعت الآن؟

- اقتنعت بالفعل أن هذا أمر لا يُصدق.

وفي مساء الغد وبفضل مهارة دليل رحلتنا، كانت الطوافة جاهزة للاستخدام. كان طولها يبلغ عشرة أقدام، وعرضها خمسة أقدام، وكانت العوارض المصنوعة من الخشب الأحفوري التي تربطها أحبال قوية تصنع سطحًا صلبًا. وما إن دفع هذا القارب المبتكر إلى الماء، إلا وطفا مطمئنًّا فوق صفحة مياه محيط ليدنبروك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والثلاثون

في الثالث عشر من أغسطس استيقظنا مبكرين. كان علينا أن ندشن نوعًا جديدًا من الناقلات السريعة والمريحة نوعًا ما.

كان كل متاع الطوافة المبتكرة التي صنعها هانز هو صارٍ مصنوع من اثنين من العصي المتماثلتين، وعارضة مصنوعة من العصا الثالثة، وشراع كان واحدًا من أغطيتنا استخدمه هانز لهذا الغرض.

وبما أن الحبال لم تكن تنقصنا، كانت الطوافة في مجملها صلبة قوية.

وفي تمام السادسة، أعطى البروفيسور إشارة الصعود إلى طوافتنا، وكانت المؤن والأمتعة والأدوات والأسلحة وكمية كبيرة من الماء العذب قد حملت بالفعل على سطحها.

وكان هانز قد قام بتركيب دفة تمكنه من توجيه جهازه العائم وجلس يدير الدفة. وأطلقت أنا الحبل الذي كان يربطنا إلى الشاطئ واتخذ الشراع وجهته وبدأت رحلتنا سريعًا.

وفي اللحظة التي كنا على وشك مغادرة الميناء الصغير أراد عمي الذي كان متمسكًا بتسمياته الجغرافية، أن يطلق اسمًا على المرفأ الصغير. وقرر أن يطلق عليه اسمي أنا دون غيره.

- يا أله! دعني أقترح عليك تسمية أخرى يا عمي.

- وما هي؟

- جروبن. ميناء جروبن، هذه تسمية ستبدو رائعة على خريطة جغرافية.

- فليكن. هو ميناء جروبن إذَنْ.

وهكذا ارتبط تذكار محبوبتي الفيرلاندية برحلتنا الاستكشافية السعيدة.

الريح كان اتجاهها إلى الشمال الغربي، وكنا نبحر بسرعة شديدة مدفوعين بالرياح من خلفنا. طبقات الجو عالية الكثافة كانت تضغط بقوة هائلة، وأثرت على الشراع كما لو كانت مروحة قوية.

وبعد ساعة أدرك عمي مدى السرعة التي نسير بها فقال:

- لو استمررنا في السير بهذه السرعة سنقطع ثلاثين فرسخًا على الأقل في غضون أربع وعشرين ساعة، ولن نتأخر في الوصول إلى الضفة المقابلة.

لم أُجبه وذهبت لأتخذ مكاني في مقدمة الطوافة. كان الساحل الشمالي قد بدأ بالفعل يهبط في الأفق. وانفتحت ذراعي الشاطئ واسعًا كما لو كانت تريد أن تسهل لنا الرحيل، وامتدت مياه البحر شاسعة أمام ناظري. رأيت السحب الضخمة تجول بظلالها الرمادية سريعًا فوق صفحة المياه الكئيبة. وكانت الأشعة الفضية للنور الكهربي المنعكسة هنا وهناك على بعض قطرات الماء تصنع نقاطًا مضيئة على جوانب طوافتنا. وسرعان ما غابت اليابسة عن بصرنا واختفت كل المعالم، ولولا خيط الزبد الذي تثيره الطوافة لظننتها لا تتحرك.

وعند الظهيرة ظهرت طحالب عملاقة تتموج فوق صفحة المياه. كنت أعرف القوة الخضرية لهذه النباتات التي تزحف على عمق أكثر من اثني عشر ألف قدم تحت سطح البحار، وتتكاثر تحت ضغط يقرب من أربعمائة درجة، وتكون في أغلب الأحيان ضفافًا هائلة كفيلة بإعاقة حركة السفن، ولكني قَطُّ لم أرَ طحالب عملاقة مثل تلك التي رأيتها في محيط ليدنبروك.

أبحرت طوافتنا بمحاذاة طحالب بلغ طولها ثلاثة أو أربعة آلاف قدم، ثعابين هائلة الضخامة تمتد إلى مرمى البصر. كنت أتسلى بمراقبة هذا الشريط اللا نهائي من الطحالب معتقدًا أني حتمًا سأصل إلى نهايته، وبعد ساعات وساعات طوال أدركت أني مخطئ في صبري الطويل وفي دهشتي أيضًا.

أي قوة طبيعية يمكنها أن تنتج مثل هذه النباتات؟ وما هو الشكل الذي كانت عليه تربة الأرض في القرون الأولى من تكوينها عندما كان وحده عالم النبات هو الذي ينمو ويتطور فوق سطحها بفعل الحرارة والرطوبة!

حل المساء وكما لاحظت في الأمس، لم يحدث أي تغيير في الفضاء المضيء من حولنا. كانت هذه ظاهرة ثابتة بوسعنا الاعتماد عليها.

وبعد العشاء استلقيت تحت الصاري ولم ألبث أن غبت في نوم تخللته أحلام كسولة.

أما هانز الذي ظل لا يتحرك عند الدفة فقد ترك الطوافة تبحر من دون حاجة إلى توجيه، إذ كانت مدفوعة بالرياح الخلفية.

وجعلني عمي منذ أن غادرنا ميناء جروبن أضطلع بمهمة تحديث سجل الرحلة، وتسجيل كل ملحوظة وكل ظاهرة غريبة تقابلنا، واتجاه الريح وسرعة الطوافة والطريق الذي نقطعه، أي تحديدًا كل أحداث رحلتنا العجيبة هذه.

سأكتفي إذَنْ بنقل هذه الملاحظات اليومية التي أملتها عليَّ الأحداث حتى أُقدم قصة أكثر صدقًا ودقة لرحلتنا.

الجمعة 14 أغسطس: ريح معتدلة شمالية-غربية. الطوافة تبحر بسرعة في اتجاه مستقيم. الساحل ما زال على بعد ثلاثين فرسخًا تحت الريح. لا شيء في الأفق. حدة الضوء ما زالت كما هي لم تتغير. الطقس صحو، أي أن السحب مرتفعة للغاية، قليلة الكثافة، تسبح في جو أبيض كما لو كانت قطعًا من فضة في حالة انصهار.

الترمومیتر: +32° C.

وعند الظهيرة أعد هانز خطافًا ربطه في طرف حبل، وجعل في حافته قطعة صغيرة من اللحم وألقاه في الماء. لم يحدث شيء لمدة ساعتين كاملتين. هل هذه البحار مهجورة؟ كلا. فجأة اهتز سطح الماء وشد هانز سنارته معلقًا في طرفها سمكة تحاول بشدة أن تتحرر من إسارها. وصاح عمي:

- سمكة!

وصحت بدوري:

- إنها من فصيلة الحفش، حفش ذات حجم صغير.

ونظر عمي إلى السمكة يفحصها بجدية ولم يشاركني الرأي.

- هذه سمكة ذات رأس مسطح مستدير، والجزء الأمامي من جسمها مغطى بشرائح عظيمة. فمها لا أسنان فيه، وهناك زعانف صدرية متطورة مثبتة على جسمها الذي لا ذيل له. هذا الحيوان ينتمي إلى فصيل صنَّف فيه علماء الطبيعة سمك الحفش، ولكنه يختلف عنه في جوانب أساسية.

كان عمي على حق إذ قال بعد فحص سريع:

- هذه السمكة تنتمي إلى عائلة انقرضت منذ قرون، ونجد آثارًا حفرية لها في التربة الديفونية.

- كيف؟ وهل اصطدنا نحن كائنًا حيًّا من سكان هذه البحار البدائية؟

- نعم.

أجابني البروفيسور وهو مستمر في ملاحظاته.

- وكما ترى، فإن هذه الأسماك الأحفورية لا تنتمي إلى نفس هوية الأسماك المعاصرة. إذَنْ فالإمساك بإحدى هذه الكائنات حية هو سعادة خالصة لعالم من علماء الطبيعة.

- ولكن إلى أي عائلة ينتمي هذا الكائن؟

- إلى رتبة الجانويد، عائلة السيفالاسبيديون، من نوع...

- ثم؟

- نوع الـ Pterychtis، أقسم على ذلك، ولكن هذا الكائن به شيء مميز نجده في الأغلب في أسماك المياه الجوفية.

- وما هو؟

- إنه أعمى.

- أعمى!

- ليس أعمى فقط بل إن عضو الإبصار ليس موجودًا على الإطلاق.

نظرت إلى السمكة. كان ما قاله عمي حقيقيًّا. ربما هذه حالة خاصة. أعدت الخطاف مرة أخرى ورميت السنارة إلى الماء من جديد. هذا المحيط بكل تأكيد مأهول بالأسماك، إذ إننا حصلنا في مدة ساعتين على كمية كبيرة من الـ Pterychtis وأيضًا على أسماك تنتمي إلى عائلة منقرضة أخرى هي عائلة الـ Dipterides وإن كان عمي فشل في معرفة نوعها. كل هذه الأسماك لم يكن لديها عضو إبصار. وجددت عملية الصيد غير المتوقعة هذه مخزوننا من المؤن.

وهكذا استقر الأمر. هذا المحيط لا يحتوي إلا على أنواع أحفورية، منها أسماك تشبه الزواحف وهي أكثر كمالًا كلما كانت أقدم في تاريخ الخليقة.

ربما نصادف بعضًا من هذه الرتب الفرعية للزواحف التي تمكن العلم من إعادتها باستخدام قطع من عظم أو غضروف.

أمسكت بالنظارة وطفقت أحدق في المياه فاحصًا. كانت مهجورة. نحن على الأرجح قريبون من الساحل ما زلنا.

وأدرت بصري إلى الفضاء. لماذا لا أرى أيًّا من هذه الطيور التي أعاد تجميعها العالِم خالد الذكر كوفييه، تضرب بأجنحتها هذه الطبقات الجوية الثقيلة؟ هناك أسماك تكفي لإطعامها لو وجدت. راقبت الفضاء ولكنه ظل مهجورًا مثله مثل الشواطئ.

ومع ذلك ظل خيالي يسبح في الفرضيات الرائعة لعلم الحفريات. كنت في يقظتي أحلم وخيل إليَّ أني أرى على صفحة الماء هذه «الكيرسيت» أو سلاحف ما قبل الطوفان التي تشبه جزرًا عائمة. وتهيأ لي أن ثدييات الأيام الأولى تحوم على السواحل المظلمة، الـ Leptotherium الذي وجد في كهوف البرازيل، والـ Mericotherium القادم من مناطق الثلوج في سيبريا. وإلى أبعد قليلًا حيوان الشثني الـ Lophiodon، هذا المتلون الضخم يختبئ خلف الصخور، يريد انتزاع فريسة فاز بها الـ Anoplotherium، هذا الحيوان الغريب الذي به شبه من وحيد القرن ومن الحصان وفرس النهر والجمل، وكأنما الخالق كان متعجلًا في الساعات الأولى من عمر الأرض، فجمع أكثر من حيوان في واحد. الـ Mastodonte العملاق يدور بخرطومه في الهواء ويطحن بأضراسه العاجية صخور الشاطئ بينما الـ Megatherium ينحني نابشًا الأرض بأرجله الضخمة ومصدرًا زئيرًا مخيفًا تردد صداه جدران الجرانيت الصلبة.

وتمادى خيالي فتراءى لي أول قرد ظهر على سطح الأرض، الـ Protopithèque وهو يتسلق القمم المدببة. وإلى أعلى الـ Ptérodactyle ذو اليد المجنحة يزحف فوق الهواء المضغوط وكأنه خفاش ضخم. وأخيرًا في الطبقات العليا، تهيأ لي أن طيورًا عملاقة أكثر قوة من طائر الكاسوراي، وأكبر حجمًا من النعامة، تفرد أجنحتها العريضة متجهة إلى أعلى، إلى حيث ترتطم رؤوسها بالقبة الجرانيتية.

هذا العالم الأحفوري كله ولد في مخيلتي. وعدت إلى حقبة بدء الخليقة كما جاءت في الكتاب المقدس قبل مجيء الإنسان، عندما كانت الأرض غير مكتملة لا تصلح لمعيشته. وذهب حلمي إلى بعيد وسبق ظهور الكائنات المتحركة. الثدييات تختفي، ثم الطيور، ثم زواحف الحقبة الثانوية، وأخيرًا الأسماك والقشريات والرخويات والمفصليات. وتعود الزوفيت (الحيوانات نباتية الشكل) إلى العدم هي الأخرى، والحياة على الأرض كلها اختزلتها في أنا وحدي. قلبي هو وحده الذي ينبض في هذا الكون المهجور، حيث لا فصول ولا مناخ، حرارة الكوكب ترتفع بلا توقف وتعادل حرارة الكوكب المضيء وتُحيدها. والغطاء النباتي ينمو ويتكاثر بكثافة. وأنا أسير كالشبح وسط نباتات السرخس الشجرية، ترتطم خطواتي المترددة بقطع الفخار قزحي الألوان، وقطع الحجر الرملي المتناثرة على التربة، أستند إلى جذع الصنوبريات الضخمة وأغفو تحت ظلال أشجار الـ Sphenophylles (وهي نباتات منقرضة وجدت في نهاية العصر الديفوني إلى بداية العصر الترياسي)، والـ Asterophylles والـ Lycopodes التي يبلغ ارتفاعها مائة قدم.

وتوالت القرون وكأنها أيام. أصعد سلسلة التحولات الأرضية. تختفي النباتات، وتفقد الصخور الجرانيتية صلابتها، وتحل الحالة السائلة محل الحالة الصلبة تحت التأثير المتزايد للحرارة الشديدة، وتجري المياه فوق سطح الأرض، تغلي وتتبخر وتحيط الأبخرة بكوكب الأرض الذي يتحول شيئًا فشيئًا إلى مجرد كتلة غازية ذات لون أحمر يميل إلى البياض، كتلة كبيرة مثل الشمس ومضيئة مثلها.

وفي قلب هذا السديم المهول الأكبر ألف وأربعمائة مرة من الكوكب الذي ستكونه ذات يوم، أراني مندفعًا في الفضاء الكوني بين الكواكب، وجسدي هو الآخر يختفي، يسمو ويمتزج مثل ذرة خارج السيطرة، بهذه الأبخرة الهائلة التي تسطر في المنتهى مدارها الناري.

أي حلم هذا! إلى أين يأخذني؟ أسرعت يدي المحمومة تسجل على الورق تفاصيله الغريبة. نسيت كل شيء، البروفيسور والدليل والطوافة. هذيان غريب استولى على عقلي...

- ماذا بك؟

تساءل عمي مندهشًا.

تسمرت عيناي المفتوحتان عليه من دون أن أراه.

- احترس يا آكسل، ستسقط في الماء.

في اللحظة ذاتها شعرت بيد هانز تشدني بقوة، ولولاه لسقطت وسط الأمواج وأنا سارح في حلمي الغريب. وصاح بي البروفيسور مُعنِّفًا:

- ماذا بك؟ هل جننت؟

- ماذا حدث؟

أجبته وأنا أعود إلى نفسي أخيرًا.

- هل أنت مريض؟

- كلا، ولكن مرت بي لحظة هذيان، ولكنها مرت. هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، ريح جيدة وبحر مُواتٍ، نحن نبحر بسرعة جيدة ولو لم أخطئ التقدير، فلن نتأخر في الوصول إلى اليابسة.

وعند هذا الحد قمت من مكاني ووقفت أتأمل الأفق، ولكن حد المياه كان لا يزال ممتزجًا بالسحاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والثلاثون

السبت 15 أغسطس

البحر ما زال محتفظًا برتابته الهادئة. لا يوجد أثر لليابسة في الأفق الذي ما زال خطه يتباعد ويتباعد.

رأسي ما زال يرزح تحت ثقل حلمي العنيف. عمي لم يحلم ولكنه كان متعكر المزاج، يدور ويدور في الفضاء المحيط بنظارته المعظمة، ثم يعقد ذراعيه بنظرة منزعجة.

لاحظت أن البروفيسور ليدنبروك يميل إلى العودة إلى طبيعته السابقة ونفاد صبره المعهود، ودونت ملحوظتي هذه في سجل الرحلة. كان يجب أن أمر بما مررت به من مخاطر وآلام ومعاناة لكي أنتزع منه بضع شذرات من إنسانية وعطف. ولكن منذ أن شفيت أصبحت لطبيعته القديمة اليد العليا. ومع ذلك لم أفهم لم الثورة ولم الغضب؟ ألا تسير الرحلة في ظروف مواتية؟ ألا تبحر الطوافة بسرعة رائعة؟

وقلت للبروفيسور وأنا أراه يضع المنظار على عينيه مرات ومرات:

- يبدو عليك القلق يا عمي.

- القلق؟ كلا.

- نفاد الصبر إذَنْ؟

- ألا ترى مبررًا لذلك؟

- الحقيقة نحن نسير بسرعة كبيرة...

- وماذا يهمني في ذلك؟ السرعة ليست بطيئة ولكن البحر شاسع جدًّا.

تذكرت حينئذٍ أن البروفيسور قبل رحيلنا قدَّر هذه المسافة الجوفية بثلاثين فرسخًا، بينما نحن قطعنا حتى الآن ما يزيد على ثلاثة أضعاف هذا الرقم، ومع ذلك فإن سواحل الجنوب لم تلُح بعد.

واستطرد البروفيسور:

- نحن لا نهبط، كل هذا وقت ضائع، وفي الحقيقة أنا لم آتِ إلى هنا وأفعل كل ما فعلت لأستمتع بنزهة مركب على سطح بركة.

إنه يسمي رحلتنا هذه نزهة وهذا البحر الواسع يسميه بركة.

- ولكن بما أننا اتبعنا الطريق الذي رسمه ساكنوسسيمم...

- هذا هو السؤال. هل نحن اتبعنا هذا الطريق؟ هل قابل ساكنوسسيمم في رحلته رقعة الماء هذه؟ هل عبرها؟ وهذا الجدول الذي اتخذناه دليلًا ألم يضللنا عن الطريق السليم؟

- على أي حال، لا يسعنا أن نندم على وصولنا إلى هذه النقطة. هذا المشهد رائع جدًّا، و...

- الأمر لا يتعلق بالرؤية. أنا حددت لنفسي هدفًا وسوف أصل إليه، ولذا لا تحدثني عن تأمل المشهد والإعجاب به.

التزمت بما أمرت به وتركت البروفيسور يقضم شفتيه من فرط صبره النافد. وفي السادسة مساء، طالب هانز بأجره ودفعت إليه الريكسدلات الثلاثة.

الأحد 16 أغسطس

لا جديد. الطقس نفسه. الريح تميل إلى برودة منعشة. وعندما استيقظت كان همي الأول هو التأكد من شدة الضوء. كنت أخشى أن يأتي يوم تظلم فيه الظاهرة الكهربية ثم تنطفئ. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث. وبقي ظل الطوافة منعكسًا على صفحة المياه بكل دقة.

فعلًا، إن هذا البحر بلا نهاية، لا بد وأنه يبلغ عرض البحر المتوسط، أو ربما المحيط الأطلنطي، ولم لا؟

عمي يقوم بقياساته عدة مرات يوميًّا. يربط أثقل معول في حبل ويتركه يقع في الماء إلى مسافة مائتي ذراع. ولكن لا قاع بعد. وفي كل مرة يفعل فيها ذلك كنا نعاني لرفع مسبارنا.

وفي مرة من تلك المرات وبعدما رفعنا المعول إلى السطح مرة أخرى، أشار لي هانز بأن ألاحظ على سطحه علامات كانت شديدة الوضوح. بدا الأمر وكأن قطعة الحديد هذه قد حشرت بقوة بين أجسام صلبة. ونظرت إلى الصياد الذي قال:

- Tänder.

لم أفهم. واستدرت نحو عمي الذي كان منغمسًا تمامًا في تفكير عميق. لم أُرد أن أزعجه وعدت إلى الأيسلندي الذي فتح فمه وأغلقه عدة مرات محاولًا أن يجعلني أفهم ما يفكر فيه.

وصحت مذهولًا:

- أسنان!

وأنا أفحص المعول الحديدي بدقة أكبر، نعم، إنها بالفعل أسنان هي التي تركت آثارها محفورة على المعدن. لا بد وأن الفك الذي يحمل هذه الأسنان هو فك ذو قوة خارقة. هل هو وحش من الأنواع المفقودة يتجول أسفل المياه العميقة، مفترس أكثر من القرش ومخيف أكثر من الحوت؟! لم أتمالك نفسي وبقيت لا أقدر على إبعاد بصري عن الحديد المتآكل. هل حلم البارحة على وشك أن يصبح حقيقة؟

ظلت هذه الأفكار تتصارع في ذهني النهار كله، لم يهدأ بالي سوى سويعات قليلة خلدت فيها إلى النوم.

الاثنين 17 أغسطس

حاولت أن أتذكر الغرائز التي تميزت بها هذه الحيوانات التي عاشت في الحقبة الثانوية قبل الطوفان، والتي جاءت بعد الرخويات والقشريات والأسماك، ولكنها سبقت ظهور الثدييات على الأرض. في هذا الوقت كانت الزواحف تتسيد العالم. هذه الوحوش كانت تحيا وتسود كالملوك في البحار الجوراسية (هي بحار الحقبة الثانوية التي تكونت منها التربة التي تشكلت منها جبال جورا). الطبيعة حبتها بنسق أكثر كمالًا، فأي بنية عملاقة؟! وأي قوة خارقة؟! إن الزواحف المعاصرة، حتى التماسيح المخيفة ليست سوى نماذج مصغرة لآبائها الذين عاشوا في العصور الأولى.

شعرت بالرجفة تسري في بدني لمجرد أني تذكرت هذه الوحوش. لم تقع عين بشر على أي منها أحياء. هذه وحوش ظهرت على الأرض ألف قرن قبل مجيء الإنسان، ولكن عظامها المتحجرة التي وجدت في هذا الحجر الجيري الطيني الذي يطلق عليه الإنجليز الـ lias سمح بإعادة بناء هيئتها التشريحية والتعرف على هيكلها الضخم.

لقد شاهدت في متحف هامبورج الهيكل العظمي لواحد من هذه الزواحف طوله ثلاثون قدمًا. هل هو قدري أنا الذي أسكن سطح الأرض أن أجد نفسي وجهًا لوجه مع ممثلي عائلة زواحف من قبل الطوفان؟

كلا. هذا أمر مستحيل. ولكن علامة الأسنان القوية محفورة على يد المعول الحديدي، والبصمة المخروطية التي تركتها عليه، دفعتاني دفعًا للظن بأنها أسنان تمساح.

تسمرت عيناي على صفحة المياه أرقبها برعب وهلع. كنت أخشى رؤية أحد سكان هذه الكهوف الغاطسة تحت الماء وهو يقفز إلى السطح.

أعتقد أن البروفيسور ليدنبروك هو الآخر كان يشاركني أفكاري نفسها، بل مخاوفي، إذ إنه بعد أن فحص المعول ظل يجول ببصره على سطح المحيط.

تقلبات الموج التي طرأت على السطح كانت تنبئ بالفعل أن هناك ما يقلق في الطبقات السفلى. الخطر بات قريبًا ويجب أن نرقبه وأن نحترس.

الثلاثاء 18 أغسطس

الليل أتى، بل لنقُل إن النوم أثقل جفوننا، لأنه لا ليل هناك في هذا المحيط المترامي، والضوء العنيد يصر أن يرهق عيوننا كما لو كنا نبحر تحت شمس البحار القطبية.

هانز كان يمسك بالدفة وخلدت أنا إلى النوم.

وبعد ساعتين أيقظتني فجأة هزة رهيبة. الطوافة ارتفعت عاليًا فوق سطح الماء بقوة لا توصف، وألقيت إلى مسافة عشرين توايز بعيدًا عن موقعها. وصاح عمي قائلًا:

- ماذا يحدث؟ هل ارتطمنا بشيء؟

أشار هانز بيده إلى حيث كانت كتلة سوداء ترتفع وتهبط في وتيرة منتظمة على بعد مائتي توايز. وصحت قائلًا عندما رأيت ما أشار إليه هانز:

- إنه خنزير بحر عملاق.

وأردف عمي يوافقني قائلًا:

- نعم، وهذه أيضًا سحلية بحرية ذات ضخامة نادرة.

- وفي البعد هناك تمساح وحشي. انظر إلى فكه وإلى الأسنان الرهيبة التي تملأه. آه! إنه يختفي.

- وهذا حوت، حوت.

صاح البروفيسور وهو يشير إلى بعيد.

- إني أرى زعانفه الضخمة. انظر إلى كمية الهواء والماء التي تطردها خياشيمه.

بالفعل رأيت عمودين من السوائل يعلوان إلى ارتفاع كبير فوق سطح البحر. بقينا مندهشين ومذهولين بل مرعوبين في حضرة هذا القطيع من الوحوش البحرية. أحجام هذه الحيوانات البحرية كانت أحجامًا غير طبيعية، وأقلها حجمًا كان كفيلًا بأن يشق طوافتنا بضربة واحدة من أسنانه. هانز كان يريد أن يبحر مسرعًا ليهرب بنا من هذا الجوار الخطر، ولكنه لمح في الطرف الآخر أعداء آخرين لا يقلون خطرًا. سلحفاة ضخمة بلغت نحو أربعين قدمًا وثعبان لا يقل طوله عن ثلاثين قدمًا كان يصوب رأسه الهائل فوق سطح الموج.

لا سبيل إلى الفرار. هذه الزواحف تقترب وتحوم حول الطوافة بسرعة لا نستطيع أن نجاريها حتى لو زاد هانز سرعتها إلى الدرجة القصوى. ظلت الزواحف تدور وتدور حول الطوافة ترسم حولها دوائر مركزية. أمسكت بندقيتي ولكن أي تأثير يمكن أن تحدثه طلقة في هذه الحراشف التي تغطي أجساد هذه الوحوش؟

أخرسنا الخوف والرعب. إنها تقترب! التمساح من ناحية والثعبان من الناحية الأخرى. أما باقي القطيع فقد اختفى. كدت أطلق عيارًا ولكن هانز أوقفني بإشارة من يده. كان الوحشان يمران على بعد خمسين توايز من الطوافة ويشتبكان معًا في عراك هائل، منعهما من أن يلحظا وجودنا.

استمرت المعركة دائرة على بعد مائة توايز من الطوافة. وكان بوسعنا أن نرى الوحشين المتقاتلين بوضوح.

وتهيأ لي أن الحيوانات الأخرى جاءت لتشارك في المعركة. الخنزير البحري والحوت والسحلية والسلحفاة البحرية. وأشرت إلى الأيسلندي ليراها هو الآخر ولكنه هز رأسه نافيًا وقال:

- Tva.

- ماذا؟! اثنان!

إنه يدعي أن ما نراه هو اثنان من الحيوانات فقط...

- هو محق.

أجاب عمي الذي لم تفارق النظارة المعظمة عينيه.

- ما هذا الهراء؟!

- نعم، هو على حق. أول هذه الوحوش له أنف خنزير ورأس سحلية وأسنان تمساح، وهذا ما خدعنا جميعًا. إنه الـ ichthyosaurus! أخطر زواحف ما قبل الطوفان وأكثرها مدعاة للرهبة والخوف.

- والآخر؟

- الآخر هو الـ plesiosaurus وهو ثعبان ضخم يختبئ داخل صدفة سلحفاة، وهو العدو اللدود للوحش الأول.

ما قاله هانز كان حقيقيًّا. اثنان من الوحوش فقط هما اللذان تعاركا فأحدثا هذا الاضطراب العظيم فوق سطح المياه، وها أنا واقف أرقب أمام ناظري معركة تدور رحاها بين اثنين من زواحف المحيطات البدائية.

لمحت عين الـ ichthyosaurus، مخضبة بالدم. كانت عينه كبيرة كمثل رأس إنسان، وقد حبته الطبيعة جهازًا بصريًّا فائق القدرة، يمكنه مقاومة الضغط العالي لطبقات المياه في الأعماق التي يعيش فيها. كان العلماء محقين عندما أسموه «حوت الزواحف البحرية»، إذ كان له مثل حجم الحيتان ومثل سرعتها. هذا الذي نراه كان لا يقل طولًا عن مائة قدم، فقد أمكنني تقدير حجمه عندما انتصبت زعانف ذيله الرأسية فوق صفحة الماء. كان فكه هائلًا. وطبقًا لما وصفه علماء الطبيعة، فقد كان هذا الفك مزينًا بما لا يقل عن مائة واثنين وثمانين من الأسنان الحادة.

الـ plesiosaurus، هو ثعبان ذو جذع أسطواني، له ذيل قصير وأرجل مرتبة على هيئة مجاديف. جسمه مغطي تمامًا بصدفة صلبة وعنقه المرن مثل عنق بجعة، ينتصب عاليا بارتفاع ثلاثين قدم فوق سطح الموج.

كان الوحشان يهاجم كل منهما الآخر بعنف وهياج لا يوصف، وكان عراكهما وتشابكهما يثير جبالًا من المياه يصل مداها إلى الطوافة التي نستقلها، والتي كانت على وشك أن تنقلب عشرين مرة في هذه الأثناء. وكان العدوان يطلقان صفيرًا مخيفًا في أثناء عراكهما، ثم التحما حتى أني فشلت في أن أميز كل منهما من الآخر. الخوف كل الخوف من ثورة المنتصر. ساعة مضت ثم ساعتان والمعركة مستمرة بنفس حدتها. الوحشان المتحاربان يقتربان من الطوافة حينًا ويبتعدان عنها حينًا آخر، كل هذا ونحن قابعون بلا حراك، مستعدون لإطلاق النار إذا ما دعت الحاجة.

وفجأة اختفى الـ plesiosaurus والـ ichthyosaurus مخلفين عاصفة حقيقية وسط الأمواج. ومرت عدة دقائق. هل ينتهي الصراع في الأعماق بعد أن خبا على السطح؟

وفجأة اندفع رأس هائل إلى الخارج، كان هو رأس الـ plesiosaurus. الوحش كان جريحًا وعلى وشك الموت، ولم أعد ألمح درعه الضخمة. فقط عنقه الطويل ينتصب، ثم ينهار ويسقط ويرتفع من جديد، ثم ينثني ويضرب الأمواج كما لو كان سوطًا هائلًا، ويتلوى مثل دودة انشقت إلى نصفين. واندفع الماء الهادر إلى مسافة كبيرة، وكاد يحجب عنا الرؤية، ولكن سرعان ما وصلت معاناة

الثعبان إلى نقطة النهاية وخفتت حركاته وهدأت تشنجاته، وارتمى الثعبان الطويل مثل كتلة خاملة فوق صفحة الموج التي استعادت هدوءها. أما الـ ichthyosaurus فلا نعرف هل عاد إلى كهفه تحت الماء أم أنه سيعود ليظهر من جديد على السطح؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والثلاثون

الأربعاء 19 أغسطس

هبت لحسن الحظ ريح قوية سمحت لنا بأن نفر سريعًا من ساحة المعركة. كان هانز يتولى القيادة كالمعتاد، بينما عمي الذي انتشلته المعركة وأحداثها الدامية من الأفكار التي كانت تستغرقه، قد عاد بعدها إلى تأمل اليم من حولنا نافد الصبر كالمعتاد.

استعادت الرحلة رتابتها المملة، وإن كنت أُفضل الرتابة عن الأخطار التي حاقت بنا بالأمس.

الخميس 20 أغسطس

ريح شمالية - شمالية - شرقية غير مستقرة. الجو حار. نبحر بسرعة ثلاثة فراسخ ونصف في الساعة. نحو منتصف النهار ترامت إلى أسماعنا أصوات بعيدة جدًّا، وأنا أسجل هذا الحدث هنا من دون أن أملك تفسيرًا له. كان صوت خوار مستمر. وقال البروفيسور:

- توجد صخرة ما هناك بعيدًا، أو ربما جزيرة صغيرة، ينكسر الموج عندها.

صعد هانز إلى أعلى الصاري يستطلع الأمر، ولكنه لم يُشر إلى وجود أي شيء. المحيط كان يمتد بلا عائق إلى خط الأفق.

ثلاث ساعات مرت وبدا كما لو أن الخوار مصدره شلال بعيد، وأشرت إلى عمي بذلك، ولكنه هز رأسه نافيًا هذا الاحتمال. ولكني كنت على قناعة أني محق في تفكيري. هل نكون في طريقنا إلى شلال ما سيدفعنا إلى القاع؟ ربما تكون هذه الطريقة في الهبوط مرضية للبروفيسور لكونها أقرب إلى الهبوط الرأسي، أما أنا...

على أي حال لا بد وأن هناك ظاهرة مدوية على بعد فراسخ قليلة، إذ إن صوت الخوار أصبح مسموعًا بعنف الآن. هل تأتي هذه الأصوات من السماء أم من المحيط؟ رفعت بصري إلى الأبخرة المعلقة في الجو محاولًا استطلاع كثافتها، ولكن السماء بقيت هادئة. السحب التي حملها الهواء إلى أعلى القبة بدت ثابتة بلا حراك، تائهة وسط الضوء الكثيف. يجب أن أبحث عن سبب هذه الظاهرة في مكان آخر.

أدرت بصري إلى الأفق الذي بدا نقيًّا وخاليًا من الضباب. لم يتغير في مظهره شيء. ولكن لو أن هذا الخوار يأتي من مسقط مياه أو شلال، أو لو أن هذا المحيط كله كان في سبيله للسقوط في حوض سفلي، ولو أن هذا الخوار كان مصدره كتلة مائية تسقط، لكان لا بد للتيار أن يشتد وأن تعطيني سرعته المتصاعدة تقديرًا لحجم الخطر الذي يهددنا. استطلعت التيار. لا شيء. ألقيت زجاجة فارغة في الماء فبقيت في مكانها تحت الريح.

ونحو الساعة الرابعة قام هانز من مكانه وتسلق الصاري إلى نهايته. ومن أعلى نقطة، دار ببصره فاحصًا قوس الدائرة الذي يشكله المحيط أمام الطوافة وتوقف عند نقطة ما. لم يبدُ على وجهه أي اندهاش ولكنه اقشعر. وقال عمي:

- إنه رأى شيئًا ما.

- أعتقد ذلك.

نزل هانز وأشار بيده إلى الجنوب وقال:

- Der nere!

- هناك؟

أجابه عمي وهو يمسك بنظارته وينظر إلى حيث أشار هانز لمدة دقيقة مرت عليَّ وكأنها قرن كامل.

- نعم، نعم.

- ماذا رأيت؟

- حزمة هائلة ترتفع فوق الأمواج.

- حيوان بحري آخر؟

- فلندِر الدفة إلى الغرب قليلًا، لأننا الآن نعرف ما هي مخاطر الاقتراب من هذه الوحوش التي من قبل الطوفان.

- لن نفعل شيئًا من ذلك.

أجابني عمي.

استدرت نحو هانز الذي كان يمسك بالدفة بقوة وصرامة لا تهتز.

ومع ذلك، لو أن المسافة التي تفصلنا عن هذا الحيوان والتي تقدر باثني عشر فرسخًا على الأقل، لا تمنعنا من رؤية عمود المياه الذي تطلقه خياشيمه، فهذا يعني بالتأكيد أنه ذو حجم خارق للعادة. الهروب لن يكون ممكنًا إلا بالامتثال لقانون مبتذل هو الحذر، ونحن لم نأتِ إلى هنا لنلتزم الحذر.

استمر إبحارنا إلى الأمام. وكلما اقتربنا كبر حجم الحزمة الطافية. أي وحش هذا الذي يمكنه أن يمتلئ بمثل هذه الكمية من المياه ثم يطردها هكذا من دون انقطاع ولا توقف؟

في الساعة الثامنة مساء وصلنا إلى مسافة فرسخين منه. جسده الأسود الهائل الوحشي كان يقبع فوق سطح الماء كجزيرة صغيرة. هل هذه تهيؤات؟ هل هو الرعب الذي تسلط عليَّ؟ بدا لي أن طوله يتعدى ألف توايز. ما هو إذَنْ هذا الحوت الذي لم يتوقع وجوده كوفييه ولا بلوميمباخ؟ كان لا يتحرك وكأنه نائم. ويبدو كما لو أن الماء عاجز عن حمله، وأن الأمواج هي التي تتماوج على جانبيه. عمود المياه الذي يقذف به إلى ارتفاع خمسمائة قدم، يسقط محدثًا دويًّا رهيبًا. أسرعنا كالمجانين نحو هذه الكتلة القوية التي لن يكفي لطعامها مائة حوت يوميًّا.

تسلط عليَّ رعب شديد. أنا لا أريد الذهاب إلى أبعد من ذلك، سأقطع الشراع لو لزم الأمر، ثرت على البروفيسور الذي ظل صامتًا ولم يجبني.

وفجأة قام هانز واقفًا وأشار بإصبعه إلى الكتلة المخيفة وقال:

- Holme.

- جزيرة!

ردد عمي وراءه صائحًا.

- جزيرة!

رددت قولهما وأنا أرفع كتفي متسائلًا.

- بالتأكيد.

أجابني عمي وهو يطلق ضحكة عالية فرحة.

- ولكن عمود المياه هذا؟

- Geyser.

أجاب هانز.

- أي نعم، Geyser.

أيده عمي بقوة.

- Geyser مثل التي في أيسلندا (عين مياه متدفقة شهيرة، تقع عند قاعدة جبل Hécla).

في البداية لم أكن أريد أن أكون مخطئًا إلى هذه الدرجة، إلى درجة الاعتقاد بأن جزيرة صغيرة هي وحش بحري، ولكن الدليل واضح جلي أمامي، ويجب في النهاية أن أقر بخطئي. ما نراه هنا هو ظاهرة طبيعية لا غير.

كلما اقتربنا أكثر بدت أبعاد الكتلة العائمة أكثر ضخامة. الجزيرة كانت تشبه حوتًا ضخمًا هائل الحجم، رأسه يعلو فوق الموج بارتفاع يصل إلى عشرة توايز.

وكان الـ geyser وهي الكلمة التي ينطقها الأيسلنديون geysir، والتي تعني «الغضب»، يرتفع عظيمًا عند طرفها. انفجارات صماء كانت تسمع على فترات، ترى حينها مياهه المندفعة وقد ازدادت ثورتها عنفًا، وأضحت تهز في كل اتجاه عمودًا هائلًا من الأبخرة تقفز عاليًا فتصل إلى طبقة السحاب الأولى. عمود المياه الهائل هذا كان يقف وحيدًا، لا فتحات مائية حرارية ولا عيون مياه ساخنة تحيط به. كل القدرة البركانية كانت تتركز فيه وحده. أشعة الضوء الكهربي أتت لتختلط بهذه الحزمة المبهرة التي كانت كل قطرة فيها تلمع بكل ألوان الطيف.

- فلْنرسُ.

أمر البروفيسور.

ولكن كان علينا أن نتفادى بعناية خرطوم المياه هذا الذي كان بوسعه أن يغرق الطوافة في ثانية واحدة. ناور هانز بمهارة ووصل بنا إلى الطرف الآخر من الجزيرة. وقفزت فوق الصخور وتبعني عمي برشاقة بينما بقي الصياد في مكانه كمثل رجل يعلو ويسمو على مثل هذه الأمور، ولا شيء يثير دهشته.

مشينا فوق جرانيت مختلط بحجارة بركانية سيليكونية. كانت التربة ترتعش تحت أقدامنا مثل جوانب موقد تتلوى في داخله أبخرة محمومة. كانت التربة حارقة. ووصلنا إلى مقربة من حوض مركزي صغير كان الـ geyser يتصاعد منه، وأنزلت في الماء ترموميتر الانسكاب الذي أشار إلى درجة حرارة مقدارها ثلاث وستون درجة.

هكذا إذَنْ كانت هذه المياه تخرج من موقد مشتعل. وهذا يتعارض بشكل فريد مع نظريات البروفيسور ليدنبروك. ولم أستطع أن أمنع نفسي من أفصح له عن هذه الملاحظة.

ولكنه علق قائلًا:

- حسن، ما هو الإثبات الذي تقدمه ملاحظتك هذه ويتعارض مع نظرياتي؟

- لا شيء.

أجبته بلهجة جافة إذ رأيت أني أصطدم بعناد لا مثيل له.

ومع ذلك يجب أن أعترف أننا كنا محظوظين بصورة فريدة حتى الآن، وأنه لسبب ما لا أعلمه، تسير هذه الرحلة في ظروف حرارية خاصة. ولكنه كان أمرًا مؤكدًا ومفروغًا منه بالنسبة لي أننا حتمًا سنصل يومًا إلى مناطق تصل فيها الحرارة المركزية إلى أقصى درجاتها، وتتخطى كل قياسات الترموميتر.

- عمومًا سنرى.

هكذا قال البروفيسور الذي بعد أن أطلق على الجزيرة البركانية الصغيرة اسم ابن أخيه، أعطى إشارة العودة إلى الطوافة.

بقيت لحظات أخرى أتأمل الـ geyser ولاحظت أن اندفاعه غير منتظم في ثورته، وأنه أحيانًا يتناقص في شدته ثم يعود مجددًا بقوة أكبر، وفسرت هذا باختلاف ضغط البخار المتراكم في خزانه.

وأخيرًا غادرنا ونحن ندور حول صخور الجنوب شديدة الانزلاق. كان هانز قد استفاد من فترة التوقف هذه للقيام بأعمال الصيانة اللازمة لطوافتنا العائمة.

قمت بتدوين بعض الملاحظات من أجل حساب المسافة التي قطعناها وسجلتها في سجل الرحلة. كنا قد قطعنا مائتين وسبعين فرسخًا بحريًّا منذ أن غادرنا ميناء جروبن، وكنا على مسافة ستمائة وعشرين فرسخًا من أيسلندا، أسفل إنجلترا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والثلاثون

الجمعة 21 أغسطس

في اليوم التالي اختفى الـ geyser الرائع، وأصبح الهواء منعشًا.

وابتعدنا مسرعين عن الجزيرة الصغيرة «آكسل»، والخوار خفت ضجيجه شيئًا فشيئًا.

أما عن الطقس، لو كان هذا الوصف ينطبق على ما نحن فيه، فسوف يتغير بعد قليل. الجو أصبح معبأ بالأبخرة التي تحمل معها الكهرباء الناتجة عن تبخر المياه المالحة، وانخفضت السحب بصورة ملحوظة واكتست بلون موحد يميل إلى الاخضرار، وأصبحت أشعة الضوء الكهربية قادرة بالكاد على أن تخترق هذا الستار المعتم الذي انسدل فوق المسرح الذي ستلعب على خشبته سريعًا دراما العواصف القادمة.

كان لديَّ شعور بالاضطراب على نحو خاص، كما يحدث لأي مخلوق على الأرض عند اقتراب كارثة ما. كان مشهد السحب مستديرة الشكل التي تراكمت عند الجنوب مخيفًا، إذ كان لها هذا المظهر «القاسي» الذي لاحظته كثيرًا في بدايات العواصف. وكان الهواء ثقيلًا والبحر هادئًا.

السحب في البعد كانت تشبه كرات قطنية كبيرة مكدسة في فوضى رائعة، ثم كانت السحب تنتفخ شيئًا فشيئًا فيقل عددها وتكبر أحجامها، وكان ثقلها كبيرًا حتى إنك تراها وكأنها لا تنفصل عن الأفق، ولكن مع هبوب التيارات الهوائية العالية، ذابت السحب شيئًا فشيئًا وأعتمت وأصبحت تبدو كطبقة موحدة تنذر بالخطر. وبين الحين والآخر كانت هبة من أبخرة ما زالت منيرة ترتطم ثم ترتد فوق هذه السجادة الرمادية، لتختفي بعدها سريعًا في الكتلة المعتمة.

كان واضحًا أن الجو مشبع بسوائل شعرت بها تبللني تمامًا، وانتصب شعر رأسي وكأنه على حواف ماكينة كهربائية، لدرجة أني تخيلت لو أن أحد رفاق الرحلة لمسني في هذه اللحظة لتلقى صدمة كهربية عاتية.

وفي العاشرة صباحًا أصبحت أعراض العاصفة أكثر تحديدًا، كما لو أن الهواء تراخى قليلًا ليلتقط أنفاسه. والسحب أصبحت تشبه قربة هائلة الحجم تتراكم بداخلها الأعاصير.

كنت ما زلت رافضًا أن أصدق تهديدات السماء، ومع ذلك لم أتمالك نفسي من القول:

- إن طقسًا سيئًا يتهيأ.

لم يجب البروفيسور وكان مزاجه بادي السوء بسبب المحيط الذي ما زال متراميًا بلا نهاية أمام ناظريه، فرفع كتفيه غير مبالٍ بما قلت.

ولكني أشرت بيدي نحو الأفق وقلت ثانية:

- سنواجه عاصفة، هذه السحب تنخفض فوق سطح البحر كما لو أنها ستسحقه.

صمت تام. وخرست الرياح. الطبيعة بدت وكأنها امرأة ماتت ولم تعد تتنفس.

لمحت على الصاري لهب سانت إيلم يلمع خفيفًا (لهب سانت إيلم هو ظاهرة فيزيائية تحدث في بعض الظروف الجوية وتنعكس على أطراف الصواري في صورة ضوء يلمع). والشراع المفرود انطوى في ثنيات ثقيلة.

وقفت الطوافة بلا حراك وسط مياه ثقيلة ساكنة لا موج فيها. ولكن لو كنا لا نتحرك فما فائدة هذا الشراع والصاري الذي يمكن أن يكون سببًا لهلاكنا عند أول صدمة يتلقاها عند هبوب العاصفة؟

- أنزل الشراع واخفض الصاري سريعًا، دعونا نتوخى الحذر.

- اللعنة! لا ومائة مرة لا.

صاح عمي سريعًا.

- فلتهب الريح ولتقذف بنا العاصفة أين تريد، ولكن فلألمح في النهاية صخرة شاطئ ولو تحطمت الطوافة إلى ألف قطعة.

لم يكد عمي يفرغ مما قال حتى تغير شكل الأفق في الجنوب فجأة، وتكثفت الأبخرة المتراكمة وسالت ماء. والريح التي استُدعيت بعنف لتملأ الفراغ الذي خلَّفته عملية التكثيف، تحولت إعصارًا، آتيًا من أطراف الكهف النائية. الظلمة تضاعفت وبالكاد تمكنت من تدوين بعض ملاحظات لم تكتمل.

الطوافة ترتفع ثم تقفز، وعمي يرتمي أرضًا وأزحف أنا إليه حيث استطاع أن يجلس القرفصاء متشبثًا بطرف أحد الحبال القوية. كان يبدو مستمتعًا بتأمل مشهد عناصر الطبيعة وهي في حالة هياج كامل.

بقي هانز في مكانه لا يتحرك، وشعره الطويل دفعته الريح على وجهه الساكن فأضفى عليه هيئة غريبة، إذ إن أطراف شعره كانت كلها منتصبة وكأنها أبراج صغيرة مضيئة. وجهه المخيف كان وجه رجل من قبل الطوفان، من زمن معاصر للإكثيوصورات والميجاثيريوم.

وبالرغم من ذلك نجح الصاري في المقاومة وانتفخ الشراع مثل فقاعة جاهزة للانفجار. كانت الطوافة مندفعة بسرعة عجزت عن تقديرها، ولكنها أبطأ من قطرات الماء التي تجري من تحتها، والتي ترسم سرعتها خطوطًا واضحة ومستقيمة.

- الشراع، الشراع.

صحت قائلًا وأنا أشير لهم أن يطووا الشراع. ولكن عمي أجاب معترضًا:

- كلا.

وعضد قوله هانز قائلًا وهو يهز رأسه رافضًا بهدوء:

- Nej.

ولكن المطر كان ينهمر كشلال يزأر في هذا الأفق الذي كنا مندفعين في اتجاهه كالمجانين. ولكن غلالة السحب تقطعت قبل أن تصل إلينا، ودخل البحر في حالة غليان، والكهرباء التي تولدت بفعل عملية كيميائية واسعة كانت تدور في الطبقات العليا، أضحت لاعبًا جديدًا في المشهد. وامتزجت انفجارات الرعد بشهب البرق البراقة التي ومضت بلا عدد، وتقاطعت وسط الانفجارات المدوية، وتوهجت كتلة الأبخرة، والبرد الذي أخذ يضرب الأجزاء المعدنية في أدواتنا وأسلحتنا بدا مضيئًا، والأمواج العالية بدت وكأنها حلمات ثدي هائل ترقد تحتها نار جوفية، وتتوج قمة كل منها شعلة من لهب.

أبهرت شدة الضوء عيني، وأصمَّت أذني انفجارات البرق. يجب أن أتمسك بالصاري الذي ينثني تحت ضربات الإعصار كما لو كان عود خيزران ضعيفًا!

عند هذا الحد أصبح من الصعب بل من المستحيل أن أكمل تدوين ملاحظاتي في سجل الرحلة. ولم أعثر بعد ذلك إلا على بعض ملاحظات مبتورة ومسجلة من دون تفكير أو تعقيب. ولكن بالرغم من قصر هذه الملاحظات والعتمة التي انطبعت عليها فإنها كانت مشحونة بالأحاسيس التي سيطرت عليَّ في أثناء تدوينها، ولذا فهي تعتبر دليلًا على شعوري حينها أكثر منها تسجيلًا لما احتوته ذاكرتي من تفاصيل عن هذا الموقف العصيب.

الأحد 23 أغسطس

أين نحن الآن؟ نحن مندفعون بسرعة لا يمكن تخيلها. الإعصار لا يهدأ ونحن نعيش وسط ضجيج وانفجارات لا تنقطع. سال الدم من أذني وبقينا عاجزين عن تبادل ولو كلمة واحدة.

البرق هو الآخر استمر من دون توقف. كنت أرى برقًا متعرجًا رجعيًّا، يندفع سريعًا ثم يعود من أسفل إلى أعلى في أعقاب اندفاع سريع، ليضرب القبة الجرانيتية بقوة وعنف. ماذا لو انهارت القبة؟! برق آخر يتفرع وينتشر، وآخر يأتي في هيئة كرة من نار تنفجر مثل القنابل. الضجيج السائد لا يبدو أنه يتصاعد، فقد تعدى حد الشدة التي يمكن للأذن البشرية أن تميزها، ولو انفجرت كل براميل البارود في العالم في نفس اللحظة فلن «نتمكن من سماع دوي أعلى مما نسمعه الآن»

كان هناك انبعاثًا ضوئيًّا مستمرًّا فوق سطح السحاب. المادة الكهربية تنبعث من دون توقف من جزيئات السحاب، ومن الواضح أن القواعد الغازية للهواء قد تغيرت، وعدد لا يحصى من أعمدة المياه أخذ يتصاعد في الجو ليسقط مجددًا وهو يرغي ويزبد.

إلى أين نحن ذاهبون؟ كان عمي مستلقيًا في طرف الطوافة فقمت بمراجعة الترموميتر، وكان يشير إلى... (الرقم كان ممحيًّا).

الاثنين 24 أغسطس

هذا الوضع لن ينتهي، وما الذي يمنع كثافة الجو الشديدة هذه، بما أنها قد تغيرت، من أن تثبت على حالها لتصبح وضعًا نهائيًّا دائمًا؟

كنا مهدودين من التعب. هانز كان هو هانز، لا شيء تغير فيه. والطوافة كانت تبحر مندفعة بلا تغيير في اتجاه الجنوب الشرقي، وكنا قد قطعنا مسافة تقدر بأكثر من مائتي فرسخ منذ أن غادرنا جزيرة آكسل.

عند الظهر تضاعف عنف الإعصار، وأصبح لزامًا علينا أن نربط جيدًا كل الأشياء التي حملناها معنا. ونحن أيضًا، ربط كل منا نفسه في الصاري جيدًا.

تعالت الأمواج حتى مرقت فوق رؤوسنا. ولمدة ثلاثة أيام كان من المستحيل أن نتبادل ولو كلمة واحدة. يفتح المرء منا فمه ويحرك شفتيه ولكن صوتًا مسموعًا لا يخرج. حتى لو تكلم أي منا في أذن زميله فلن يسمعه.

اقترب عمي مني وقال شيئًا. أعتقد أنه قال لي: «لقد ضعنا إلى الأبد». لست متأكدًا. قررت أن أكتب له هذه الكلمات:

- فلنطوِ شراعنا.

وأشار لي بالموافقة.

ولم يكد يرفع رأسه من أسفل إلى أعلى حتى ظهرت كرة من لهب على حافة الطوافة وانفصل الصاري والشراع معًا ككتلة واحدة، ورأيتهما يطيران إلى ارتفاع مذهل كما لو كانا ديناصورًا مجنحًا، هذا الطائر الرائع الذي عاش في الأزمنة الأولى.

تجمدنا من الرعب ونحن نرقب هذه الكرة التي يمتزج فيها اللون الأبيض باللون اللازوردي، والتي تشبه قنبلة حجمها عشر بوصات وهي تتجول ببطء وتدور بسرعة هائلة تحت حزام الإعصار، تذهب إلى هنا ثم إلى هناك، تتسلق أحد إطارات الطوافة ثم تقفز فوق كيس الأغذية وتعود لتهبط قليلًا ثم تقفز ثانية فتمس صندوق البارود. رعب! فلنقفز إلى الخارج. كلا، الكرة المبهرة تبتعد لتقترب من هانز الذي ينظر إليها في ثبات، ثم من عمي الذي يجثو على ركبتيه ليتفاداها، ثم تقترب مني، أنا الشاحب المرتجف تحت وهج الضوء والحرارة، تلف حول نفسها بالقرب من قدمي التي أحاول أن أسحبها بعيدًا ولكني أفشل في ذلك.

رائحة غاز النيتروز تملأ الجو وتخترق الحلق والرئة. نحن نختنق.

لماذا لا أستطيع أن أسحب قدمي إلى الوراء؟ هل اشتبكت قدمي بالطوافة؟ آه! فهمت. إن سقوط هذه الكرة الكهربية قد مغنط الحديد كله الموجود على سطحها. الأدوات والأسلحة تهتز مصدرة صريرًا حادًّا، ومسامير حذائي تلتصق بشدة بلوح حديدي مغروز في الخشب، فلا أقدر أن أسحب قدمي.

وأخيرًا وبعد جهد جهيد نجحت في أن أنزع قدمي في اللحظة التي كادت الكرة المجنونة أن تمسك بها في حركتها الدائرية وتسحبني معها، لو...

آه! أي ضوء شديد هذا! الكرة تنفجر! ولهب انفجارها يغمرنا بنوافير من لهب، ثم ينطفئ كل شيء. استطعت أن ألمح عمي ممددًا فوق سطح الطوافة وهانز في مكانه عند عمود القيادة، «يبصق نارًا» تحت تأثير الكهرباء التي تخترقه.

أين نحن؟ وإلى أين نتجه؟

الثلاثاء 25 أغسطس

أفيق الآن من إغماءة طويلة. الإعصار مستمر، والرعد منطلق من عقاله كما لو كان حاضنة من الثعابين أطلقت في الجو.

هل نحن ما زلنا في البحر؟ نعم، ومندفعون بسرعة لا يمكن قياسها. مررنا أسفل إنجلترا وأسفل المانش وأسفل فرنسا بل أسفل أوروبا كلها، ربما...!

ثم سمع صوت جديد.

إنه صوت الموج ينكسر فوق الصخور، ولكن بعد ذلك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والثلاثون

هنا ينتهي ما أسميه «سجل السفينة» التي نجت من الغرق لحسن الحظ. وأواصل قصتي التي بدأتها قبل ذلك.

لا يسعني أن أصف هنا ما الذي حدث عندما ارتطمت الطوافة بالشعاب المرجانية على الساحل. شعرت بأني مدفوع وسط الأمواج، ولو كنت نجوت من الغرق، ولو أن جسدي لم تمزقه الصخور الحادة، فلأن ذراعَي هانز القويتين قد انتشلتاني من الهاوية.

حملني الأيسلندي الشجاع بعيدًا عن غضبة الأمواج، وأتى بي إلى الرمال الحارقة حيث وجدتني ممددًا جنبًا إلى جنب مع عمي.

ثم عاد إلى هذه الصخور التي تصفعها الأمواج الغاضبة في عنف لينقذ بعضًا من حطام الطوافة الغارقة. لم أكن أقوى على الكلام. كنت محطمًا من فرط الانفعال والإجهاد البدني، واحتجت لساعة كاملة حتى أستعيد بعض عافيتي.

كان المطر الشديد ما زال ينهمر بهذه الكميات المضاعفة التي تنبئ بنهاية الإعصار. ولكن بعض الصخور المتراكبة وفَّرت لنا ملجأ احتمينا به من هذه الشلالات القادمة من السماء. أعد هانز بعض الأطعمة التي لم أمسها ثم سقط كل منا يغط في نوم عميق مؤلم بعد ليالٍ ثلاث لم يغمض لنا جفن فيها.

وفي صبيحة اليوم التالي كان الجو رائعًا، وساد هدوء تام على البحر وفي السماء، كما لو أن الاثنين اتفقا على ذلك. اختفت كل آثار العاصفة. وكان صوت البروفيسور هو أول ما سمعته عندما أفقت من نومي، يسأل بنبرة سعيدة:

- قل لي يا بني، هل نمت جيدًا؟

كان فرحًا مبتهجًا وكأننا أفقنا من النوم ونحن في منزلنا الجميل في كونينج شتراسه، وكأنني على وشك النزول إلى الطابق الأرضي لتناول غداء هادئ، وكأن زواجي أنا وجروبن المسكينة تحدد له أن يعقد في اليوم نفسه.

يا للحسرة! العاصفة الهوجاء كانت قد أطاحت بالطوافة إلى الشرق فمرت بنا تحت ألمانيا، تحت هامبورج بلدتي الحبيبة، بل تحت هذا الشارع الذي فيه كل ما أحبه في هذه الحياة، فقط أربعون فرسخًا كانت تفصلني عنه بالكاد، ولكنها أربعون فرسخًا رأسيًّا من جدار جرانيتي، أي في الحقيقة أكثر من ألف فرسخ تفصل بيننا.

هذه الأفكار المؤلمة مرت سريعًا في ذهني قبل أن أجيب عمي على سؤاله الذي أعاده قائلًا:

- ماذا إذَنْ؟ ألا تريد أن تخبرني ما إذا كنت قد نمت جيدًا ليلة أمس؟

- نمت جيدًا جدًّا وإن كنت ما زلت منهكًا، ولكن هذا شيء لا يذكر.

- بكل تأكيد شيء لا يذكر، قليل من الإرهاق، هذا كل ما في الأمر.

- ولكنك تبدو سعيدًا جدًّا هذا الصباح يا عمي.

- أنا سعيد جدًّا يا ولدي، لقد وصلنا.

- إلى نهاية رحلتنا؟

- كلا، إلى نهاية هذا البحر الذي بدا وكأنه لا نهاية له، والآن سنستأنف الطريق البري لنغوص فعليًّا في أحشاء الأرض.

- هل تسمح لي بسؤال يا عمي؟

- بالطبع أسمح لك يا آكسل.

- والعودة إذَنْ؟ ماذا عنها؟

- العودة! وهل تفكر في العودة ونحن لم نصل إلى غايتنا بعد؟

- كلا، ولكني فقط أتساءل عن الكيفية التي سنعود بها إلى السطح.

- الأمر بسيط جدًّا. حينما نصل إلى مركز الأرض إما أننا سنجد طريقًا جديدًا للصعود إلى سطح الأرض، أو أننا سنعود أدراجنا ببساطة عبر الطريق الذي اتبعناه للوصول إلى المركز، وأرجو أن يظل متاحًا ولا يغلق خلفنا.

- في هذه الحالة يجب أن نصلح الطوافة ونعيدها إلى حالتها الأولى.

- بالتأكيد.

- ولكن الأغذية، هل بقي لدينا ما يكفي لإتمام كل هذه المشاريع الكبيرة؟

- نعم، نعم. هانز رجل ماهر وأنا على ثقة تامة أنه نجح في إنقاذ القدر الأكبر من شحنتنا. على أي حال، هيا بنا لنتأكد من هذا الأمر.

غادرنا هذا الكهف المفتوح لكل الأنواء. وكان يحدوني الأمل والخوف في الوقت نفسه من الصعود إلى الطوافة مجددًا. كنت أعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد بقي على متنها شيء بعد الكارثة الرهيبة التي ألمت بها. ولكني كنت مخطئًا. عندما وصلت إلى الشاطئ رأيت هانز وسط مجموعة من الأدوات مرصوصة بكل ترتيب ودقة. وسارع عمي إليه مصافحًا وشد على يديه معبرًا عن امتنانه العميق. هذا الرجل بإخلاصه وتفانيه الذي ربما لن نجد مثيلًا له أبدًا، ظل يعمل ونحن نيام، وأنقذ أدواتنا ومعداتنا الثمينة معرضًا حياته للخطر.

هذا لا يعني أننا لم نفقد شيئًا من متاعنا، الأسلحة على سبيل المثال، ولكن هذه يمكن الاستغناء عنها. مخزوننا من البارود كان سليمًا لم يمس بعد أن كاد يسقط في اليم في أثناء العاصفة.

وصاح البروفيسور مازحًا:

- حسن، بما أننا فقدنا بنادقنا، فلن نخرج للصيد.

- والآن ماذا عن الأجهزة؟

- ها هو المانوميتر الجهاز الأكثر فائدة والذي كنت لأفتديه بها كلها، مع المانوميتر يمكنني أن أقيس العمق وأتيقن متى نصل إلى المركز. من دونه، نصبح معرضين لتجاوز المركز من دون أن نعلم لنخرج عبر الجانب الآخر من الكوكب.

كان هذا مزاحًا قاسيًا.

- والبوصلة، ماذا عن البوصلة؟

- ها هي هناك، فوق هذه الصخرة، في حالة سليمة تمامًا، مثلها مثل الكرونوميتر والترموميتر. آه، كم هو كنز ثمين هذا الصياد الذي اخترناه دليلًا لرحلتنا!

هذا أمر يجب أن أقر به. ففي النهاية لم ينقص من أجهزتنا أي شيء. أما عن الأدوات والمعدات فقد لمحت السلم والأحبال والفؤوس والمعاول وغيرها من الأدوات متناثرة فوق الرمال.

ومع ذلك بقي أمر هام هو موضوع الأغذية والمؤن. فسألت عمي:

- والأغذية؟

فأجابني:

- فلنفحص الأغذية إذَنْ.

كانت الصناديق التي وضعت فيها الأغذية مرصوصة عند الشاطئ في حالة ممتازة من الحفظ. يبدو أن البحر احترمها فلم تفسد وبقي لدينا مخزون من البسكويت واللحوم المملحة والأسماك المجففة يكفي لمدة أربعة أشهر أخرى. صاح البروفيسور مبتهجًا:

- أربعة أشهر! لدينا الوقت للذهاب إلى باطن الأرض والعودة، وسيبقى معنا ما يكفي لإعداد وليمة كبيرة لزملائي في اليوهانيوم.

كان من المفترض أن أكون قد تعودت على مزاج عمي وتقلباته منذ زمن بعيد، ومع ذلك فلم يفتأ هذا الرجل يدهشني. استطرد قائلًا:

- والآن، يجب أن نملأ مخزوننا من المياه. فلنستخدم مياه الأمطار التي سكبها الإعصار في أحواض الجرانيت هذه. وهكذا نضمن أننا لن نتعرض للعطش. أما عن الطوافة فسآمر هانز أن يصلحها بأفضل ما يستطيع بالرغم من أنها لن تلزمنا بعد الآن على ما أظن.

- وكيف ذلك؟

- أنا عندي يقين يا بني أننا لن نخرج عند نفس النقطة التي دلفنا منها إلى باطن الأرض.

بقيت أنظر إلى البروفيسور متشككًا فيما يقول، متسائلًا عما إذا كان أصابه الجنون، ولكنه أردف قائلًا في بساطة:

- هيا بنا لتناول الطعام.

وتبعته إلى تبة عالية سار إليها بعد أن أعطى تعليماته إلى الصياد. وهناك كانت تنتظرنا وجبة رائعة من البسكويت واللحم المملح والشاي، ويجب أن أقر أنها من أفضل ما تناولته في حياتي. الاحتياج والهواء النقي والهدوء بعد الانفعال، كل هذه العوامل منحتني شهية مفتوحة.

في أثناء الغداء، سألت عمي عن موقعنا الحالي قائلًا:

- تحديد موقعنا الآن يبدو لي أمرًا يصعب حسابه، أليس كذلك يا عمي؟

- يصعب حسابه بدقة، هذا صحيح، بل مستحيل، لأنه في أثناء هذه الأيام الثلاثة التي صارعنا فيها الإعصار لم أتمكن من تسجيل سرعة الطوافة واتجاهها. ولكن مع ذلك يمكن أن نحدد موقعنا بالتقريب.

- في الواقع إن آخر ملاحظة دوناها كانت عند جزيرة الـ geyser.

- بل إنها جزيرة آكسل يا ولدي. لا ترفض هذا الشرف أن يطلق اسمك على أول جزيرة تكتشف في مركز الكتلة الأرضية.

- فليكن! عند جزيرة آكسل، كنا قد قطعنا نحو مائتين وسبعين فرسخًا في البحر، وكان موقعنا على بعد أكثر من ستمائة فرسخ من أيسلندا.

- حسن، فلننطلق من هذه النقطة، لنحسب أربعة أيام تحت الإعصار لا بد وأن سرعتنا خلالها لم تقل عن ثمانين فرسخًا في الأربع والعشرين ساعة.

- أظن ذلك، فلنضف إذَنْ ثلاثمائة فرسخ أخرى.

- نعم، وبحر ليدنبروك يكون عرضه ستمائة فرسخ من ساحل إلى الساحل المقابل. أتعلم يا آكسل، إن بحر ليدنبروك والوضع هكذا يمكنه أن ينافس البحر المتوسط في سعته؟

- نعم وخصوصًا أننا قطعناه عرضا فقط.

- نعم على الأرجح.

- والأمر المثير هو أنه لو كانت حساباتنا صحيحة، يكون البحر المتوسط الآن فوق رؤوسنا بالضبط.

- فعلًا.

- فعلًا، لأننا على مسافة تسعمائة فرسخ من ريكيافيك.

- هذه مسافة جيدة بالفعل يا بني، ولكن لو كنا أسفل البحر المتوسط أو أسفل تركيا أو المحيط الأطلنطي، هذا أمر لا يمكن التأكد منه إلا لو كان اتجاهنا هو هو لم يتغير.

- كلا، لم نحد عن اتجاهنا، فالريح بدت ثابتة، وبالتالي أعتقد أن هذا الشاطئ يقع جنوب شرق ميناء جروبن.

- حسن، من السهل التأكد من ذلك. هيا نستخدم بوصلتنا.

اتجه البروفيسور نحو الصخرة التي وضع هانز عليها أجهزتنا. كان فرحًا متحمسًا، يفرك يديه في سعادة ويتخذ أوضاعًا تصويرية. رجل شاب حقيقي، تبعته وكلي فضول لمعرفة صحة تقديراتي.

عندما وصلنا إلى الصخرة أخذ عمي البوصلة ووضعها أفقيًّا وراقب الإبرة التي ارتعشت في البداية ثم توقفت في وضع ثابت تحت التأثير المغناطيسي.

نظر عمي طويلًا ثم فرك عينيه ونظر من جديد. وأخيرًا التفت إليَّ مذهولًا فسألته:

- ماذا حدث؟

فأشار لي بالنظر إلى الآلة ففعلت، وعندها ندت عني صيحة دهشة. الإبرة كانت تشير إلى الشمال حيث كنا نتوقع الجنوب، وكانت تتجه نحو الشاطئ بدلًا من الإشارة إلى عرض البحر.

هززت البوصلة وفحصتها. كانت سليمة تمامًا. وأيًّا كان الاتجاه الذي وضعنا الإبرة فيه، كانت في كل مرة تنقلب بعناد عائدة إلى الاتجاه غير المتوقع البتة، والذي أشارت إليه أولًا.

هكذا إذَنْ لم يعد هناك شك، في أثناء العاصفة حدثت هبة ريح لم نلحظها أعادت الطوافة إلى الشواطئ التي اعتقد عمي أنه تركها خلفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والثلاثون

لا يمكن أن أصف المشاعر المتتابعة التي انتابت البروفيسور ليدنبروك، الدهشة ثم عدم التصديق ثم أخيرًا الغضب العارم. لم أر قَطُّ رجلًا مندهشًا هكذا في البداية ثم غاضبًا وثائرًا بعد ذلك. متاعب الرحلة والأخطار التي واجهناها، كل هذا يجب أن نعيده مجددًا! لقد تراجعنا بدلًا من أن نتقدم إلى الأمام.

ولكن عمي سيطر على الموقف سريعًا وصاح قائلًا:

- إنه القدر يلاعبني هكذا! كل عوامل الطبيعة تتآمر ضدي! الهواء والنار والماء يوحدون الجهود ليعيقوا مسيرتي! حسن، سيرون جميعًا قوة عزيمتي، أنا لن أرضخ ولن أتراجع قيد أنملة ولنرَ من سينتصر في النهاية الإنسان أم الطبيعة.

وقف أوتو ليدنبروك فوق الصخرة منتصبًا، ثائرًا ومهددًا كأنه يتحدى الآلهة مثل آياكس المشاكس بطل طروادة. فكرت في التدخل ووضع حد لهذه الغضبة المجنونة فخاطبته بلهجة حازمة قائلًا:

- أنصت لي، هناك حد لكل هذا الطموح. نحن غير مؤهلين للإبحار الآن، وخمسمائة فرسخ لا يمكن أن نقطعها على متن مجموعة سيئة من العوارض ربطناها معًا، وشراع صنعناه من أغطيتنا. نحن لسنا في وضع القيادة، بل نحن لعبة في يد العواصف، وسيكون جنونًا مطلقًا أن نحاول مرة أخرى هذا العبور المستحيل.

طفقت أردد هذه الدفوع الصحيحة لمدة تربو على العشر دقائق من دون مقاطعة، ولكن مضت كلها من دون أن يلقي لها البروفيسور بالًا، الذي لم يسمع أي كلمة مما قلت بل صاح آمرًا:

- هيا بنا إلى الطوافة.

هذه كانت إجابته. ومهما أفعل أو أترجى أو أنفعل، كنت أصطدم دومًا بإرادة أكثر صلابة من الجرانيت.

في هذه اللحظة كان هانز يتمم إصلاح الطوافة، وكأن هذا الكائن الفريد على علم دومًا بمشاريع عمي. كان قد جمع بعض قطع من أشجار صلبة قوَّى بها الطوافة التي كان شراعها مفرودًا عاليًا بالفعل عندما وصلنا. أسر البروفيسور ببضع كلمات إلى الدليل وسرعان ما ذهب هذا الأخير ليضع الأمتعة والمؤن وكل ما نملك على السطح استعدادًا للإبحار. كان الجو صافيًا والرياح جيدة في اتجاه الشمال-الغربي. ماذا بوسعي أن أفعل؟ وهل يمكن أن أقاوم وحدي إرادة شخصين؟ مستحيل. بدا الأمر كما لو أن الدليل الأيسلندي قد نحى جانبًا أي إرادة شخصية له، وقرر التفاني في طاعة البروفيسور. لن أحصل على شيء من خادم يخضع لسيده بهذا الشكل. كان يجب أن أنصاع أنا أيضًا، فذهبت لأتخذ مكاني المعتاد فوق الطوافة ولكن عمي أوقفني بإشارة من يده وقال لي:

- لن نغادر قبل الغد.

وأجبته بإشارة رجل قرر أن يذعن لكل ما يؤمر به فاستطرد قائلًا:

- يجب ألا أهمل أي شيء. الآن وقد دفعني القدر إلى هذه المنطقة من الساحل فلن أغادرها قبل أن أتعرف على خصائصها كاملة.

سنفهم هذا القرار عندما نعلم أننا عدنا إلى الشاطئ الشمالي وليس إلى الموضع نفسه الذي غادرناه سابقًا. ميناء جروبن كان موقعه إلى الغرب من موضعنا الحالي. وبالتالي لم يكن هناك ما هو أكثر حكمة من قرار البروفيسور بفحص ودراسة هذه الأنحاء الجديدة التي دفعنا القدر إليها.

وبالتالي، أجبته متحمسًا:

- هيا إلى الاستكشاف إذَنْ.

وانطلقنا معًا تاركين هانز لمهامه العديدة. كانت المسافة ما بين هذا الموضع من البحر وسفوح الجبال مسافة شاسعة جدًّا، لدرجة أنها استلزمت مسيرة نصف الساعة لنصل إلى جدار الصخور. كانت أقدامنا تطأ قواقع بلا عدد من كل الأشكال والأحجام عاشت بداخلها يومًا حيوانات العصور الأولى.

لاحظت أيضًا وجود أدرع وصدفات ذات أحجام هائلة، بلغ قطر معظمها أكثر من خمسة عشر قدمًا. هذه كانت تنتمي إلى حيوانات الجليبتودونت العملاقة التي عاشت في العصر البلايوسيني، والتي ليست السلحفاة الحديثة سوى نسخة مصغرة جدًّا منها. وفيما عدا ذلك، كانت التربة مغطاة بكميات كبيرة من القطع الحجرية هي نوع من الحصى ذات حد مستدير كانت مرصوصة في صفوف متتابعة. جعلتني هذه الملاحظات أستنتج أن مياه البحر كانت تغمر هذه المساحة كلها في السابق، وأن الأمواج تركت آثارًا واضحة لمرورها فوق هذه الصخور المتناثرة التي أصبحت الآن لا تطالها.

ربما برر هذا إلى حد ما وجود هذا المحيط على عمق أربعين فرسخًا تحت سطح الأرض. ولكن في اعتقادي الشخصي كان لا بد لهذه الكتلة الضخمة من المياه أن تفقد شيئًا فشيئًا في أحشاء الكوكب، وأن مصدرها بالتأكيد هو مياه المحيطات التي تتسرب إليها من السطح عبر شقوق ما. ولكن يجب أن أقر أن هذا الشق كان مسدودًا في الوقت الحالي، إذ إن هذا الكهف أو بالأحرى هذا الخزان الهائل كله قد امتلأ في وقت قصير نسبيًّا. بل ربما تكون هذه المياه قد تبخر بعض منها بفعل تأثير الحرائق الجوفية، مما يفسر وجود السحب المعلقة فوق رؤوسنا، وانبعاث هذه الطاقة الكهربية التي تنتج عنها عواصف وأعاصير في باطن الكتلة الأرضية.

هذه النظرية التي تفسر الظواهر التي كنا شهودًا عليها بدت لي مرضية، إذ إن عجائب الطبيعة مهما بلغت لا بد وأن لها تفسيرًا ما عبر العوامل الفيزيائية.

كنا إذَنْ نسير فوق هذه التربة الرسوبية التي كونتها المياه مثل كل أراضي هذه الحقبة، والتي امتدت فوق مساحات شاسعة في مختلف الأرجاء فوق سطح الأرض. وكان البروفيسور يفحص بانتباه كل فجوة في الصخور المحيطة بنا، وكان يصر على فحص عمق أي فتحة قد توجد فيها.

سرنا بمحاذاة سواحل بحر ليدنبروك لمسافة ميل، بعده تغير شكل التربة فجأة، وبدا كما لو كانت انقلبت وارتجت بفعل ثورة عنيفة من ثورات الطبقات السفلى. وفي نفس الموضع رأينا انهيارات أو انقلابات شهدت بحدوث تفكك قوي في الكتلة الأرضية.

كنا نتقدم بصعوبة فوق شظايا الجرانيت المكسورة التي اختلطت مع أحجار الصوان والكوارتز والترسيبات الطميية، عندما لاح أمام ناظرينا فجأة حقل بل سهل مليء بالعظام، فيما بدا أنه جبانة هائلة اختلطت فيها البقايا الأبدية لأجيال تتابعت عبر عشرين قرنًا من الزمان. ورأينا على البعد أكوامًا عالية من الحطام كانت تبدو متماوجة حتى الأفق، لتختفي بعده وسط ضباب ذائب.

هنا فوق ثلاثة آلاف متر مربع تقريبًا كان يرقد متراكمًا كل تاريخ الحياة الحيوانية التي تجده بالكاد مكتوبًا فوق التربة الحديثة للعالم المسكون على السطح.

كنا مدفوعين بحب استطلاع لا يطيق صبرًا، وداست أقدامنا بقايا حيوانات ما قبل التاريخ، وهذه الحفريات التي تتنازع أكبر المتاحف في العالم بضع آثار نادرة منها.

لو كان هناك ألف عالم مثل كوفييه لما كان بوسعهم جميعًا أن يعيدوا تركيب الهياكل العظمية للكائنات العضوية الراقدة في هذه المعظمة الرائعة.

كنت مبهورًا ورفع عمي ذراعيه عاليًا نحو القبة التي كانت هي السماء التي تظللنا فاغرًا فاه دهشة، وتحركت عيناه المحمومتان خلف زجاج نظارته ورأسه من أعلى إلى أسفل ويسارًا ويمينًا، ووشت هيئته كلها بدهشة غير محدودة. كان يقف أمام مجموعة لا تقدر بثمن من الليبتوثيريوم والمريكوثيروم واللوفوديونات والأنوبلوثيريام والميجاثيريوم، ومن الماستودونت والبروتوبيثكس والزواحف المجنحة، وكل وحوش ما قبل الطوفان كلها متراصة أمامه يفحصها كما شاء.

لك أن تتخيل عالم توراة متحمسًا ينتقل فجأة ليجد نفسه في مكتبة الإسكندرية المحترقة، ويجد معجزة قد حدثت فأحيتها من وسط رمادها. كان هذا حال البروفيسور ليدنبروك. ولكن انبهاره فاق كل الحدود عندما أمسك وهو يعدو عبر هذا التراب البركاني بجمجمة عارية ليصيح بصوت مرتجف:

- آكسل، آكسل، رأس بشري.

- رأس بشري يا عمي!

أجبته بصوت لا يقل انفعالًا ورهبة.

- نعم يا بني، آه! السيد ميلنه-إدواردز، آه! السيد دي كواتروفاج، أين أنتم مني أنا حيث أكون الآن، أنا أوتو ليدنبروك؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والثلاثون

من المهم أن نعرف أن حدثًا على درجة عالية من الأهمية، فيما يتعلق بعلم الحفريات، قد وقع قبل أن نغادر هامبورج بفترة وجيزة، لكي نفهم مغزى هذه الإشارة التي قام بها عمي إلى هؤلاء العلماء الفرنسيين المشهورين.

ففي الثامن والعشرين من مايو 1963، عثر حفارون كانوا يقومون بالحفر تحت إمرة السيد بوشيه دي بيرث في محاجر مولان-كوينيون بالقرب من آبيفيل في مقاطعة سوم في فرنسا، على فك آدمي، وجدوه على عمق أربعة عشر قدمًا تحت السطح. كانت هذه أول حفرية من هذا النوع يعثر عليها العلماء وترى النور في أيامنا. ووجدت بالقرب من هذا الفك الآدمي فؤوس حجرية من الصوان، فؤوس ملونة غطاها الزمن بطبقة من الزنجار المؤكسد.

أثار هذا الاكتشاف ضجة كبيرة، ليس فقط في فرنسا، بل أيضًا في إنجلترا وألمانيا، وتحمس علماء من المعهد الفرنسي، من بينهم السيدان ميلنه-إدواردز ودي كواتروفاج بشدة لهذا الاكتشاف، وطفقوا يبرهنون على أن الفك العظمي المشار إليه هو أثر صحيح لا شك فيه، جاعلين من أنفسهم مدافعين شرسين عن «قضية الفك» كما سميت في إنجلترا حينها.

وانضم إلى العلماء الإنجليز الذين اعتبروا الأمر مؤكدًا، ومنهم السادة فالكونير وبوسك وكاربنتر وغيرهم، علماء ألمانيون كان من بينهم وفي الصفوف الأولى، أكثرهم حماسًا، عمي البروفيسور ليدنبروك.

وهكذا بدا أن أصالة الأحفورة البشرية التي ترجع إلى الحقب الرابع قد أصبحت أمرًا لا شك فيه، مثبتًا ومعترفًا به.

لكن في الحقيقة عارض هذا الأمر بشدة السيد أيلي دي بومون. فقد أصر هذا العالم ذو الحيثية المرموقة على أن تربة مولان-كوينيون لا تنتمي إلى «الراسب الطوفاني» بل إلى حقبة أقل قدمًا، واتفق في ذلك مع كوفييه، ورفض كلاهما الاعتراف بأن النوع البشري كان معاصرًا لحيوانات الحقب الرابع. ولكن عمي ليدنبروك، مثله مثل الأغلبية العظمى من العلماء الجيولوجيين، تمسك بموقفه محاججًا ومناقشًا وبقي السيد أيلي دي بومون وحده تقريبًا على النقيض من عمي ومجموعته.

كنا على علم بالطبع بتفاصيل هذه المسألة، ولكننا كنا نجهل أن تطورات جديدة قد طرأت على الموضوع بعد أن رحلنا.

فقد عثر على فكوك أخرى متطابقة، وإن كانت تنتمي إلى أفراد من أنواع مختلفة، ومن بلاد مختلفة في الأراضي الخصبة والصالحة للزراعة في بعض الكهوف في فرنسا وسويسرا وفي بلجيكا، وعثر معها على أسلحة وأوانٍ وأدوات وهياكل عظمية لأطفال ومراهقين ورجال وشيوخ. وأضحت حقيقة وجود الجنس البشري في الحقب الرابع أمرًا يتأكد يومًا بعد يوم.

لم يكن هذا كل ما في الأمر. فقد سمحت اكتشافات جديدة لبقايا آدمية في تربة تنتمي إلى العصر البلىوسيني العالي لعلماء أكثر جرأة، أن يسبغوا أقدمية أكثر على الجنس البشري.

هذه البقايا، حقيقة، لم تكن آثارًا عظمية لإنسان، بل كانت فقط أدوات صنعها بيده، كانت عظام سيقان وعظام فخذ لحيوانات أحفورية قد شكلت بصورة منتظمة، أو فلنقل إنها قد نحتت جيدًا، وبالتالي كانت حفريات حملت بصمة عمل بشري.

وهكذا وبقفزة واحدة تسلق الإنسان سلم الزمن بقرون عديدة، سابقًا الـ mastodonde، ليصبح معاصرًا للـ elephas meridionalis. أصبح عمر الإنسان في الوجود مائة ألف عام بما أن هذا هو التاريخ الذي حدده أكثر الجيولوجيين شهرة لتكون تربة الحقبة البلىوسينية.

هكذا كان الحال في علم الحفريات، وما كنا نعلمه عنه كان كافيًا ليفسر الدهشة الشديدة التي أصابتنا عندما وجدنا أنفسنا أمام معظمة بحر ليدنبروك.

بوسعنا إذَنْ أن نفهم دهشة عمي وانبهاره وسعادته الغامرة بما وجد، خصوصًا عندما وجد نفسه، بعد عشرين خطوة من هذا الكنز، وجهًا لوجه مع عينة لإنسان من الحقب الرابع. ما أعنيه كان جسدًا بشريًّا ظاهرًا تمامًا. هل كانت تربة ذات طبيعة خاصة مثل تلك التي في مقبرة سان ميشال في بوردو، تستطيع أن تحفظ هذا الجسد سليمًا هكذا لقرون وقرون؟ لا أملك الإجابة على هذا السؤال ولكن هذه الجثة ذات الجلد المشدود والأطراف الطرية، ظاهريًّا على الأقل، والأسنان السليمة والشعر الغزير وأصابع القدم ذات الضخامة المخيفة، كانت بادية أمامنا في الهيئة التي كانت عليها تمامًا وصاحبها على قيد الحياة.

بقيت برهة مشدوهًا لا أقوى على الكلام في حضرة هذا الوجود القادم من العصور السحيقة. وعمي الخطيب المفوه والكليم المتهور عادة، ظل صامتًا هو الآخر. رفعنا الجثة وجعلناها تنتصب أمامنا فبقيت شاخصة إلينا بعينيها المجوفتين ونحن نتحسس بأيدينا صدرها الرنان.

وبعد لحظات انهزم العم أمام العالم واندفع أوتو ليدنبروك تحت تأثير مزاجه الحاد، ناسيًا ظروف رحلتنا، والكهف الهائل الذي حبسنا بداخله. اعتقد البروفيسور أنه في اليوهانيوم وأخذ يلقي على تلاميذه درسًا. اتخذ نبرة الأستاذ الجاد وتوجه إلى جمهور خيالي قائلًا:

«أيها السادة، يشرفني أن أقدم إليكم رجلًا من الحقب الرابع. علماء كبار نفوا إمكانية وجوده، وعلماء كبار آخرون أكدوها. ولكن العلماء الذين نفوا، وهم توما هذا الزمان، لو كانوا معنا الآن لكان بوسعهم أن يلمسوه بأيديهم، وبالتالي يضطرون للاعتراف بخطأ تقديرهم. أنا أعرف تمامًا أن العلم يجب أن يكون حريصًا جدًّا في مواجهة اكتشافات من هذا النوع، لست أجهل كيف استغل مهرجون مثل بارنوم ومشعوذين آخرين على شاكلته، أحفوريات بشرية من قبل. أنا أعرف قصة رضفة آياكس وجسد أوريستيس المزعوم الذي عثر الأسبرطيون عليه، وجسد استيريوس الذي طوله عشرة أذرع والتي تكلم عنها بوسانياس. لقد قرأت تقارير حول الهيكل العظمي الذي اكتشف في تراباني بصقلية في القرن الرابع عشر، وأرادوا أن يثبتوا أنه للعملاق بوليفاموس، وأعرف قصة العملاق الذي عثر عليه في القرن السادس عشر قريبًا من باليرمو. أنتم تعلمون كما أعلم أنا يا سادة عن تحليل هذه العظام الذي تم في لوسيرن عام 1577، والتي قرر الطبيب الشهير فيليكس بلاتر أنها عظام عملاق يبلغ طوله تسعة عشر قدمًا. لقد حفظت عن ظهر قلب أطروحات كاسنيون، وتلك المذكرات والنشرات والخطب والخطب المضادة التي نشرت حول الهيكل العظمي للملك توتوبوشوس، ملك

السيمبريس، الذي غزا بلاد الغال، والذي استخرجت جثته من حفرة رمل في مقاطعة دوفينه عام 1613. وفي القرن الثامن كنت سأنضم إلى بيير كامبيه لإنكار وجود قبل-الآدميين كما ادعى شوشيزر. أنا اطلعت على المخطوطة المعنونة «Gigans...»».

وهنا عاودت عمي إعاقته الطبيعية حيث كان يعجز عن نطق الكلمات الصعبة أمام أي جمع من الناس. واستمر يحاول ثانية:

«المخطوطة المعنونة «Gigans...»».

ولم يقدر أن يذهب إلى أبعد من ذلك.

«Gigantéo...».

مستحيل! أبت الكلمة المؤسفة أن تخرج من فمه، لو كان عمي الآن واقفًا يدرس في اليوهانيوم لضحك منه تلاميذه.

ولكنه استطاع أخيرًا أن يقولها:

«Gigantostéologie».

أي علم الأعصاب العملاق، قالها وهو يسب ويلعن عجزه ثم في اللحظة التالية استأنف خطبته الحماسية قائلًا:

«نعم أيها السادة، أنا أعرف كل هذه الأشياء، وأعرف أيضًا أن كوفييه وبلومينباخ رأيَا في هذه العظام مجرد عظام ماموث وحيوانات أخرى من الحقب الرابع. ولكن هنا مجرد الشك يعتبر إهانة للعلم، الجثة ماثلة أمامنا، يمكنكم أن تروها وأن تلمسوها لو أردتم، ما نحن بصدده ليس مجرد هيكل عظمي ولكنه جسد سليم، بقي محفوظًا فقط ليفيد علم الأنثروبولوجي أي علم الإنسان».

أمسكت أنا عن معارضة هذه الفرضية الأخيرة واستمر عمي في محاضرته قائلًا:

«لو كان بوسعي أن أغسل هذا الجسد بحامض الكبريتيك، لمحوت عنه كل هذه الأجزاء الطينية وهذه القواقع اللامعة المغروسة فيه. ولكني لا أملك الآن هذا الحامض النفيس. ومع ذلك، فهذا الجسد على حالته تلك، سيقص علينا حكايته وتاريخه».

وعند هذا الحد أمسك عمي الجثة الأحفورية متعاملًا معها بمهارة ساحر ماهر، ثم قال:

«ها أنتم ترونه، طوله أقل من ستة أقدام ونحن بعيدون تمام البعد عن العمالقة المزعومين. أما عن العرقية التي ينتمي إليها فهي بلا شك العرقية القوقازية. إنها الجنس الأبيض، جنسنا نحن. إن جمجمة هذه الأحفورة بيضاوية منتظمة الشكل، ذات عظام خد عادية ومن دون بروز للفك. ليس بها أي سمة من سمات هذا البروز في الفك الذي يغير شكل زاوية الوجه. لو قستم هذه الزاوية، لوجدتم أنها زاوية قائمة تقريبًا. ولكني سأذهب إلى أبعد من ذلك في طريق الاستنتاج، وأزعم القول بأن هذه العينة البشرية تنتمي إلى عائلة الـ Homo Japeticus المنتشرة في الهند وحتى حدود أوروبا الغربية. لا تضحكوا أيها السادة».

لم يكن هناك من يضحك ولكن البروفيسور كانت له عادة رؤية الوجوه وهي تنبهر في أثناء سماع محاضراته العلمية. ثم استأنف بحماس متجدد قائلًا:

«نحن هنا بصدد رجل أحفوري، معاصر للماستودونت التي تملأ عظامها هذا المدرج. ولكن لن يكون بوسعي أن أفصح لكم عن الطريق الذي أتى به إلى هنا، وكيف انزلقت هذه الطبقات التي دفن فيها حتى وصلت إلى هذا التجويف الضخم في الكتلة الأرضية.

لا يوجد شك أن القشرة الأرضية حدثت فيها اضطرابات هائلة في الحقب الرابع، وأن التبريد المستمر للكوكب أسفر عن فواصل وشقوق وهبوط في القشرة التي من المحتمل أن تكون قد ابتلعت أجزاء من طبقات التربة العليا. أنا لا أحكم بهذا، ولكن في النهاية الرجل هنا أمامنا محاط بعمل يديه، هذه الفؤوس وقطع الصوان المنحوتة التي شكلت العصر الحجري. وإن لم يكن قد أتى إلى هنا مثلي أنا سائحًا أو رائدًا للعلم، يكون باستطاعتي أن أؤكد بلا أدنى شك أصالة منشأه العتيق».

ثم سكت البروفيسور عن الكلام وانطلقت أنا في تصفيق حاد. عمي كان على حق في كل ما قاله ولم يكن بوسع من هم أكثر علمًا من أبن أخيه أن يعارضوه أو يجادلوه فيما قال. وهناك دليل آخر، هذه الجثة الأحفورية لم تكن هي الوحيدة في هذه المعظمة الهائلة. جثامين أخرى كنا نلتقيها في أثناء سيرنا وسط الأتربة، وعمي كان بوسعه أن ينتقي الأكثر بهاءً من هذه العينات البشرية ليقنع المتشككين.

في الحقيقة كان مشهدًا مذهلًا مشهد هذه الأجيال المتعاقبة من البشر والحيوانات التي اختلطت عظامها في هذه الجبانة. ولكن سؤالًا جادًّا واجهنا ولم نجرؤ على الإجابة عليه. هذه الكائنات المتحركة هل انزلقت بفعل تقلصات التربة نحو شواطئ بحر ليدنبروك بعد أن كانت قد تحولت إلى تراب، أم أنها عاشت هنا، في هذا العالم السفلي، تحت هذه السماء الكاذبة، ولدت وماتت هنا مثل سكان الأرض؟

حتى الآن وحدها الوحوش البحرية والأسماك هي التي ظهرت حية أمامنا، هل يوجد رجل ما في هذه الهاوية ما زال يجوب أنحاء هذه السواحل المهجورة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والثلاثون

استمررنا في السير نصف ساعة أخرى نغوص بأقدامنا في هذه الطبقات المتراكمة من العظام، وكنا نغذ السير إلى الأمام يدفعنا فضول وحماس بلا حدود.

يا ترى أي عجائب أخرى تحويها هذه المغارة؟ وأي كنوز علمية تخفيها؟ كنت أتوقع كل شيء وأي شيء، وكنت متأهبًا لمزيد من الانبهار والدهشة.

كانت شواطئ البحر قد اختفت منذ برهة خلف تلال العظام المتراكمة. وكان البروفيسور المتهور غير آبه بالخطر، وغير قلق من أن نضل الطريق، يسحبني خلفه إلى ما هو أبعد. كنا نتقدم صامتين تحت شلال من موجات الطاقة الكهربية. وفي ظاهرة لا أملك تفسيرًا لها وبفضل انبعاثات هذه الطاقة الكهربية التي كانت مكتملة في هذا الوقت، انعكس ضوء أنار مختلف الأشياء من حولنا. كان ضوءًا بلا مركز محدد في الفضاء المحيط، ولم نرَ له أي ظلال على الأرض. كان الضوء شديدًا يشبه ضوء الظهيرة في صيف المناطق الاستوائية، وتحديدًا تحت أشعة الشمس الرأسية. اختفت الأبخرة كلها. واتخذت الصخور والجبال البعيدة وبضع كتل مبهمة لغابات أبعد أشكالًا عجيبة تحت هذا التوزيع المتساوي للسائل المضيء. أما نحن فكنا نشبه هذه الشخصية الرائعة، شخصية هوفمان الرجل الذي فقد ظله.

وبعد مسيرة ميل لاحت أطراف غابة شاسعة، وإن بدت أقل مساحة من غابات الفطر التي جاورت ميناء جروبن.

كانت هذه الغابة تحوي الغطاء النباتي للحقب الثالث في كل بهائه. أشجار نخيل باسقة من أنواع انقرضت ولم تعد موجودة في زماننا، ونخلات أحفورية رائعة، وأشجار صنوبر وطقسوس وسرو وثويا من العائلة الصنوبرية تربط بينها شبكة قوية لا تنفصم من الليانا، وهي نبتة خشبية تتسلق الأشجار العالية، لها سيقان شبيهة بالحبال. وأرضها كانت تكسوها سجادة لينة من الطحالب، وتحت ظلال أشجارها لو جاز لنا القول إذ إن ظلًّا واحدًا لم يكن ينعكس في هذه الغابة، سمعنا خرير جداول تجري مياهها هنا وهناك. وعلى الأطراف نمت سراخس شجرية شبيهة بتلك التي تنمو في المناطق الحارة في الكوكب المسكون. ولكن كل هذه الأشجار والشجيرات والنباتات كانت تنقصها الألوان، لأنها كانت محرومة من حرارة الشمس المحيية. اختلطت كلها في صبغة موحدة، بنية وشبه باهتة. الأوراق كانت بلا خضار والزهور أيضًا التي نمت بأعداد مهولة في هذه الحقبة الثالثة التي شهدت ميلادها، كانت كلها بلا لون ولا رائحة، كما لو كانت مصنوعة من ورق تغيَّر لونه بفعل الجو المحيط. غامر عمي ليدنبروك وسار يتجول في هذه الغابة العملاقة وسرت خلفه مرتابًا متفكرًا. بما أن الطبيعة أفصحت هنا عن غطاء نباتي بهذا الشكل، لم لا تكون هذه الغابة مقرًّا للقاء الثدييات الرهيبة؟ رأيت في هذه المساحات التي خلفتها الأشجار المقطوعة والمتآكلة بفعل الزمن، بقوليات وقبقبيات وفويات وآلاف الشجيرات الصالحة للأكل، وكلها صالحة كطعام للحيوانات المجترة من كل الحقب. ثم لاحت بعد ذلك مختلطة ومتشابكة، الأشجار التي تنمو في أراضٍ ومناطق شديدة الاختلاف على سطح الكوكب. رأيت أشجار البلوط جنبًا إلى جنب مع أشجار النخيل، وأشجار الكافور

الأسترالي رأيتها تتكئ على أشجار الصنوبر النرويجي، وأشجار البتولا الشمالية تختلط أغصانها بأغصان الكوريس النيوزيلاندي. كان هذا المشهد خليقًا بإثارة حيرة عباقرة المصنفين من علماء النباتات الأرضية.

وفجأة توقفت وأمسكت عمي بيدي لأوقف تقدمه. كان الضوء المنبعث شديدًا يسمح برؤية أدق الأشياء في أعماق الغابة. وتهيأ لي أني رأيت... كلا، في الحقيقة رأيت بأم عيني أشكالًا ضخمة تتحرك تحت الأشجار. وفي الواقع كانت هذه الأشكال حيوانات عملاقة، قطيعًا كاملًا من الماستودونت، ليست أحفورية، بل حية وتشبه تلك التي اكتشفت بقاياها عام 1801 في مستنقعات أوهيو. رأيت هذه الأفيال الضخمة وخراطيمها المهتزة تحت الأشجار مثل كتيبة من الثعابين، وسمعت صوت أنيابها العاجية وهي تنقر جذوع الأشجار العجوز. كانت فروع الأشجار تنكسر وتتصدع والأوراق تنتزع بكميات هائلة لتختفي في جوف هذه الوحوش الضارية.

هذا الحلم الذي رأيت فيه كل هذه الكائنات المنتمية إلى عصور ما قبل التاريخ، إلى الحقب الثالث والرابع، ها هو يتحقق أخيرًا. ونحن كنا هنا، وحدنا، في جوف الأرض، تحت رحمة سكانه شديدي الشراسة.

رأى عمي هذا كله ثم أمسك بذراعي فجأة وقال:

- هيا بنا، هيا نتقدم، إلى الأمام، إلى الأمام.

- كلا، نحنِ لا نملك أسلحة، ماذا بوسعنا أن نفعل إزاء هذا القطيع من العمالقة ذوي الأربع؟ تعالَ يا عمي، تعالَ معي. لا يوجد مخلوق بشري يقدر على مواجهة هذه الوحوش وعلى الإفلات من ثورة غضبها.

- لا يوجد مخلوق بشري!

أجابني عمي بصوت خفيض.

- أنت مخطئ يا آكسل، انظر، انظر هناك. يخيل لي أني أرى كائنًا حيًّا، كائنًا يشبهنا. إني أرى رجلًا.

نظرت وأنا أهز كتفي غير مصدق. ولكن أيًّا ما كان شكي وعدم تصديقي لما يقول عمي، لم يعد ممكنًا أن أتجاهل الدليل على ما نطق به لتوِّه.

بالفعل، وعلى مسافة أقل من ربع ميل رأيت كائنًا بشريًّا يرتكن إلى جذع شجرة كوريس عملاقة، بروتيوس من هذه المناطق الجوفية، ابنًا جديدًا لنبتون، كان هنا، يحرس هذا القطيع الهائل من الماستودونت.

!Immanis pecoris custos, immanior ipse

إنه الراعي المتوحش، الراعي الوحش!

- نعم، الراعي الوحش. هذا ليس الكائن الأحفوري الذي وجدنا جثته في المعظمة، هذا عملاق قادر على أن يأمر هذه الوحوش. كان طوله يتعدى اثني عشر قدمًا ورأسه ضخم مثل رأس ذكر الجاموس،

يختفي تحت شعر كث طويل بدا وكأنه لبدة فيل من فيلة العصور الأولى.

كان يلوح بيده بفرع شجرة هائل، جدير بأن يكون عصا هذا الراعي القادم من أزمنة ما قبل الطوفان.

بقينا ساكنين بلا حراك، سمرتنا الدهشة والرهبة معًا. ولكننا كنا مكشوفين لأي عين ترى. يجب علينا أن نهرب فورًا.

- هيا، هيا.

صحت قائلًا وأنا أشد عمي الذي تركني أفعل للمرة الأولى منذ أن صحبته في هذه الرحلة.

وبعد ربع ساعة كنا قد ابتعدنا عن مرمى بصر هذا العدو المخيف.

والآن حينما أتفكر في كل ما حدث بهدوء، الآن وقد عاد الهدوء إلى ذهني وعقلي وبعد مرور شهور على هذا اللقاء الغريب الخارق للطبيعة، وجدتني أتساءل هل كان هذا اللقاء حقيقيًّا؟ كلا، هذا أمر مستحيل، بالتأكيد خانتنا حواسنا المرهقة المستنزفة، وعيوننا لا يمكن أن تكون قد أبصرت هذا الذي أبصرت. لا يوجد كائن بشري حي في هذا العالم السفلي، لا يوجد جيل من البشر يسكن هذه الكهوف السفلية في باطن الأرض من دون أن يشعروا بمن يحيا على سطحها، ومن دون أن يتواصلوا معه. هذا جنون، جنون محض.

ربما من الأفضل أن أعترف بوجود حيوانات ما يقترب تكوينها من التكوين البشري، أنواع من قردة الحقب الجيولوجية الأولى، بروتوبيثكس وميزوبيثكس شبيه بذلك الذي اكتشفه السيد لارتيت في معظمة الخبيئة التي وجدها في سانسان، ولكن هذا المخلوق الذي نحن بصدده تتخطى قامته كل المقاييس المدونة في مراجع علم الحفريات، لا يهم، هو قرد، نعم، قرد حتى وإن كان هذا أمر صعب التصديق، ولكن أن يكون ما رأيناه إنسانًا، إنسانًا حيًّا ومعه جيل كامل مدفون في باطن الأرض، هذا أمر مستحيل.

ومع هذا تركنا الغابة الرائقة المضيئة ونحن صامتون، أخرستنا الدهشة وطغى علينا ذهول أقرب إلى الخبل. وجدنا أنفسنا نجري رغمًا عنا، كان هروبًا حقيقيًّا شبيه بهذه المناورات المخيفة التي يجد النائم نفسه يقوم بها طلبًا للنجاة في خضم أحداث كابوس مرعب. لست أدري كيف شرد ذهني حتى أعادني القلق إلى ملاحظات أكثر عملية.

فبالرغم من يقيني أننا ندوس بأقدامنا أرضًا عذراء لم تطأها قدم قبلنا، فإني لمحت مرارًا تجمعات من الصخور تشبه في تكوينها تلك التي وجدناها في ميناء جروبن. على أي حال، كان هذا يؤكد إشارة البوصلة وعودتنا اللا إرادية إلى شمال بحر ليدنبروك. كان الأمر محيرًا في بعض الأحيان. شلالات وجداول بالمئات كانت تتساقط من نتوءات الصخور، وخيل إليَّ أني أرى طبقة الخشب الأحفوري مرة أخرى، والهانز-باخ، النهر الوفي والكهف الذي عدت فيه إلى الحياة. ثم بعد خطوات قليلة، كانت تضاريس السفوح وظهور جدول ماء ومرأى صخرة ذات تكوين مذهل، تأتي لتعيد إليَّ الشك من جديد.

أخبرت عمي بما أفكر فيه ونقلت إليه ترددي. وكان هو الآخر مترددًا. لم يكن قادرًا على تحديد موقعنا وسط هذه الطبيعة ذات الشكل الموحد. بادرته قائلًا:

- بالتأكيد نحن لم نعد إلى نقطة البداية، ولكن العاصفة أعادتنا في الأغلب إلى منطقة أدنى، ولو سرنا بمحاذاة الشاطئ، سنصل حتمًا إلى ميناء جروبن.

- في هذه الحالة يكون من غير المجدي أن نستمر في الاستكشاف هنا، والأفضل أن نعود إلى الطوافة. ولكن هل أنت متأكد أنك لا تخطئ التقدير يا آكسل؟

- من الصعب التأكد لأن كل الصخور متشابهة، وإن كان يبدو لي أني أرى هنا التل الذي قام هانز ببناء الطوافة عند سفحه. نحن قريبون جدًّا من الميناء على الأرجح لو لم نكن في موقعه تمامًا الآن.

قلت ذلك وأنا أتفحص خليجًا صغيرًا خيل إليَّ أني رأيته من قبل.

- كلا يا آكسل، لا أعتقد. لو كان الأمر كذلك لوجدنا آثار أقدامنا على الأقل، ولكني لا أرى شيئًا من...

- ولكن أنا أرى.

صحت قائلًا وأنا أندفع نحو شيء لمحته يلمع وسط الرمال.

- ما هذا إذَنْ؟

تساءل البروفيسور.

- هذا!

أجبته وأنا أشير إلى عمي بخنجر التقطته وسط الرمال.

- ماذا! هل كنت تحمل معك هذا السلاح إذَنْ؟

- أنا؟ أبدًا لم أفعل، ربما أنت...

- مبلغ علمي أني لم أفعل ذلك.

أجاب البروفيسور.

- لم يكن بحوزتي قَطُّ مثل هذا السلاح.

- هذا أمر عجيب.

- كلا يا آكسل، الأمر بسيط جدًّا. الأيسلنديون دائمًا ما يحملون أسلحة من هذا النوع، وهانز الذي هو صاحب هذا الخنجر، فقده...

هززت رأسي معترضًا. هانز لم يكن معه قَطُّ هذا الخنجر.

- هل هو إذَنْ خنجر محارب من زمان ما قبل الطوفان؟

صحت قائلًا.

- خنجر رجل حي، رجل معاصر لهذا الراعي العملاق؟ كلا! هذا ليس سلاحًا من العصر الحجري، بل ليس من العنصر البرونزي أيضًا. هذا النصل مصنوع من الفولاذ...

أوقفني عمي عن المضي قدمًا في هذا الاتجاه الذي كان يجرني إليه هذيان جديد، وقال لي بكل برود:

- اهدأ يا آكسل وعد إلى رشدك. هذا الخنجر هو سلاح من القرن السادس عشر، خنجر حقيقي مثل الذي كان الرجال يتمنطقون به في خاصراتهم بهدف قتل من ينازلهم. منشأه إسبانيا. هذا سلاح ليس لك ولا لي ولا للصياد ولا حتى للبشر الذين ربما يعيشون في أحشاء الأرض.

- هل تجرؤ على القول...

- انظر، هذا سلاح لم ينكسر هكذا لأنه انغرز في أعناق البشر، إن نصله تغطيه طبقة من الصدأ لا تعود إلى يوم ولا عام ولا حتى قرن من الزمان.

تحمس البروفيسور كعادته وترك نفسه لخياله الجامح واستطرد قائلًا:

- آكسل، نحن الآن في الطريق إلى الاكتشاف الكبير، هذا النصل ترك مهملًا في الرمال منذ مائة عام، مائتي عام أو ثلاثمائة عام، وانكسر فوق صخور هذا البحر الجوفي.

- ولكنه لم يأتِ وحده!

صحت معترضًا.

- ولم ينكسر هكذا وحده! شخص ما سبقنا إلى هنا...

- نعم، هناك رجل سبقنا إلى هنا.

- وهذا الرجل من هو؟

- هذا الرجل هو من حفر اسمه بهذا النصل، هذا الرجل أراد مرة أخرى أن يخط بيده الطريق إلى المركز. فلنبحث، فلنبحث.

وها نحن مدفوعون باهتمام غير عادي، نجوب الجدار العالي، نسأل الصخور ونفحص أدق الشقوق التي قد تتحول فتكون فتحة تقود إلى سرداب ما.

وهكذا وصلنا إلى موضع يضيق عنده الشاطئ، حيث البحر يصل تقريبًا إلى سفوح الجبال، تاركًا مسارًا عرضه أقل من توايز واحد. وبين هضبتين من الصخور لمحنا مدخل نفق مظلم.

هنا، فوق لوح من الجرانيت، ظهر حرفان متآكلان، كانا يشيران إلى أول حرفين من اسم المغامر الشجاع، وصاح عمي عندما قرأهما:

- آ.س! ىرنه ساكنوسسيمم! دائمًا وأبدًا آرنه ساكنوسسيمم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والثلاثون

منذ أن بدأت هذه الرحلة مرت بي أحداث مدهشة كثيرة بلا عدد، حتى إني اعتقدت أني قد أصبحت محصنًا ضد أي انبهار أو ذهول. وبالرغم من ذلك، عندما رأيت هذين الحرفين وقد نقشا هنا منذ ثلاثمائة عام، بقيت مسمرًا في حالة من الاندهاش والذهول الشديد تقترب من العته. فلم يكن توقيع العالم الخيميائي مقروءًا فوق الصخور فقط، بل إن النصل الذي نقش هذا التوقيع كان بحوزتنا وبين أيدينا. وبعيدًا عن سوء النية، لم يعد بإمكاني بعد الآن أن أضع موضع الشك وجود هذا المسافر ولا حقيقة رحلته.

وبينما هذه الأفكار تغلي في رأسي كان البروفيسور منطلقًا في وصلة مديح لآرنه ساكنوسسيمم.

«أيها العبقري الرائع! أنت لم تهمل ولم تنسَ شيئًا يمكن أن يفتح أمام البشر الآخرين طرق القشرة الأرضية، وعلماء مثلك يرون الآن آثار أقدامك التي تركتها منذ ثلاثة قرون، مطبوعة فوق السراديب الجوفية المظلمة. أمنت لأعين غير عينيك أن تبصر وتتأمل هذه العجائب كلها! اسمك المحفور في كل مرحلة يقود المسافر الذي تجاسر على أن يسير على دربك، مباشرة إلى الهدف، وسيكون اسمك محفورًا بيدك أنت أيضًا في باطن كوكبنا عند نقطة المركز فيه. حسن، سأذهب أنا أيضًا لأوقع باسمي صفحة الجرانيت الأخيرة هذه، ولكن ليكن اسم هذا الرأس الذي رأيته أنت بالقرب من هذا البحر الذي اكتشفته أنت، رأس ساكنوسسيمم من الآن وإلى الأبد».

هذا هو ما سمعته تقريبًا، وشعرت بحماس جارف نقلته إليَّ هذه الكلمات التي كانت تنضح بحماس لا مثيل له. وأضاء وهج داخلي في صدري، نسيت كل شيء، كل أهوال الرحلة ومخاطر طريق العودة. هذا الذي فعله آخر من قبلنا أريد أنا أيضًا أن أفعله، ولا شيء من فعل البشر بدا لي مستحيلًا.

- إلى الأمام، إلى الأمام.

قلت هذا وأنا أندفع مسرعًا نحو السرداب المظلم، ولكن عمي أوقفني ونصحني، وهو الأهوج المندفع دومًا، بالصبر والتروي.

- فلنعد مبدئيًّا إلى حيث ينتظرنا هانز ولنعد بالطوافة إلى هذا الموضع.

أطعت هذا الأمر بصعوبة وأسرعت عائدًا وسط صخور الشاطئ. وقلت لعمي في أثناء سيرنا:

- أتعلم يا عمي أن الظروف خدمتنا بصورة استثنائية حتى الآن!

- آه، أتعتقد ذلك يا آكسل؟

- بلا شك، لا تنسَ العاصفة التي حدثت لتعيدنا إلى الطريق الصحيح. مبارك هو هذا الإعصار، فقد أتى بنا إلى هذه الضفة التي كان الجو الصحو حريًّا بأن يأخذنا بعيدًا عنها. تصور ولو للحظة أننا قد لمسنا بمقدمة الطوافة الشواطئ الجنوبية لبحر ليدنبروك، ماذا كان سيحدث لنا حينها؟ لم يكن اسم ساكنوسسيمم ليظهر أمام أعيننا ولكنا الآن تائهين فوق رمال شاطئ مسدود بلا منفذ.

- نعم يا آكسل، هناك شيء من الحظ أدى إلى أننا ونحن المبحرون في اتجاه الجنوب، عدنا تحديدًا إلى الشمال وإلى رأس ساكنوسسيمم. يجب أن أعترف أن هذا أمر أكثر من مدهش، هناك تفسير بلا شك وإن كنت لا أعرفه مطلقًا.

- وماذا يهم؟! لا يجب أن نجد تفسيرًا للأحداث بل يجب أن نستفيد من وقوعها.

- بلا شك يا ولدي ولكن...

- ولكن نحن سوف نستأنف الطريق نحو الشمال، ونمر أسفل المناطق الشمالية في أوروبا، السويد وروسيا وسيبيريا، لا أدري، بدلًا من أن نغوص أسفل صحاري أفريقيا أو تحت أمواج المحيط، لا أريد أن أعرف المزيد.

- نعم يا آكسل، أنت على حق وكل ما حدث كان للأفضل، بما أننا نغادر هذا البحر الأفقي الذي لا يمكن أن يقودنا إلى شيء فسوف نهبط، نهبط إلى أسفل، نهبط دائمًا. هل تعرف أنه لكي نصل إلى باطن الأرض ليس أمامنا سوى ألف وخمسمائة فرسخ نقطعها؟!

- ماذا؟! هذا لا يستحق عناء الحديث، هيا بنا، هيا بنا.

ظللنا نتبادل هذه الأحاديث المجنونة حتى وصلنا إلى حيث كان الصياد ينتظرنا. كان قد أعد كل شيء لنرحل على الفور. كل أمتعتنا كانت قد حملت على الطوافة حيث اتخذ كل منا موقعه، ورفع الشراع واتجه هانز نحو رأس ساكنوسسيمم مبحرًا بمحاذاة الساحل.

لم تكن الريح مواتية لمثل هذا النوع من القوارب. وبالتالي اضطررنا في عدة مواقع أن نتقدم مستخدمين العصي الحديدية، وكثيرًا ما اضطرتنا الصخور الممتدة فوق صفحة المياه أن نقوم بالتفافات طويلة لنتفاداها. وأخيرًا وبعد ثلاث ساعات من الإبحار، أي في نحو السادسة مساء، وصلنا إلى موضع مناسب للتوقف. قفزت إلى الخارج وتبعني عمي والصياد الأيسلندي. رحلة الإبحار هذه لم تفلح في تهدئتي، بل على العكس، حتى إني اقترحت أن نحرق «مراكبنا» حتى نقطع على أنفسنا طريق العودة. ولكن عمي عارض الفكرة. ولاحظت أنه هادئ حذر على غير العادة.

- على الأقل دعونا ننطلق من دون أن نفقد لحظة واحدة.

قلت لهما متعجلًا الرحيل.

- نعم يا ولدي، ولكن قبل أن ننطلق دعنا نفحص هذا السرداب الجديد حتى نرى لو كان يجب أن نجهز سلالم الحبال.

وشغل عمي جهاز روهمكورف الخاص به. وتركنا الطوافة مربوطة بالحبال على الشاطئ. على أي حال كانت فتحة النفق لا تبعد عن موضعنا سوى مسافة قليلة، واتجه جمعنا الصغير، وأنا في المقدمة، نحوها من دون تأخير.

بلغ قطر الفتحة التي كانت شبه دائرية نحو خمسة أقدام، وكان النفق المظلم محفورًا في الصخر الصلد، وجدرانه عبدتها بعناية المواد البركانية التي مرت عبره في زمان سابق. وكان الجزء الأسفل

من السرداب قريبًا من الأرض يكاد يلمسها بحيث تمكنا من الدخول إليه من دون صعوبة تذكر.

كنا نتبع مسارًا شبه أفقي، عندما، وبعد نحو ست خطوات، أوقفت مسيرتنا صخرة هائلة سدت الطريق أمامنا، وجعلني هذا أثور ثورة هائلة وأنا أرى أمامي عائقًا يستحيل عبوره فصحت قائلًا:

- ملعونة هذه الصخرة.

بحثنا يمينًا ويسارًا، إلى أسفل وإلى أعلى، ولم نجد مسارًا واحدًا ولا تفريعة واحدة. استولى عليَّ شعور حاد بالإحباط، ولم أكن أريد أن أعترف بحقيقة وجود هذا العائق الضخم. انحنيت ونظرت أسفل الكتلة العملاقة ولم أجد أدنى فجوة، ثم إلى أعلى، لا شيء سوى العائق الجرانيتي نفسه. تجول هانز بضوء المصباح فوق كل نقطة في جدار النفق، ولكن الجدار لم يكن يحمل حلًّا يمكننا من استكمال المسيرة. وجدنا أنفسنا أمام خيار وحيد: فقدان الأمل في تخطي هذا العائق.

كنت جالسًا على الأرض وكان عمي يذرع النفق بخطى سريعة.

- ولكن ماذا عن ساكنوسسيمم؟

صحت قائلًا في يأسي.

- نعم.

أجابني عمي.

- هل اعترضه هو الآخر هذا الباب الصخري العتيد؟

- كلا، كلا.

أجبته في حماس.

- هذه الكتلة الصخرية تحركت بفعل هزة ما أو بفعل إحدى هذه الظواهر المغناطيسية التي ما زالت تهيج القشرة الأرضية، لتسد هذا الطريق على حين فجأة. سنين عديدة مرت ما بين عودة ساكنوسسيمم وسقوط هذه الكتلة. أليس واضحًا أن هذا السرداب كان يومًا ما طريقًا للحمم وأن المواد البركانية كانت تمر عبره بحرية وسهولة؟ انظر، هناك شقوق حديثة ظاهرة في هذا السقف الجرانيتي المصنوع من أجزاء مجمعة، ومن أحجار ضخمة كما لو أن يد عملاق من العمالقة كانت تعمل هنا، ولكن يومًا ما كانت الهزة أكثر عنفًا فانزلقت إلى أسفل هذه الكتلة التي تشبه حجر زاوية مفقود، وسدت الطريق تمامًا. هذا عائق لم يقابله ساكنوسسيمم ولو لم نُزحه نحن فلن نستحق شرف الوصول إلى باطن الأرض.

هكذا كنت أتكلم. كانت روح البروفيسور قد تلبستني تمامًا، وكانت عبقرية الاستكشاف العلمي تلهمني. نسيت الماضي فلم أتذكره واحتقرت المستقبل ولم يعد شيء يهمني فوق سطح هذه الكرة الأرضية التي ابتلعني جوفها، لا مدن ولا حقول ولا هامبورج ولا كونينج شتراسه، ولا حتى جروبن حبيبتي المسكينة التي لا بد وأنها اعتقدت أني فقدت إلى الأبد في أحشاء الأرض.

- حسن.

صاح عمي أخيرًا.

- فلنشق لنا طريقًا في هذه الجدران بالفؤوس والمعاول، فلنهدم هذه الجدران فورًا.

- الجدار صلب لن تقوى عليه الفؤوس.

صحت مجيبًا.

- المعول إذَنْ.

- إنه سميك جدًّا لن يخترقه المعول.

- ولكن...!

- إذَنْ البارود، كما في المناجم، فلننسف هذا العائق.

- البارود!

- نعم، الأمر ليس أكثر من صخرة نحطمها.

- هانز، هيا إلى العمل.

صاح عمي مخاطبًا دليلنا الأمين.

وذهب الأيسلندي الماهر إلى حيث الطوافة وعاد سريعًا ومعه فأس استخدمه ليحفر فرن منجم. لم يكن هذا عملًا سهلًا. كان الأمر يتعلق بإحداث ثقب ضخم بما فيه الكفاية ليسع خمسين رطلًا من الفولميكوتون أو قطن البارود المصنوع من النيتروسيليلوز ذي القدرة التوسعية التي تبلغ أربعة أضعاف القدرة التوسعية للبارود العادي.

كنت في حالة من الإثارة الذهنية الشديدة. وبينما كان هانز يعمل كنت أساعد عمي بنشاط في إعداد فتيل طويل مصنوع من المسحوق المبلول والمحاط بخرطوم من القماش، وأنا أقول في حماس:

- سوف نمر!

ويردد عمي ورائي:

- نعم سوف نمر.

وعند منتصف الليل اكتمل تمامًا عمل عمال المناجم التي اضطلعنا به، وأصبح حمل الفولميكوتون مدفونًا بالكامل في الفرن الذي حفره هانز، والفتيل الذي امتد بطول السرداب انتهى طرفه إلى الخارج.

شرارة بسيطة كانت كافية لتطلق هذه الآلة الجهنمية. ولكن عمي قرر الانتظار قائلًا:

- إلى الغد إذَنْ.

كان عليَّ أن أمتثل وأتحمل الانتظار لمدة ست ساعات أخرى طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأربعون

أصبح الغد، الخميس 27 أغسطس، تاريخًا مذكورًا في هذه الرحلة عبر جوف الأرض. لا أتذكر هذا التاريخ من دون أن يعاودني الرعب الذي يجعل ضربات قلبي تتسارع من جديد. منذ هذا التاريخ أصبحت عقولنا وتقديرنا للأمور ومهارتنا كلها أمور لا تُذكر ولا قيمة لها، وأضحينا لعبة في يد ظواهر الكرة الأرضية.

في السادسة صباحًا كنا متيقظين وعلى أهبة الاستعداد. واقتربت اللحظة التي سوف نحفر لأنفسنا فيها طريقًا عبر القشرة الجرانيتية باستخدام الذخيرة التي أعددناها بالأمس.

طالبت بنيل شرف إشعال الفتيل في هذا المنجم، وبعد أن أفعل، سيكون عليَّ أن ألحق برفيقَي على سطح الطوافة التي كانت ما زالت تحمل كل أمتعتنا ومؤن رحلتنا، ثم ننطلق إلى عرض البحر بعد ذلك حتى نبتعد عن أخطار الانفجار التي يمكن أن تتركز قوته داخل الكتلة الصخرية.

كان مقدرًا أن يشتعل الفتيل لمدة عشر دقائق طبقًا لحساباتنا قبل أن تصل النيران إلى الفرن الذي يحتوي على مسحوق البارود. وبالتالي يكون الوقت كافيًا لكي أصل إلى الطوافة.

تأهبت لتأدية دوري المحتوم وصعد عمي والصياد إلى متن الطوافة بينما بقيت أنا على الشاطئ. كان معي مصباح مضاء أستعين به في إشعال الفتيل. وودعني عمي قائلًا:

- اذهب يا ولدي وعد على الفور لتلحق بنا.

- اطمئن يا عمي، أعدك لن أتلكأ وسأعود سريعًا.

وعلى الفور اتجهت إلى فتحة السرداب وفتحت مصباحي وأمسكت بطرف الفتيل.

كان البروفيسور ممسكًا بالكرونوميتر في يده وصاح قائلًا:

- هل أنت مستعد؟

- نعم، مستعد.

- حسن، أشعل النيران يا ولدي.

غمست النار سريعًا في طرف الفتيل الذي طقطق حين لامسته النيران وعدوت سريعًا حتى وصلت إلى الشاطئ.

- اصعد سريعًا ولننطلق إلى عرض البحر.

هكذا أمر عمي ودفعنا هانز دفعة قوية أوصلتنا إلى المياه، وأبحرت الطوافة مبتعدة مسافة نحو عشرين توايز.

كانت لحظة دقيقة، وكان عمي يحملق في الكرونوميتر متابعًا حركة إبرته، وقال:

- خمس دقائق أخرى، أربع دقائق، ثلاث دقائق.

كان نبضي يتسارع بجنون.

- دقيقتان، دقيقة واحدة. هيا انهاري أيتها الجبال الجرانيتية.

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ ضجيج الانفجار، خيل إليَّ أني لم أسمعه ولكن هيئة الصخور تغيرت فجأة أمام ناظري، انفتحت وانزاحت كما الستار.

ولمحت هاوية بلا قرار تنفتح وسط الشاطئ. والبحر، الذي أصابه الهلع، تحول إلى موجة هائلة والطوافة على ظهر هذه الموجة تعلو وترتفع عموديًّا.

وانقلبنا نحن الثلاثة. وفي أقل من ثانية، اختفى الضوء وترك مكانه لظلمة حالكة. ثم شعرت أنه لا شيء نستند إليه، ليست أقدامي فقط هي التي افتقدت أرضًا صلبة تقف عليها، بل إني شعرت أن الطوافة ذاتها هي التي أضحت في فراغ محيط واعتقدت أنها تغرق، ولكن هذا لم يحدث. تمنيت لو استطعت أن أنادي على عمي وأن أحدثه، ولكن هدير الموج لم يكن ليجعله يسمعني.

وبالرغم من الظلمات والضجيج الهائل والدهشة والانفعال الذي كنت فيه، فهمت ماذا حدث للتوِّ. بعد الكتلة الصخرية التي تفجرت كانت هناك هاوية، والانفجار أحدث نوعًا من الزلزال في هذه التربة التي تتخللها الشقوق، فانفتحت الهاوية. والبحر الذي تحول إلى سيل جارف، كان يحملنا معه في اندفاعه المحموم نحوها. شعرت بالضياع.

مرت ساعة، ساعتان ربما، لست أدري، والوضع كما هو. كنا نمسك ببعضنا البعض ونشبك أيدينا معًا حتى لا تلقي بنا المياه الهائجة إلى خارج الطوافة. صدمات عنيفة كانت تحدث عندما تصطدم الطوافة بالجدار، ولكن هذه الصدمات كانت نادرة، مما جعلني أستنتج أن السرداب يزداد اتساعًا بصورة متزايدة. لم يكن هناك أي شك في أن هذا هو الطريق الذي اتبعه ساكنوسسيمم، ولكن بدلًا من أن نهبط فيه بمفردنا، أدى اندفاعنا وعدم حرصنا إلى أن يتبعنا بحر كامل في رحلة الهبوط تلك. توالت هذه الأفكار على ذهني في صورة مبهمة ومظلمة، وكنت أربط بينها بصعوبة بالغة في أثناء هذا السباق المحموم الذي يشبه السقوط، والذي فاقت سرعته أكثر القطارات سرعة، حيث كانت الرياح مثل سياط تضرب وجوهنا بلا كلل ولا توقف.

كان من المستحيل بالطبع أن نوقد شعلة في هذه الظروف، وكان آخر مصابيحنا الكهربية قد انكسر لحظة الانفجار. ولذلك فقد ذهلت عندما لمحت فجأة ضوءًا يلمع بالقرب مني. النور أضاء وجه هانز الهادئ. هذا الصياد الماهر نجح في إشعال المصباح، وبالرغم من أن شعلته تراقصت وكادت تنطفئ فقد نجح في إلقاء بعض الضوء وسط الظلمة المرعبة.

كان السرداب واسعًا وكنت محقًّا في تقديري لاتساعه، إذ إن الضوء البسيط الذي أتاحه المصباح لم يكن كافيًا لكي نرى جانبَي السرداب في الوقت ذاته. كان انحدار المياه التي تحملنا أعلى كثيرًا من أعلى المنحدرات المائية السريعة في أمريكا، وكان سطحها يبدو كما لو كان مصنوعًا من حزمة من الأسهم السائلة قد أطلقتها قوة هائلة. هذا هو انطباعي، ولم أجد أفضل من هذا التشبيه للتعبير عنه، لأنه في بعض الأحيان كانت الطوافة تصطدم ببعض الدوامات فتندفع في سيرها في حركة دائرية،

وعندما كانت تقترب من جدار السرداب كنت أوجه ضوء المصباح إلى الجدران، وكان بوسعي حينها أن أخمن سرعة اندفاع الطوافة وأنا أرى كيف تتغير سريعًا وباستمرار أشكال النتوءات الصخرية التي تبطنها، بصورة جعلتنا محشورين وسط حزمة من الخطوط المتحركة. وقدرت سرعتنا بنحو ثلاثين فرسخًا في الساعة.

عمي وأنا كنا نرقب المشهد بنظرات مذهولة ونحن ممسكان بالصاري الذي انقسم لحظة وقوع الكارثة، وقد أدرنا ظهورنا للريح حتى لا تخنقنا سرعتها الفائقة، والتي لم تكن أي قوة بشرية قادرة على تحملها.

ومع ذلك كانت الساعات تمر والوضع كما هو لا يتغير، ولكن حدثًا وقع فجأة ليزيد الموقف تعقيدًا.

فبينما كنت أحاول أن أعيد ترتيب الشحنة التي حملناها معنا، اكتشفت أن الجزء الأكبر من الأمتعة والأدوات التي حملناها معنا قد اختفى لحظة الانفجار عندما غمرنا الماء بعنف. أردت أن أتأكد مما بقي لنا تحديدًا، وبدأت البحث وأنا أمسك بالمصباح في يدي، ووجدت أن الأدوات جميعها اختفت ما عدا البوصلة والكرونوميتر. السلالم والحبال لم يبقَ منها سوى قطعة من كابلٍ يلتف حول جزء من الصاري. اختفت الفؤوس والمعاول والمطارق، والطامة الكبرى هي أنه لم يتبقَّ معنا طعام أو شراب يكفي حتى ولو ليوم واحد.

بحثت كالمجنون في كل فجوات الطوافة وفي كل الزوايا الصغيرة التي شكلتها الألواح والعوارض الخشبية، لا شيء، كل ما تبقى لنا كان قطعة من اللحم المقدد وبضع مقرمشات.

بقيت أنظر حولي كالغبي الذي لا يريد أن يفهم. ومع ذلك، أي خطر هذا الذي كان يشغلني في هذه اللحظة؟ لو كانت معنا مؤن تكفي لشهور ولسنين حتى، كيف نستطيع الخروج من هذه الهاوية التي يدفعنا إليها هذا السيل الهادر؟ هل الخطر الأكبر هو أن نموت جوعًا، وهل نملك الوقت لذلك؟

وبالرغم من ذلك أنستني تخيلات غريبة لا أملك تفسيرًا لها الخطرَ الداهم المباشر لأتذكر فقط تهديدات مستقبلية بدت لي مخيفة ومرعبة. كان الواقع يقول إننا ربما نستطيع الهروب من غضبة السيل الهادر والعودة إلى سطح الأرض، كيف؟ لا أعرف. أين؟ لا يهم. فرصة واحد في المليون تظل فرصة، بينما الموت جوعًا لم يكن يترك لنا أي بصيص من أمل ولو ضئيل.

فكرت أن أخبر عمي بكل شيء، وأن أحيطه علمًا بالوضع الصعب الذي أصبحنا فيه، وبالحساب الدقيق للوقت الذي تبقى لنا قبل أن نموت. ولكن لم تواتني الشجاعة فخرست. أردت أن أتيح له وقتًا يظل فيه متماسكًا رابط الجأش.

وفي هذه اللحظة خفت نور المصباح شيئًا فشيئًا حتى انطفأ تمامًا. كان الفتيل قد احترق حتى آخره وعادت الظلمة تطبق علينا. وأصبح علينا أن نتوقف عن التفكير في كيفية تبديد هذا الظلام الدامس. كنا لا نزال نملك مصباحًا آخر ولكن كان من الصعب أن نبقيه مضاءً. فمثل طفل صغير أغمضت عينيَّ حتى لا أرى هذا الظلام المحيط. وبعد مرور وقت طويل تضاعفت سرعة اندفاعنا. هذا ما لاحظته من انعكاس الريح على وجهي. وأصبح انحدار المياه متزايدًا. وتيقنت أننا لم نعد ننزلق بل نسقط. وخيل إليَّ أن سقطتنا هذه شبه رأسية. وأمسكت بي يد عمي ويد هانز المطبقتان على ذراعي.

وفجأة وبعد وقت لا أستطيع تقديره، شعرت بصدمة. لم تصطدم الطوافة بجسم صلب ولكن سقوطها توقف حين فجأة، وتهاوى على سطحها خرطوم ماء بل عمود سائل هائل، وشعرت بأني أختنق، إني أغرق...

ولكن هذا الطوفان المفاجئ لم يدُم طويلًا. ثوانٍ قليلة ووجدت نفسي في الهواء الطلق الذي تنفسته بكل ما أملك من قوة.

عمي وهانز كانا يضغطان على ذراعي بقوة حتى كادا يكسراها، وبقينا ثلاثتنا معًا تحملنا الطوافة وسط المياه الهادرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والأربعون

أعتقد أن الوقت كان العاشرة مساء. أول حواسي التي استعادت العمل بعد هذه المعركة مع الطبيعة كانت حاسة السمع. سمعت فورًا، إذ إن هذا كان فعل سمع حقيقي، سمعت الصمت وقد ساد في السرداب في أعقاب هذا الهدير الذي أصم أذنيَّ لساعات طويلة. وأخيرًا واتتني كلمات عمي مثل همهمات خافتة:

- نحن نصعد.

وصحت أجيبه:

- ماذا تقول؟

- نعم، نحن نصعد، نحن نصعد.

مددت ذراعي وتلمست الجدار وغطت الدماء يدي. كنا نصعد بسرعة فائقة.

وصاح عمي قائلًا:

- المصباح، المصباح.

وتمكن هانز بصعوبة من أن يوقد المصباح، وتراقصت الشعلة من أسفل إلى أعلى بالرغم من حركة الصعود، فألقت بعضًا من نور أضاء المشهد كله من حولنا. واستطرد البروفيسور:

- هذا بالضبط ما فكرت فيه، نحن في بئر ضيقة، قطرها لا يزيد على أربعة توايز. والمياه التي وصلت إلى قاع الهاوية، تستعيد مستواها ونحن نصعد معها.

- إلى أين؟

- لا أعرف، ولكن يجب أن نبقى مستعدين لكل الاحتمالات. نحن نصعد بسرعة تقدر باثنين توايز في الثانية، أي مائة وعشرين توايز في الدقيقة، أو ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ في الساعة. وبهذه السرعة نقطع مسافات كبيرة.

- نعم، هذا لو لم يوقفنا شيء. لو كان لهذه البئر مخرجًا ولكن ماذا لو كانت موصدة ولو انضغط الهواء شيئًا فشيئًا تحت ضغط عمود المياه، ماذا لو كنا سننسحق؟!

- آكسل.

أجاب البروفيسور بهدوء شديد.

- الموقف شبه ميؤوس منه، ولكن هناك فرصة ضئيلة للنجاة، وأنا أبحث عن هذه الفرصة. فلو أننا في كل لحظة نتعرض للموت فإننا في اللحظة نفسها أيضًا نملك فرصة للنجاة. فلنعمل إذَنْ على الاستفادة من أدق الظروف.

- ما العمل إذنْ؟

- فلنأكل لنستعيد قوانا.

عند هذا الحد واجهت عمي بالنظرة الباهتة الغبية نفسها. بات عليَّ الآن أن أخبره بما لم أُرد أن أفصح عنه من قبل:

- نأكل؟

- نعم ومن دون تأخير.

وأضاف البروفيسور بضع كلمات باللغة الدنماركية وهز هانز رأسه نافيًا فصاح عمي ملتاعًا:

- ماذا؟! فقدنا كل المؤن؟

- نعم، وهذا هو كل ما تبقى، قطعة من اللحم المقدد لنا نحن الثلاثة.

ظل عمي ينظر إليَّ رافضًا أن يفهم ما أقول.

- حسن، هل ما زلت ترى أننا يمكن أن ننجو؟

ولم يجد سؤالي جوابًا.

مرت ساعة وبدأت أعاني جوعًا ضاريًا. كان رفيقاي يعانيان هما أيضًا ولكن أيًّا منا لم يجرؤ على أن يمس قطعة اللحم البائسة التي بقيت معنا.

ومع ذلك كنا نواصل الصعود بسرعة فائقة. في فترات كانت سرعة الريح تعوق تنفسنا كما يحدث للملاحين الذين يكون صعودهم بسرعة زائدة عن الحد. ولكن هؤلاء كانوا يعانون برودة نسبية كلما ارتفعوا في طبقات الجو العليا، أما نحن فكنا نعاني تأثيرًا عكسيًّا تمامًا، إذ كانت الحرارة تتصاعد بصورة مقلقة حتى بلغت أربعين درجة ربما. ما مغزى هذا التحول؟

كانت الأحداث كلها حتى الآن تتسق مع نظريات دافي وليدنبروك. وحتى الآن كانت الخواص المميزة للصخور الحرارية والكهرباء والجاذبية المغناطيسية قد غيرت القوانين العامة للطبيعة، مانحة إيانا حرارة معتدلة، بالرغم من أن نظرية النار المركزية ظلت في اعتقادي هي الحقيقة الوحيدة الثابتة، والوحيدة القابلة للتفسير. هل نحن في طريق العودة إلى موضع تتجلى فيه كل هذه الظواهر في عنفوانها، وحيث الحرارة تحيل الصخور إلى حالة من الذوبان والسيولة؟ هذا ما كنت أخشاه واتجهت للبروفيسور قائلًا:

- لو كنا لم نغرق ولم ننكسر، ولو لم نمُت جوعًا، تتبقى دائمًا فرضية أن نُحرق أحياء.

اكتفى بهز كتفيه وعاد لينغمس مجددًا في أفكاره.

مرت ساعة أخرى ولم يحدث سوى ارتفاع طفيف في درجة الحرارة، وسوى ذلك لم يطرأ شيء على ما كنا فيه. وأخيرًا كسر عمي جدار الصمت وقال:

- انظروا، يجب أن نختار.

- نختار ماذا؟

- نعم، يجب أن نستعيد قوانا. لو حاولنا اقتسام ما تبقى لنا من طعام بحيث نطيل بقاءنا على قيد الحياة بضع ساعات، سنظل ضعفاء حتى النهاية.

- نعم، حتى النهاية، الآتية سريعًا بلا ريب.

- اسمعني، ماذا لو حانت فرصة واحدة للنجاة، لو جاءت لحظة وجب علينا فيها أن نتحرك لنفعل شيئًا، أين سنجد القوة اللازمة حينها وقد تركنا أنفسنا للهزال والضعف من فرط الجوع؟

- ماذا تقول يا عمي؟! وبعد أن نلتهم قطعة اللحم هذه ماذا سيتبقى لنا؟

- لا شيء يا آكسل، لا شيء. ولكن هل ستتغذى أكثر لو بقيت تنتظر وتأكل بعينك بدلًا من أن تأكل فعليًّا؟ أنت تردد هنا كلمات رجل بلا إرادة، كائن بلا طاقة ولا حماس!

- وأنت ألا تيأس أبدًا؟

صحت فيه ثائرًا.

- كلا.

أجابني البروفيسور بكل حزم وتصميم.

- ماذا إذَنْ؟! هل ما زلت تعتقد أن هناك فرصة للنجاة؟

- نعم، بكل تأكيد نعم. ولا أعتقد أبدًا أن هناك رجلًا ذا إرادة يترك لليأس مكانًا في نفسه ما دام قلبه ينبض، وما دام الدم يجري في عروقه.

أي كلمات هذه؟! الرجل الذي يقول كلمات مثل هذه في ظروف مثل التي نحن فيها لا بد وأنه من طينة أخرى غير طينة البشر.

- وفي النهاية، أخبرني ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنوي أن نتناول ما تبقى من طعام حتى آخر قطعة، وأن نصلح قوانا المنهكة قدر الإمكان. هذا هو عشاؤنا الأخير، فليكن! ولكن على الأقل، بدلًا من أن نبقى منهكين، نكون قد عدنا رجالًا.

- فلنلتهم ما تبقى إذَنْ.

صحت مجيبًا.

أخذ عمي قطعة اللحم والمقرمشات القليلة التي نجت من الغرق وقسمها إلى ثلاثة أقسام متساوية ووزعها علينا. كان هذا بمقدار نحو رطل من الطعام لكل منا. تناول البروفيسور نصيبه بنهم، بل بشيء من الاندفاع المحموم. وأكلت أنا نصيبي من دون بهجة، وبالرغم من جوعي الشديد، كنت متقززًا. أما هانز فتناول طعامه بهدوء واعتدال، كان يلوك من دون صوت قطعًا صغيرة من الطعام

ويتذوقها بهدوء رجل لا تَقلقه هواجس المستقبل. كان قد وجد عندما بحث في المكان جيدًا قرعة مملوءة حتى المنتصف بشراب العرعر، قدمها إلينا وأنعشني قليلًا هذا الشراب المحيي.

وقال هانز وهو يشرب بدوره:

- Förträfflig!

وأمَّن عمي على كلامه قائلًا:

- ممتاز!

استعدت بعض الأمل. ولكن عشاءنا الأخير انتهى سريعًا. وكانت الساعة نحو الخامسة صباحًا.

هكذا كان الإنسان، صحته هي تأثير سالب مجرد. ما إن ترتوي حاجته للطعام حتى لا يعود يذكر ما هي أهوال الجوع. هذه الآلام يجب أن تعانيها حتى تفهمها. وهكذا، في نهاية صوم طويل كانت بضع قطع من المقرمشات واللحم قادرة على أن تتغلب على كل آلام ومعاناة الفترة الماضية.

وبعد أن انتهى العشاء، انصرف كل منا إلى أفكاره. فيم كان يفكر هانز، هذا الرجل القادم من أقصى الغرب، والذي يتسلط عليه استسلام الشرقيون؟ أما أنا، فقد كانت أفكاري كلها ذكريات، وهذه الذكريات أعادتني إلى سطح الأرض الذي كان يجب ألا أغادره أبدًا، إلى المنزل الذي في كونينج شتراسه، وحبيبتي المسكينة جروبن، ومارتا العزيزة، خيالات مرت كلها أمام ناظري وهيئ إليَّ، وسط الفرقعات المروعة التي تجري عبر القشرة الأرضية، أني أسمع ضجيج المدن الأرضية.

أما عمي المنشغل دومًا «بعمله»، فقد أمسك بالمصباح وطفق يفحص طبيعة التربة بكل اهتمام. كان يريد أن يكتشف موقعه عن طريق مراقبة الطبقات المتراكبة. هذا الحساب، أو فلنقل التقدير، لم يكن في أفضل الأحوال سوى تقدير تقريبي. ولكن العالِم هو العالِم خاصة عندما يتمكن من الاحتفاظ ببروده وهدوء أعصابه، وبكل تأكيد كان البروفيسور ليدنبروك يمتلك هذه الميزة إلى درجة نادرة الوجود.

سمعته يهمهم بكلمات من علم الجيولوجيا. كلمات كنت أفهمها، وانتبهت رغمًا عني مهتمًّا بهذه الدراسة المتقدمة. كان عمي يقول بصوت خفيض:

- جرانيت بركاني، نحن ما زلنا في الحقبة البدائية ولكننا نصعد، نصعد، من يدري؟

من يدري؟ كان ما زال يأمل. كان يتحسس بيده الجدار الرأسي وبعد لحظات استطرد قائلًا:

- هذا حجر الصوان، وهذه أحجار الميكاشيست. حسن، نحن نقترب من أراضي الحقبة الانتقالية، وحينها...

ماذا كان البروفيسور يريد أن يقول؟ هل كان يستطيع قياس سمك القشرة الأرضية المعلقة فوق رؤوسنا؟ هل كان يملك وسيلة ما ليقوم بهذه الحسابات؟ كلا، المانوميتر فُقد وليس لدينا ما يعوضه.

ومع ذلك كانت الحرارة تتصاعد سريعًا، ووجدتني أتصبب عرقًا في هذا المناخ الحارق. هذه درجة حرارة لا تقارن إلا بالحرارة التي تعكسها أفران المسبك ساعة الصب. وشيئًا فشيئًا، اضطررنا عمي وهانز وأنا، أن نخلع ستراتنا وقمصاننا. أخف قطعة ملابس كانت مصدرًا للعذاب.

- هل نحن صاعدون نحو قلب فرن مشتعل إذَنْ؟

صحت قائلًا في اللحظة التي تضاعفت فيها شدة الحرارة.

- كلا.

أجابني عمي.

- هذا مستحيل.

- ومع ذلك فإن هذا الجدار حارق.

أجبته وأنا أتحسس الجدار بيدي.

في اللحظة التي نطقت فيها بهذه الكلمات، لمست يدي الماء وسحبتها سريعًا إذ كان الماء حارقًا.

وصحت قائلًا:

- الماء حارق.

هذه المرة لم يُجب البروفيسور إلا بإشارة غاضبة.

ثم سيطرت على عقلي حالة من الهلع الشديد لم تفارقني. كنت أشعر بكارثة على وشك الوقوع، كارثة يعجز الخيال الجامح عن تصورها. فكرة، مبهمة في البداية، تحولت إلى يقين بداخلي، أبعدتها ولكنها عاندتني وعادت لتسيطر على ذهني. لم أجرؤ على التعبير عنها، ومع ذلك كانت بضع ملاحظات لا إرادية تثبت يقيني. ففي الضوء الضعيف الذي كان المصباح يعكسه، لاحظت بعض حركات غير منتظمة في الطبقات الجرانيتية، هناك ظاهرة على وشك الحدوث لا شك في ذلك، تلعب فيها الكهرباء دورًا ما، ثم هذه الحرارة المتزايدة، وهذا الماء الذي يغلي... أردت أن أستطلع البوصلة.

البوصلة كانت مذعورة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والأربعون

نعم، البوصلة كانت مذعورة! كانت الإبرة تقفز من جهة إلى أخرى في هزات مفاجئة، وتجري فوق كل نقاط الشاشة، وتدور وتدور كما لو أنها أصيبت بدوار مفاجئ.

كنت أعرف تمامًا أنه طبقًا للنظريات العلمية المثبتة، فإن القشرة المعدنية للكرة الأرضية لا تبقى أبدًا في حالة هدوء تام، وأن التغييرات التي تحدث نتيجة لتحلل المواد الداخلية، والهياج الناتج عن التيارات السائلة الضخمة وفعل المغناطيس، كلها تميل إلى تقويضها باستمرار، بينما البشر المنتشرون على سطحها لا يشعرون بشيء من ذلك. هذه الظاهرة إذَنْ لم تكن هي ما يثير هلعي، أو على الأقل لم تكن مصدرًا للأفكار المرعبة التي تدور في ذهني.

ولكن حقائق أخرى وتفاصيل بعينها لم تتمكن من خداعي طويلًا.

الانفجارات تضاعفت بشكل مخيف لا مثيل له، والضجيج الصادر عنها لا يمكن مقارنته بالضجيج الذي تصدره مئات بل آلاف من العربات وهي تجري مسرعة فوق بلاط الشوارع على سطح الأرض. كان الدوي الذي أسمعه ضجيج رعد مستمر لا يتوقف.

ثم إن البوصلة المذعورة التي تهتز بفعل ظواهر كهربية كانت تؤكد شكوكي. القشرة المعدنية على وشك أن تتكسر، والكتل الجرانيتية على وشك أن تلتحم، والشقوق أن تنسد، والفراغ أن يمتلئ، ونحن، الذرات المسكينة، على وشك أن ننسحق في خضم هذا العناق الهائل.

- يا عمي، يا عمي، نحن هالكون.

- ما هذا الرعب الجديد؟

أجابني البروفيسور بهدوء غريب.

- ماذا بك الآن؟

- ماذا بي؟ انظر إلى هذه الجدران التي تتحرك، وهذه الكتلة التي تنخلع، وهذه الحرارة القاتلة، والماء الذي يغلي، وهذه الأبخرة التي تتكاثف، وهذه الإبرة المجنونة؛ كل هذه المعطيات تشير إلى هزة أرضية.

هز عمي رأسه بكل هدوء وقال:

- هزة أرضية؟

- نعم.

- يا ولدي، أعتقد أنك تخطئ التقدير.

- ماذا؟! ألا تعرف هذه الأعراض؟

- أعراض هزة أرضية؟ كلا. أنا أحزر ما هو أفضل من ذلك.

- ماذا تريد أن تقول؟

- انفجار بركاني يا آكسل.

- انفجار بركاني! نحن في مدخنة بركان ثائر!

- أعتقد ذلك.

أجاب البروفيسور مبتسمًا.

- وهذا أفضل ما قد يصيبنا.

أفضل ما يصيبنا! هل جن عمي؟ ماذا تعني هذه الكلمات؟ ولم هذا الهدوء وهذا الابتسام؟

- كيف؟!

صحت قائلًا.

- كيف هذا؟! نحن في خضم ثورة بركان! القدر ألقى بنا في طريق الحمم المشتعلة والصخور الملتهبة والمياه التي تغلي وكل هذ المواد البركانية؟! ستدفعنا وتطردنا وتلقي بنا عاليًا! سيتقيأنا البركان ويرمينا في الهواء مع الصخور وأمطار الرماد والحطام في زوبعة من اللهب، وهذا ما ترى أنت أنه أفضل ما يحدث لنا؟!

- نعم.

أجاب البروفيسور وهو يرمقني من فوق زجاج نظارته.

- لأن هذه هي فرصتنا الوحيدة للعودة إلى سطح الأرض.

أمر سريعًا هنا على آلاف الأفكار التي تقاطعت في ذهني حينها. كان عمي على حق، نعم على حق تمامًا، ولم يبدُ لي أكثر إقدامًا ولا أكثر إقناعًا منه في هذه اللحظة التي كان ينتظر فيها ويتحسب بمنتهى الهدوء فرص حدوث ثورة بركانية.

ومع ذلك كنا نواصل الصعود. الليل مر وانقضى ونحن في هذه الحركة الصاعدة. الضوضاء المحيطة تضاعفت وكنت على وشك الاختناق، وظننت أن ساعتي قد حانت، ومع ذلك كان خيالي جامحًا ووجدتني أستسلم لبحث طفولي للغاية. ولكني كنت أعاني أفكاري ولم يكن لي أي سلطان عليها.

كان واضحًا أن ثورة بركانية تدفعنا إلى أعلى. كانت المياه تغلي وتفور تحت الطوافة، وأسفل المياه كانت هناك عجينة كاملة من الحمم البركانية، مجموعة من الصخور التي ستتفرق في كل اتجاه عندما تبلغ الفوهة.

كنا في مدخنة بركان، لا شك في ذلك.

ولكن هذه المرة، بدلًا من السنيفيليس، البركان الخامد، كان الأمر يتعلق ببركان آخر في قمة فورانه. وبقيت أتساءل أي جبل هذا وفي أي منطقة من العالم ستلقي بنا حمم هذا البركان.

في المناطق الشمالية بالتأكيد. لا شك في ذلك، إذ إن البوصلة لم تغير اتجاهها الذي كان يشير إلى الشمال قبل أن يصيبها الجنون الأخير. نحن اندفعنا مئات الفراسخ في اتجاه الشمال منذ أن كنا عند رأس ساكنوسسيمم. هل عدنا إلى حيث أيسلندا إذَنْ؟ هل يلفظنا البركان إلى الخارج عبر فوهة الهيكلا أم عبر واحدة من قمم الجحيم السبع الأخرى التي في الجزيرة؟ لم أرَ في نصف قطر طوله خمسمائة فرسخ إلى الغرب، تحت هذا الخط المتوازي، سوى البراكين غير المعروفة التي توجد على الساحل الشمالي الغربي في أمريكا. في الشرق كان هناك بركان وحيد تحت خط العرض ثمانين، وهو بركان الإيسك في جزيرة جون ماين، ليس بعيدًا عن سبيتزبيرج. بالتأكيد لم تكن تنقصنا الفوهات ومعظمها كان يتسع لتقيؤ جيش بأكمله. ولكن أي فوهة ستكون مخرجًا لنا، هذا ما كنت أحاول أن أخمنه.

عند الصباح تزايدت سرعة الصعود، وارتفعت الحرارة بدلًا من أن تنخفض كالمتوقع كلما اقتربنا من سطح الأرض، وذلك لأنها حرارة ناجمة عن نشاط بركاني. لم يبقَ لديَّ أي شك في نوع القاطرة التي تدفعنا. قوة هائلة كانت تدفعنا بلا أي مقاومة، قوة مقدارها مئات الدرجات، أنتجتها الأبخرة المتراكمة في جوف الأرض. ولكن إلى أي أخطار بلا عدد كانت تُعرضنا هذه القوة!

وسرعان ما اقتحمت انعكاسات ملونة السرداب الرأسي الذي كان يزداد اتساعًا ولمحت إلى اليمين وإلى اليسار ممرات عميقة تشبه أنفاقًا هائلة تتصاعد منها أبخرة كثيفة، ولمحت ألسنة من نار تلعق الجدران وهي تلمع وتبرق. وصحت قائلًا:

- انظر يا عمي، انظر.

- حسن، هذه نيران كبريتية. هذا شيء طبيعي جدًّا في انفجار بركاني.

- ولكن ماذا لو أحاطنا اللهب؟

- لن يحيطنا.

- ولكن لو اختنقنا؟

- لن نختنق. السرداب يتسع ونحن سنغادر الطوافة لنحتمي في أي صدع نجده.

- والماء! الماء المتصاعد.

- لم يعد هناك ماء يا آكسل، ولكنْ نوع من الحمم المعجونة التي ترفعنا معها حتى فوهة البركان.

بالفعل كان العمود السائل قد اختفى، وحلت مكانه مواد حميمة كثيفة للغاية في حالة غليان. الحرارة أصبحت لا تُطاق، لدرجة أن أي ترموميتر لو وضع في هذه الأجواء لبلغ قياسه أكثر من سبعين درجة! غرقت في عرقي ولولا سرعة الصعود لكنا اختنقنا بكل تأكيد.

ومع ذلك لم ينفذ البروفيسور اقتراحه بمغادرة الطوافة، وحسنًا فعل. هذه العوارض المتماسكة بالكاد كانت توفر لنا سطحًا صلبًا ونقطة ارتكاز لم نكن لنجدها في أي موضع آخر.

وفي نحو الساعة الثامنة صباحًا وقع حدث جديد للمرة الأولى. توقفت فجأة الحركة الصاعدة وبقيت الطوافة ثابتة تمامًا بلا حراك.

- ماذا إذَنْ؟

تساءلت في هلع إذ هزني هذا التوقف كما لو كان صدمة شديدة.

- استراحة يا بني.

أجاب عمي.

- هل هدأت ثورة البركان؟

- أرجو ألا يكون هذا ما حدث.

قمت واقفًا وحاولت أن أستطلع ما حولي. ربما الطوافة اصطدمت بنتوء صخري وشكلت مقاومة عابرة أمام الحمم البركانية. في هذه الحالة يجب علينا أن نعيدها إلى الحركة سريعًا.

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث. عمود الرماد والحطام والشظايا الصخرية كان هو نفسه قد توقف.

- هل توقفت الحمم؟

صحت مرتاعًا.

- آه!

أجابني عمي وهو يعض نواجذه، أنت تخشى ذلك يا ولدي ولكن اطمئن، لحظة الهدوء هذه لن تستمر طويلًا. خمس دقائق مرت وسرعان ما سوف نستأنف رحلة الصعود نحو فوهة البركان.

لم يتوقف البروفيسور عن فحص الكرونوميتر وهو يخاطبني بهذه اللهجة الهادئة الواثقة. لا بد وأنه كان يملك أسبابًا تؤكد نظريته المتفائلة. وفجأة تحركت الطوافة بفعل هزة سريعة وغير منتظمة استمرت دقيقتين تقريبًا ثم توقفت مرة أخرى.

- حسن.

قال عمي وهو يرقب ساعته.

- سوف تستأنف الرحلة في غضون عشر دقائق.

- عشر دقائق؟

- نعم. نحن بصدد بركان ثورته ذات طبيعة متقطعة. هذا بركان يتركنا نتنفس معه.

كان هذا القول صحيحًا تمامًا. ففي الدقيقة المحددة، اندفعنا من جديد بسرعة فائقة واضطررنا إلى التعلق بالعوارض حتى لا نقذف إلى خارج الطوافة. ثم توقفت الهبة من جديد.

منذ ذلك الحين وأنا أفكر في هذه الظاهرة الفريدة من دون أن أجد لها تفسيرًا شافيًا.

على أي حال، يبدو لي أننا لم نكن في المدخنة الرئيسة لهذا البركان، ولكن في مسار موازٍ لها حيث التأثير المحسوس هو رد فعل عنيف لما يحدث في المدخنة الرئيسة.

كم مرة حدثت هذه المناورة؟ لست أدري. كل ما أستطيع أن أؤكده هو أنه في كل مرة كانت هذه الهزة تحدث كنا ننطلق إلى أعلى بسرعة متصاعدة، كما لو كنا قذيفة تنطلق من مدفع حقيقي. وعندما تتوقف الهزة كنا نختنق فعليًّا، وكاد الهواء الحارق يمزق رئتيَّ. فكرت حينها في متعة أن أجد نفسي وقد انتقلت فجأة إلى القطب الشمالي في درجة حرارة ثلاثين تحت الصفر. وأخذني خيالي الجامح في رحلة إلى سهول الجليد في بلاد الشمال، وتقت بشغف إلى هذه اللحظة التي أتدحرج فيها فوق ثلوج القطب الشمالي. على أي حال شعرت بثقل في رأسي يزداد شيئًا فشيئًا بفعل الهزات المتكررة، ومن دون ذراعَي هانز لكان رأسي ارتطم بالجدار الجرانيتي مرات ومرات. وبالتالي لم أحتفظ بذكريات محددة عما حدث في الساعات التالية. كل ما أذكره هو صورة غائمة تختلط فيها الانفجارات المستمرة بارتجاجات الكتلة الصخرية، والحركة الدائرية التي انتابت الطوافة التي كانت تطفو فوق أمواج من الحمم، وأمطار من رماد تتساقط فوقها، وألسنة لهب مزمجرة تحيطها من كل جانب، وكأن إعصارًا هائلًا انطلق فأثار النيران الجوفية. كان وجه هانز المعكوس على نيران الحرائق كان هو آخر شيء لمحته قبل أن يغشاني هذا الشعور بالرعب المؤلم الذي يحسه المحكوم عليه بالموت، وهو مكبل في فوهة مدفع لحظة أن تنطلق القذيفة فتمزقه أشلاء تتناثر في الهواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والأربعون

عندما أفقت شعرت بيد قوية تشدني. كانت يد الصياد الذي كان يسند عمي باليد الأخرى. لم أصب بجراح خطيرة، ولكني كنت أشعر بألم عام جعلني غير قادر على الحراك. فتحت عيني ووجدتني مستلقٍ عند منحدر جبل، على بعد خطوات من هوة عميقة لو تحركت أي حركة لسقطت فيها. هانز أنقذني من الموت بينما كنت أتدحرج على جوانب فوهة البركان.

- أين نحن؟

تساءل عمي الذي بدا لي شديد الانزعاج لأنه عاد إلى سطح الأرض. رفع الصياد كتفيه جاهلًا الإجابة.

- هل نحن في أيسلندا؟

تساءلت أنا بدوري.

- Nej.

أي كلا. أجاب هانز.

- كيف؟! كلا!

صاح البروفيسور غاضبًا.

- هانز مخطئ.

أجبته وأنا أحاول الوقوف.

كان القدر يخبئ لنا ما هو أكثر بعد مفاجآت هذه الرحلة التي لا حصر لها. كنت أتوقع رؤية قمة جبل مغطاة بالثلوج اللا نهائية وسط الصحاري القاحلة في المناطق الشمالية، وأشعة شمس باهتة تطل من سماء قطبية تظلل أقصى خطوط العرض. ولكن على العكس من كل هذه التهيؤات، وجدتني أنا وعمي والصياد، ممددين فوق منحدر جبل أجدب تحت شمس حارقة تكاد نيرانها تلتهمنا. بقيت فترة لا أريد أن أصدق ما أرى، ولكن الاحتراق الذي شعرت به في جسدي كان هو الدليل على أن ما رأيته هو واقع حقيقي. كنا شبه عارين عندما قذفتنا الحمم إلى خارج الفوهة. والكوكب الساطع، الذي لم نطلب منه شيئًا منذ شهرين، تبدى لنا شديد الكرم وفاض علينا بالنور والحرارة التي انسكبت علينا كشلال رائع.

وعندما ألفت عيناي الضوء المبهر الذي افتقدته طويلًا، سارعت إلى تصحيح أخطاء خيالي وتهيؤاتي السابقة. أقل ما كنت أريده هو أن أجد نفسي في سبيتزبرج، ولم أكن في حالة مزاجية تسمح بالتخلي عن هذه الرغبة بسهولة.

البروفيسور كان أول من تكلم، إذ قال:

- في الحقيقة، ما نراه هنا لا يبدو شديد الشبه بأيسلندا.

- ولكن ماذا عن جزيرة جان ماين؟

أجبته متسائلًا.

- ولا هذا أيضًا يا ولدي. هذا ليس بركانًا من براكين الشمال بتلالها الجرانيتية وقممها التي تغطيها الثلوج.

- ومع ذلك...

- انظر يا آكسل، انظر.

نظرت إلى حيث أشار فرأيت فوق رؤوسنا على ارتفاع خمسمائة قدم على الأكثر، فوهة بركان يتصاعد منها عمود عالٍ من اللهب المختلط بأحجار مفتتة ورماد وحمم، كل ربع ساعة في أعقاب انفجار عنيف.

كنت أشعر بتشنجات الجبل الذي كان يتنفس كما تتنفس الحيتان ملقيًا من حين إلى آخر بالنيران والهواء عبر فتحاته الهائلة.

وفي أسفل وعبر منحدر حاد، كانت حقول من المواد البركانية الملتهبة تمتد إلى عمق يتراوح بين سبعمائة إلى ثمانمائة قدم، مما يجعل ارتفاع البركان يصل إلى مائة توايز. أما قاعدة البركان فكانت مختفية داخل سلة حقيقية من الأشجار الخضراء استطعت أن أميز بينها أشجار الزيتون والتين والكروم المحملة بعناقيد قرمزية.

لم يكن هذا المشهد يشبه المناطق القطبية على الإطلاق، يجب أن نقر بذلك.

وما إن يصل البصر إلى تلك الحقول الغناء إلا ويرتد سريعًا ليتوه وسط مياه منبسطة لبحر أو بحيرة رائعة، مما يجعل من هذه الأرض المسحورة جزيرة مساحتها لا تزيد على فراسخ قليلة. إلى الشرق كان هناك ميناء صغير ترى قبله عدة منازل، وتتأرجح فوق مياهه الزرقاء سفن ذات أشكال غريبة. وفي البعد كانت مجموعات من جزر صغيرة الحجم تظهر طافية وسط المياه، وكانت كثيرة العدد حتى إنها بدت وكأنها عش نمل كبير. وإلى الغرب كانت السواحل البعيدة تمتد حتى الأفق، ترى في بعضها جبالًا زرقاء ذات أشكال متناسقة، وفي البعض الآخر، الأبعد، تبدو قمة شديدة الارتفاع تتراقص فوقها أعمدة دخان. وفي الشمال كانت تمتد مساحات شاسعة من المياه تتلألأ تحت أشعة الشمس، يظهر فيها هنا وهناك صارٍ يرتفع عاليًا أو شراع ينتفخ بالهواء.

كان إحساسنا بهذا الجمال الرائع من حولنا مضاعفًا بقدر دهشتنا وعدم توقعنا لوجوده. مكثت برهة أردد بصوت خفيض:

- أين نحن؟ أين نحن؟

أما هانز فقد أغمض عينيه غير مبالٍ بشيء، وأما عمي فقد ظل ينظر حوله من دون فهم أو تفسير لما يرى حتى قال أخيرًا:

- أيًّا كان هذا الجبل، فالطقس هنا حار والانفجارات لا تنقطع، ونحن لم نخرج من فوهة بركان لنتلقى قطعة صخر فوق رؤوسنا. فلنهبط إلى أسفل ثم نرى ماذا نفعل. على أي حال، أنا أتضور جوعًا وعطشًا.

بالتأكيد البروفيسور لم يكن ذا نفس قادرة على التأمل. أما أنا، ناسيًا الحاجة والتعب، كنت أفضل البقاء هنا في هذا المكان لساعات أخرى طويلة، ولكني كنت مضطرًّا للذهاب خلف رفيقَي.

كانت جوانب البركان شديدة الانحدار، وكنا ننزلق داخل حفر حقيقية من الرماد لنتفادى جداول الحمم التي تمتد على الحافة مثل ثعابين من نار.

لم أكف عن الثرثرة في أثناء رحلة الهبوط، إذ كان خيالي يعج بالأفكار من كل حدب وصوب.

- نحن في آسيا، على سواحل الهند، في جزر الملايو، في قلب الأوقيانوسيا! لقد قطعنا نصف الكرة الأرضية وانتهى بنا الأمر في الطرف المقابل لأوروبا.

- وماذا عن البوصلة؟

أجاب عمي.

- نعم! البوصلة!

رددت خلفه محرجًا.

- لو صدقت قراءات البوصلة نكون قد اتبعنا اتجاه الشمال طوال الوقت.

- وهل كذبت البوصلة إذَنْ؟

- ماذا؟! كذبت!

- ما لم يكن هذا هو القطب الشمالي!

- القطب! كلا، ولكن...

كنا بصدد واقع لا نملك له تفسيرًا. وأنا لم أكن أعرف سوى الخيال.

وبالرغم من حديثنا السابق، كنا نقترب من هذه المساحات الشاسعة من الخضرة التي كان مرآها يسعد القلب. كنت أتضور جوعًا وعطشًا لكن لحسن الحظ وبعد مسيرة ساعتين تبدت أمام ناظرينا قرية جميلة تغطيها أشجار الزيتون وأشجار الرمان والكروم التي بدا أنها متاحة للجميع. على أي حال، في وضعنا الحالي لم نكن آبهين باستئذان كائن من كان، أي سعادة شعرنا بها ونحن نقضم هذه الفاكهة اللذيذة ونمتص رحيق هذه الأعناب القرمزية! وغير بعيد من هذا المكان، وسط العشب وتحت ظلال الأشجار الجميلة، اكتشفت نبع ماء صافٍ، ارتوينا منه وغمسنا فيه وجوهنا وأيدينا لننتعش ونغتسل من عناء رحلتنا العجيبة.

وبينما كان كل منا مستلقيًا في هدوء ومستسلمًا للذة الراحة والاسترخاء، ظهر طفل بين أشجار الزيتون، لمحته فصحت فرحًا:

- آه! ها هو أحد سكان هذه البقاع السعيدة.

كان كائنًا بائسًا صغيرًا وفقيرًا، وشت ملابسه بفقره، وكان يبدو عليه المرض الشديد. وقد روعه مرآنا كثيرًا، إذ كنا في الحقيقة نصف عراة، ذوي ذقون كثة. في الحقيقة كان مظهرنا بائسًا، وما لم يكن هذا البلد بلد لصوص، كان مظهرنا خليقًا بأن يثير رعب مواطنيه.

في اللحظة التي أوشك الطفل أن يطلق ساقيه للريح هاربًا منا، جرى هانز خلفه وعاد به بالرغم من صراخه ومحاولته الإفلات من قبضته.

حاول عمي أن يهدئ من روع الصبي بقدر ما استطاع، وخاطبه بلغة ألمانية سليمة قائلًا:

- ما اسم هذا الجبل يا صديقي الصغير؟

ولم يُجبه الصبي، فاستطرد قائلًا:

- حسن، نحن لسنا في ألمانيا بالقطع.

وأعاد السؤال نفسه بالإنجليزية. ولم يُجبه الصبي هذه المرة أيضًا. وصاح البروفيسور غاضبًا:

- أهو أبكم هذا الصبي؟

ثم أعاد السؤال نفسه باللغة الفرنسية، متباهيًا بقدرته على الحديث بألسنة عديدة. وقوبلت هذه المحاولة أيضًا بالصمت التام من الجانب الآخر. فقال عمي:

- فلنجرب الإيطالية إذَنْ!

وكرر السؤال وهو نافد الصبر:

- Dove noi siamo؟

أي: أين نحن الآن؟ ولم يحر الصبي جوابًا. فتملك عمي الغضب وأمسك بالطفل من أذنيه وأخذ يهزه وأعاد سؤاله بالإيطالية مرة أخرى:

-Come si noma questa isola؟

أي: ما اسم هذه الجزيرة؟

- Stromboli.

أجاب الراعي الصغير وهو ينفلت من قبضة هانز ليجري هاربًا وسط أشجار الزيتون.

لم نفكر فيه قَطُّ، هذا الستروميولي، البركان الموجود في جزيرة صقلية، أي أثر تركه على مخيلتي هذا الاسم غير المنتظر! نحن كنا في البحر المتوسط، في منتصف الأرخبيل الأيوليانى الذي في

ذاكرة الأساطير، في سترونغابيل القديمة حيث إيولا يمسك بالرياح والأعاصير مكبلة بالسلاسل. وهذه الجبال الزرقاء التي تمتد إلى الشرق هي جبال كالابريا! وهذا البركان المنتصب عند الأفق في الجنوب، هو بركان Etna، البركان الشرس ذاته.

ظللت أردد فرحًا: «سترومبولي! سترومبولي!». وصاحبني عمي بالحركات والكلمات كما لو كنا كورسًا يردد لحن الفرح.

آه يا إلهي! أي رحلة تلك! أي رحلة رائعة! دخلنا من فوهة بركان هبوطًا إلى القاع لنخرج من فوهة بركان آخر، وهذا الآخر يبعد بأكثر من ألف ومائتي فرسخ عن السنيفيليس، وعن أيسلندا، هذه البلاد القاحلة الملقاة على أطراف الأرض، ثم إن أخطار هذه الرحلة حملتنا وأتت بنا إلى قلب أكثر بلدان العالم جمالًا. هجرنا بلاد الثلوج الأبدية وصولًا إلى حيث الخضرة اللا نهائية، وتركنا فوق رؤوسنا الضباب الرمادي في المناطق الجليدية، لنعود إلى السماء الزرقاء في صقلية.

وبعد أن تناولنا عشاء لذيذًا من الفاكهة والماء الصافي استأنفنا السير وصولًا إلى ميناء سترومبولي. اتفقنا معًا على أنه ليس من حسن الفطن أن نفصح عن كيفية وصولنا إلى الجزيرة، إذ إننا لو فعلنا لاعتقد الإيطاليون ذوو العقلية التي تؤمن بالخرافات أننا شياطين تقيأتنا أعماق الجحيم فسقطنا في جزيرتهم الجميلة. يجب أن نكتفي بالقول إننا ناجون من الغرق ألقت بنا المياه إلى الشاطئ. كانت هذه الرواية باهتة لا شرف فيها، ولكنها كانت أكثر أمانًا من الحقيقة.

وبينما نحن في الطريق سمعت عمي يهمهم قائلًا:

- ولكن البوصلة، البوصلة التي كانت تشير إلى الشمال، كيف نفسر هذا الأمر؟

- يا إلهي!

أجبت بلهجة فيها الكثير من الازدراء، لا يجب أن نجد تفسيرًا، هذا أسهل كثيرًا.

- ماذا؟ أستاذ في اليوهانيوم لا يجد تفسيرًا وتعليلًا لظاهرة فلكية؟ أي عار هذا؟!

وبينما هو يتكلم هكذا، وهو نصف عارٍ وحقيبته الجلدية تتدلى حول خاصرته ونظارته تعلو أنفه، عاد عمي إلى ذاته، عاد مرة أخرى عالم الجيولوجيا الرهيب.

وصلنا إلى ميناء سان-فينشزو بعد ساعة من مغادرتنا بستان الزيتون، وهناك طلب هانز أجر الأسبوع الثالث عشر من عمله معنا، والذي سُدد له عن طيب خاطر بالإضافة إلى سلام حار من البروفيسور ومني.

في هذه اللحظة، حتى لو يشاركنا تأثرنا الزائد، إلا أن هانز ترك العنان لنفسه وقام بفعل عاطفي نادر الحدوث، إذ ضغط ضغطة خفيفة على أيدينا بأطراف أنامله وابتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والأربعون

هذه خاتمة القصة التي سيرفض أن يصدقها هؤلاء الذين اعتادوا ألا يثير دهشتهم شيء. ولكني حصنت نفسي مقدمًا ضد تشكيك البشر. عند وصولنا إلى الميناء لقينا صيادو سترومبولي بحفاوة يستحقها قوم نجوا من الغرق. أعطونا ثيابًا وأغذية. وبعد انتظار دام ثماني وأربعين ساعة، وفي يوم 31 أغسطس أقلنا زورق صغير إلى ميسينا حيث استرحنا عدة أيام من إرهاق دام طويلًا.

وفي يوم الجمعة 4 سبتمبر صعدنا إلى متن الـ Volturne وهي إحدى سفن البريد الإمبراطوري الفرنسية، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى مارسيليا وليس في ذهننا سوى فكرة واحدة، هي البوصلة الملعونة. هذا الحدث غير المفهوم لم يفتأ يزعجني بجدية. وفي مساء التاسع من سبتمبر وصلنا إلى هامبورج. أي دهشة تلك التي انتابت مارتا وأي سعادة تلك التي أحست بها جروبن، لا أجد وصفًا لكلتيهما. وقالت لي خطيبتي الحبيبة:

- والآن وقد صرت بطلًا، لن يتعين عليك أن تفارقني بعد الآن أبدًا يا آكسل.

نظرت إليها، كانت تبكي وتبتسم.

وأترك للقارئ أن يخمن أثر عودة البروفيسور إلى هامبورج منتصرًا، إذ كانت مارتا الثرثارة قد أذاعت خبر مغادرته في رحلة إلى باطن الأرض وانتشر الخبر في العالم بأسره. لم يكن أحد يريد أن يصدق، ولم تُغير عودته من الأمر شيئًا.

ومع ذلك، غيَّر وجود هانز والمعلومات المختلفة الآتية من أيسلندا الرأي العام شيئًا فشيئًا.

وحينئذٍ أصبح عمي رجلًا مهمًّا، وأصبحت أنا ابن أخ الرجل المهم وهذا يكفي. وأقامت هامبورج حفلًا كبيرًا على شرفنا. وعقدت الجلسة العامة في اليوهانيوم حيث قدم البروفيسور سردًا لرحلته الاستكشافية، ولم يحذف منها الوقائع الخاصة بالبوصلة وقراءتها. وفي اليوم نفسه أودع في أرشيف البلدة مخطوطة ساكنوسسيمم، وعبر عن أسفه الشديد لكون الظروف التي كانت أقوى من إرادته لم تسمح له بالسير على خطى المسافر الأيسلندي وصولًا إلى مركز الأرض. كان متواضعًا في عز مجده وشهرته تضاعفت لذلك.

كل هذا المجد كان حريًّا بأن يجعل له حسادًا، وقد كان، ومثلما صمدت نظرياته المستندة إلى حقائق ثابتة مخالفة لأنظمة العلم فيما يتعلق بمسألة النار المركزية، صمد البروفيسور أيضًا عن طريق الكتابة والقول في مناظرات متميزة جمعته بعلماء من كافة الدول.

أما عن نفسي، فلم أستطع أن أقر نظريته عن التبريد. فقد كنت بالرغم مما رأيته، أؤمن وسوف أؤمن دائمًا بالحرارة المركزية، ولكني أعترف أن بعض الظروف التي ما زالت غير واضحة يمكن أن تغير هذا القانون تحت تأثير الظواهر الطبيعية.

في الوقت الذي كانت فيه هذه المسائل ساخنة ما زالت، شعر عمي بحزن حقيقي، إذ إن هانز وبالرغم من توسلات عمي، غادر هامبورج. الرجل الذي ندين له بكل شيء لم يُرد أن يدعنا نرد له الدين.

عاوده الحنين إلى أيسلندا، وقال لنا ذات يوم: «Färval»، وبعد كلمة الوداع البسيطة هذه غادر عائدًا إلى ريكيافيك التي وصلها سعيدًا راضيًا.

كنا قد تعلقنا جدًّا بصيادنا الشجاع، ولن يجعل غيابه هؤلاء الذين أنقذ حياتهم ينسونه أبدًا، وبكل تأكيد سأعود لأراه مرة أخيرة قبل أن أموت.

في النهاية، يجب أن أضيف أن هذه «الرحلة إلى مركز الأرض» أحدثت تأثيرًا هائلًا في كل أرجاء العالم. فقد طبعت وترجمت إلى جميع اللغات، وتنازعت الصحف الأكثر شهرة حلقاتها الرئيسة، وعلق عليها وناقشها وهاجمها وساندها بإيمان متساوٍ فريق المؤمنين بها والكافرين بكل ما جاء فيها على حدٍّ سواء. وهو شيء نادر الحدوث لو تعلمون! وبقي عمي ينعم طوال حياته بالمجد الذي أصابه.

ولكن شيئًا من الضيق، بل من العذاب، ظل يشوب هذا المجد. إذ إن أمرًا مهمًّا بقي بلا تفسير، هو واقعة البوصلة. فبالنسبة لعالم كبير تبقى ظاهرة مثل تلك التي حدثت، أمرًا يعذب ذكاء المرء ويتحداه. ولكن السماء كانت تريد لعمي أن تكتمل سعادته.

ففي يوم ما وبينما كنت أقوم بترتيب مجموعة من المعادن في دولاب بمكتبه، لمحت البوصلة الشهيرة وبقيت ألاحظها. كانت في هذا المكان منذ ستة أشهر، في هذا الركن، غافلة عن هذا القلق الذي تسببت فيه.

وفجأة! حدث شيء أذهلني وصرخت، وأتى البروفيسور يجري. سألني في هلع:

- ماذا بك؟

- هذه البوصلة.

- ما لها؟

- إبرتها تشير إلى الجنوب وليس إلى الشمال.

- ماذا تقول؟

- انظر، قطباها تغيرا.

- تغيرا!

حدق عمي في البوصلة وقارن ثم قفز قفزة هائلة ارتج المنزل تحت وقعها.

أي ضوء هذا الذي أنار عقله وعقلي معًا!

- هكذا إذَنْ!

صاح عمي عندما استرجع قدرته على النطق:

- بعد وصولنا إلى رأس ساكنوسسيمم، أشارت إبرة هذه البوصلة الملعونة إلى الجنوب بدلًا من الشمال؟

- بكل تأكيد.

- هذا يفسر الخطأ الذي وقعنا فيه. ولكن أي ظاهرة أحدثت هذا الانقلاب بين القطبين؟

- أمر بسيط.

- اشرح يا ولدي ما تفكر فيه.

- في أثناء الإعصار ونحن في بحر ليدنبروك، كرة النار التي مغنطت حديد الطوافة، تسببت بكل بساطة في إرباك بوصلتنا!

- هكذا إذَنْ!

صاح البروفيسور وانفجر ضاحكًا:

- ما حدث كان خدعة من الطاقة الكهربية؟

ومنذ ذلك الحين أصبح عمي أكثر العلماء سعادة وأصبحت أنا أكثر الرجال فرحًا، حيث إن محبوبتي الفيرلاندية تخلت عن موقعها كتلميذة، وتبوأت مكانتها في منزل كونينج شتراسه بوصفها ابنة الأخ والزوجة أيضًا. وغني عن القول إن عمها هو البروفيسور الأشهر أوتو ليدنبروك، عضو كل الجمعيات العلمية والجغرافية والجيولوجية في قارات العالم الخمس.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

نشر هذا العمل ضمن مجموعة «À tous les vents».

نشرته المكتبة الإلكترونية في كيبيك.

المكتبة الإلكترونية في كيبيك هي ملكية خالصة لجون-إيف دوبوي.

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي و العشرون
الفصل الثاني و العشرون
الفصل الثالث و العشرون
الفصل الرابع و العشرون
الفصل الخامس و العشرون
الفصل السادس و العشرون
الفصل السابع و العشرون
الفصل الثامن و العشرون
الفصل التاسع و العشرون
الفصل الثلاثون
الفصل الحادي و الثلاثون
الفصل الثاني و الثلاثون

الفصل الثالث و الثلاثون
الفصل الرابع و الثلاثون
الفصل الخامس و الثلاثون
الفصل السادس و الثلاثون
الفصل السابع و الثلاثون
الفصل الثامن و الثلاثون
الفصل التاسع و الثلاثون
الفصل الأربعون
الفصل الحادي و الأربعون
الفصل الثاني و الأربعون
الفصل الثالث و الأربعون
الفصل الرابع و الأربعون